

العجائب البلاغية

في

الخطاب القرآني

دالاتفات أنموذجا

سألف

الدكتور مازان موفق صديق الخيرو

التدريس في كلية الآداب
جامعة الموصل

دار الفکر

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دمشق

مكتبة دار البيان

دمشق - ساحة الحجاز - بناء ملا وماضي

هاتف: ٢٢٢٩٠٤٥ - فاكس: ٢٢٣٦٥٠٢ - ص.ب ٢٨٥٤

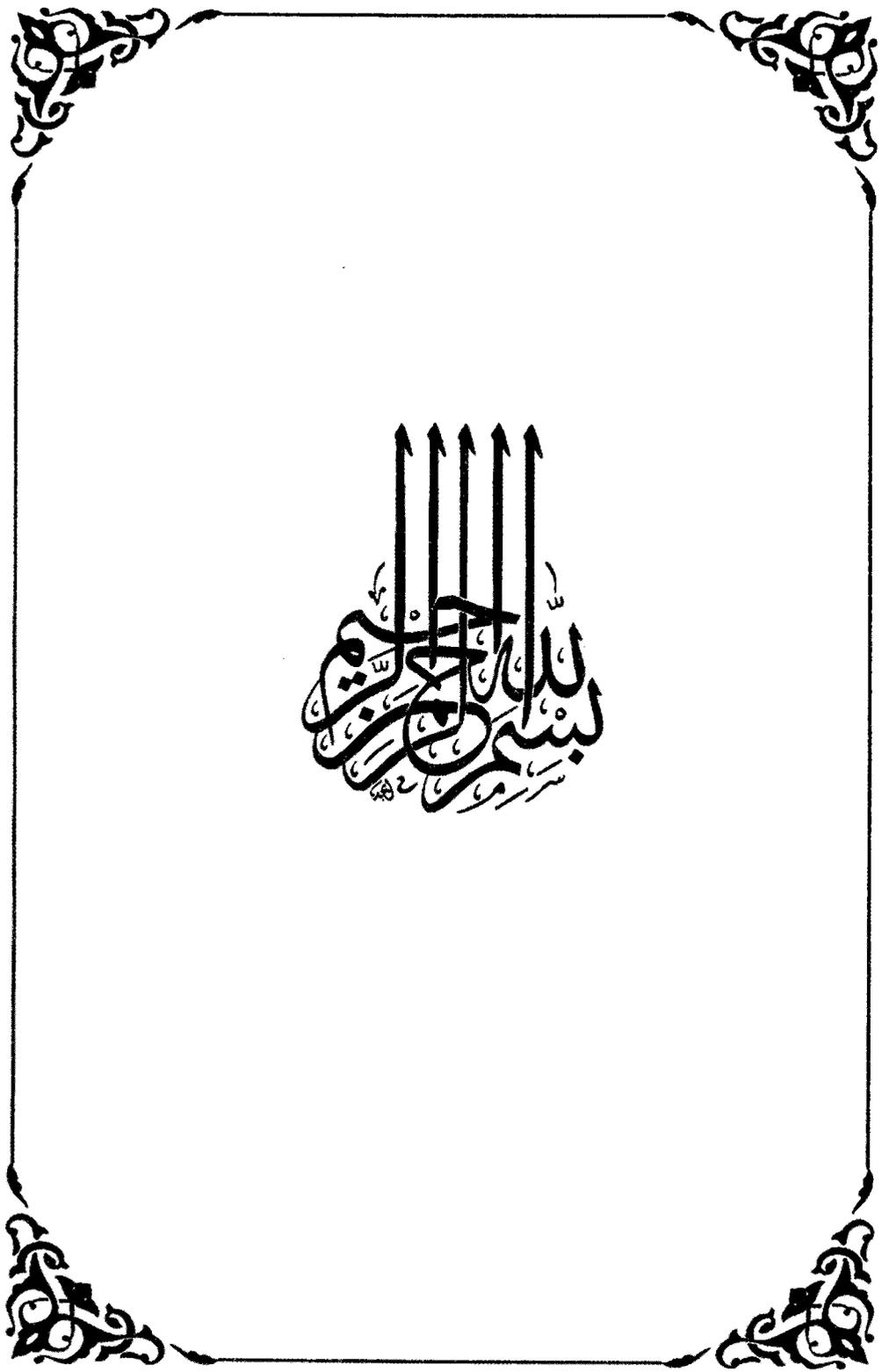
E-mail: Albayan_in@hotmail.com



الإعجاز البلاغي

في

الخطاب القرآني
«الاتقان أنموذجاً»



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فقد كانت رغبة في نفسي عميقة بأن أدرس موضوعاً في القرآن الكريم يتصل ببلاغته المعجزة ، فوقع الاختيار على ظاهرة الالتفات وهي ظاهرة بلاغية واضحة جد الوضوح في القرآن الكريم ، وكنت أدرك منذ الوهلة الأولى لاختيار الموضوع مدى دقته ، وضخامة مادته ، غير أن حبي الكبير للقرآن الكريم دفعني إلى الكتابة فيه ، ومن ثم آثرت هذا الموضوع على غيره من الموضوعات ، ومن الأسباب الأخرى أيضاً كون الالتفات من أكثر الظواهر ترديداً في القرآن الكريم ، وقد لاقت هذه الظاهرة في مراحل تحديد مفهومها الاصطلاحي خلافاً واسعاً ، وأورد البلاغيون كثيراً من صور تلك الظاهرة في الخطاب القرآني ، غير أن إيرادهم لتلك الصور لم يكن غالباً من أجل تحليلها والوقوف على مكامن التعبير والتأثير فيها ، بل من أجل التمثيل والاستشهاد .

وقد أجرى الباحث عملية إحصائية لآيات هذه الظاهرة في القرآن الكريم وهو لا يزعم أنه بلغ في هذا الإحصاء مرتبة « الدقة » لمواضع الالتفات ولكن يعلم الله سبحانه وتعالى أن الباحث لم يدخر جهداً في سبيل رصد الموضوع الالتفاتي .

ولما انعقدت النية على دراسة ظاهرة الالتفات في القرآن الكريم بوصفها إعجازاً قرآناً اعتمدنا المنهج الانتقائي في تحليل الآيات القرآنية ، ووسعنا مجال الإفادة من المناهج النقدية والأدبية التي لا تتناقض ورسالة القرآن العظيم مع التركيز بشكل خاص على المنهج البلاغي والأسلوبي مع محاولة المقاربة بينهما؛ لذلك يمكن أن نطلق على منهجنا « المنهج البلاغي الأسلوبي » .

ومن بين سلسلة المصادر التي اعتمدت في الكتاب ، والتي شكلت رافداً مهماً على المستويين النظري والتطبيقي « تفاسير القرآن الكريم » بشكلها البلاغي خاصة ، فضلاً عن الكتب البلاغية والأسلوبية .

أما بخصوص المشكلات التي واجهت الكاتب ، فإن أغلبها مشكلات متعلقة بالمفهوم الإجرائي لظاهرة الالتفات لما أثارته من خلاف .

ولما استوت الصورة العامة عن الموضوع على المستويين النظري والتطبيقي ، كان من الضروري وضع خطة تنسجم مع منهج الدراسة ، وطبيعة المادة المعالجة ، فكانت هذه الخطة في الإطار المنهجي الآتي :

اشتمل الكتاب عموماً على مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ، وثبت للمراجع والمصادر العربية والمترجمة ، وثبت المحتويات ، وملخص الكتاب باللغة الانكليزية .

وقد عالج الكتاب في التمهيد ثلاثة محاور أساسية كان المحور الأول الالتفات في اللغة ، وفي المحور الثاني إشكالية الالتفات في المفهوم الاصطلاحي ، وفي المحور الثالث تناول البحث وظائف الخطاب الالتفاتي في القرآن الكريم .

أما الفصل الأول المعنون بـ « بلاغة الأنماط الأسلوبية للالتفات الضمائري - التركيب والدلالة - » ، قد اشتمل هذا الفصل على مدخل وثلاثة مباحث ،

تناول في المبحث الأول سياقات التحول للالتفات الضمائي (الغيبة / الخطاب
الخطاب/الغيبة) ، في حين تناول المبحث الثاني سياقات التحول
(الغيبة/التكلم ، التكلم/الغيبة) ، وتناول المبحث الثالث سياقات
(التكلم/الخطاب ، الخطاب/التكلم) .

أما الفصل الثاني المعنون بـ « بلاغة الأنماط الأسلوبية للالتفات الفعلي
- التركيب والدلالة - » فقد تناول الكتاب في هذا الفصل تحولات الالتفات
الفعلي في إطار مدخل وثلاثة مباحث ، فالأول تناول سياقات
(الماضي/المضارع ، المضارع/الماضي) ، في حين كان المبحث الثاني لسياق
(المضارع/الأمر) ، وفي الثالث والأخير درس البحث سياق (الماضي/الأمر)

أما الفصل الثالث المعنون بـ « بلاغة الأنماط الأسلوبية للالتفات العددي -
التركيب والدلالة - » فقد درس الكتاب فيه تحولات الالتفات العددي في إطار
مدخل وثلاثة مباحث ، فالأول تناول سياقات (الأفراد/الجمع ، الجمع/
الأفراد) ، في حين تناول الثاني سياقات (الأفراد/الثنية ، الثنية/الأفراد) ،
وفي المبحث الثالث تناول سياقات (الثنية/الجمع ، الجمع/الثنية) .

أما خاتمة الكتاب فقد اشتملت على بيان نتائج البحث في مفهوم الالتفات ،
ومنها أن مفهوم الالتفات بمعناه اللغوي يقارب مفهوم الالتفات الاصطلاحي
ولكن ليس إلى درجة التطابق ، وكذلك اشارت الخاتمة إلى وظائف الخطاب
الالتفاتي في القرآن الكريم ، وأن الوظيفة الدينية كانت الغاية الأساسية من
الخطاب الالتفاتي قياساً بالوظائف الأخرى ، واشتملت على بيان أهمية
المخططات المستخدمة في الكتاب وأهمية العميلة الإحصائية وما أسفرت عنه
من نتائج وكذلك وضحت دور الالتفات بأنماطه المختلفة في إيصال المقاصد

الشرعية في القرآن الكريم ، ومزايا كل نمط ومدى المساحة التي شغلها ، إذ ليس من الغريب أن يجد القارئ التفاوت بين الفصل الأول «الالتفات الضمائي» وبين الفصلين الآخرين «الفعلي والعددي» وما ذلك إلا لاتكاء القرآن الكريم على «الالتفات الضمائي» قياساً بالالتفات «الفعلي والعددي» .

وختاماً لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل للدكتور أحمد فتحي رمضان الحياي ، الذي غمرني بحبه وعطفه الكريمين وواكب مراحل تكوين هذا البحث وكان لملاحظاته السديدة بالغ الأثر في إنجاز هذا البحث ضمن هذه الصورة الموضوعية والعلمية ، فجزاه الله عني خير الجزاء .

ولا يفوتني أن أقدم خالص الشكر إلى الأستاذ الشيخ بشير محمد عيون صاحب مكتبة دار البيان بدمشق والاخوة العاملون معه لما بذلوه من جهد في العناية بطباعة هذا الكتاب ونشره .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

الدكتور مازن موفق صديق الخيرو
أستاذ في كلية الآداب
جامعة الموصل

الإعجاز البلاغي

في

الخطاب القرآني

دالاتفات أنموذجاً

تأليف

الدكتور مازن موفق صديق الخيرو

المدرس في كلية الآداب
جامعة الموصل

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الالتفات في المفهوم اللغوي

وردت مادة « لفت » في المعجم العربي، إذ جاء في لسان العرب: « لفت وجهه عن القوم : صرفه ... وتلفتَ إلى الشيء والتفتَ إليه: صرف وجهه إليه ... واللّفت : ليّ الشيء عن جهته كما تقبضُ على عنق إنسان فتلفته ... ولفت الشيء وفتله إذا لواه... واللّفتُ الشقُّ... وقولهم: لا يلتفت لفت فلان أي لا ينظر إليه »^(١) ومنه يقال : « لفته عن رأيه لفتاً : إذا صرفته عنه »^(٢) ، ويقال: الألفت الرجل الأعسر واللفتة الغليظة من العصائد، لأنها تلفت أي تُلوى ولفّت اللحاء عن الشجرة قشرته^(٣)، « ورجلٌ ألفتُ : أحولُ ، وتيسٌ ألفتُ : ملتوى القرنين »^(٤) .

إن مادة « لفت » دلت على المعاني الآتية : الصرف والقبض والقتل والليّ والأكل والنظر والمزج والخلط، واتخذت هذه المعاني اللغوية وجهات شتى في البلاغة العربية إذ اتصلت بالجهد والقوة ، وبالسلب والإيجاب، وبالاستجابة النفسية، والسلوك الإنساني ، لأنها حملت معنى الجهد والقوة والمعاناة ، وشدة الاعتصار والمكابدة .

(١) لسان العرب ، ابن منظور : ٣٨٩/٢-٣٩٠ (مادة لفت) .

(٢) المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ : ٣٣٠ مادة (لفت) .

(٣) معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس : ٢٥٨/٥ .

(٤) أساس البلاغة ، الزمخشري : ٣٤٧ (مادة لفت) .

وعند تناول مادة « لفت » واستخدامها في البلاغة العربية على سبيل الحقيقة أو المجاز، نراها تأخذ عدة صور نذكر منها : قولهم « فلان يلفتُ الكلامَ لفتاً : يرسله على عواهنه لا يبالي كيف جاء »^(١)، والمعنى « أنه يقرؤه من غير روية تبصر »^(٢)، وجاءت مادة « لفت » في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ أَجِئْنَا لِنَتْلِفَنَّآ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴾ [يونس : ٧٨] . وقيل : اللفتُ هنا الصرّف^(٣) .

وجاء في الحديث النبوي الشريف حول مادة « لفت » قول الرسول ﷺ : « إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يلفت الكلام كما تلفت البقرة الخلا بلسانها »^(٤)، ويقال : « اللفوت من النساء التي تكثر التلفت . وقيل : هي التي يموت زوجها أو يطلقها ويدع لها صبيانا، فهي تكثر التلفت إلى صبيانها، وقيل : هي التي لها زوج ولها ولد من غيره، فهي تَلَفَّتْ إلى ولدها، وفي الحديث « لا تتزوجن لَفُوتاً » هي التي لها ولد من زوج آخر، فهي لا تزال تلتفت إليه وتشتغل به عن الزوج »^(٥) .

فالمادة المعجمية أو اللغوية لمفهوم الالتفات « تدور في عمومها - كما نرى - حول محور دلالي واحد هو التحول عن المؤلف من القيم أو الأوضاع أو أنماط السلوك »^(٦) .

(١) المصدر السابق نفسه : ٣٤٧

(٢) لسان العرب : ٣٩٠/٢ .

(٣) تهذيب اللغة ، الأزهري : ٣٨٥/١٤ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ٣٨٥/١٤ .

(٥) لسان العرب : ٣٩٠/٢ .

(٦) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ، د. حسن طبل : ١١ .

إشكالية الالتفات في المفهوم الاصطلاحي :

يعد أسلوب « الالتفات » من بديع فنون البلاغة، وهو أسلوب لطيف من أساليب اللغة العربية، وملمح دقيق من ملامح النظرية الأسلوية الحديثة، وهو على المستوى الفني « من الظواهر التي تتحكم في الأساليب بصيغة الحضور الفاعل والمؤثر ، وكأن الالتفات - وهو يواصل أداء دوره الفني - يحقق الاستجابة الطبيعية لنزوع الإنسان إلى التنوع والتجديد في أساليب تعبيره وصيغ كلامه »^(١)، والشيء اللافت للانتباه أن مفهوم الالتفات الاصطلاحي على كثرة وروده في موروثنا البلاغي والنقدي « قد لقي قدرًا من الخلط والاضطراب لم يتعرض لمثله - فيما نرى - مصطلح بلاغي آخر؛ فحين نتأمل مسيرة ذلك المصطلح في مؤلفات هذا الموروث نجده يلتقي بالظاهرة التي بين أيدينا تارة، ويتجاوزها إلى غيرها من الظواهر البلاغية تارة أخرى » .

ولعل بداية الإشارة إلى الالتفات كانت عند الأصمعي (ت ٢١٦هـ)، قال أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) : « أخبرنا أبو أحمد قال : أخبرني محمد بن يحيى الصولي، قال : قال الأصمعي : أتعرف التفاتات جرير ، قلت : لا ، فما هي ؟ قال : أتُنسى إذ تودُّعنا سُليمي بعود بشامة سُقي البشام

ألا تراه مقبلاً على شعره ثم التفت الى البشام فدعا له، وهذه الرواية التي تناقلتها كتب التراث والتي تدل على أن مصطلح الالتفات كان معروفاً منذ القرن الثاني الهجري تقريباً ، تدل من جهة أخرى على أن مفهومه كان يختلف سابقاً

(١) فن الالتفات في مباحث البلاغيين ، جليل فالح ، آداب المستنصرية ١٩٨٤ .

عن مفهومه الذي عرف به فيما بعد، إذ أن دعاء جرير للبشام بعد الاقبال على شعره إنما هو مجرد تحول عن معنى إلى معنى آخر، أي أنه مفهوم آخر غير الالتفات الذي سيدل عليه المصطلح والذي يشترط توحد المعنى بين طرفي الصورة الالتفاتية (الملتفت عنه والملتفت إليه) .

« ومما يلفت أنظارنا في خبر الأصمعي أن محمد بن يحيى الصولي لم يكن يعرف معنى الالتفات حتى نبهه إليه الأصمعي »^(١) .

ومن أوائل المفسرين الذين تنبهوا إلى مفهوم « الالتفات » أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ) وإن لم يصرح بلفظه، إذ أطلق على عموم مباحث البلاغة العربية تسمية « مجاز »، فعدّ عملية التحوّل بين أنماط الضمائر مجازاً بقوله : « ومن مجاز ما جاءت مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته إلى مخاطبة الغائب، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمُوعًا ﴾ [يونس: ٢٢]، ومن مجاز ما جاء خبره عن غائب ثم خوطب الشاهد، ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ * أَوْلَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ﴾^(٢) [القيامة: ٣٣ - ٣٤]

وبهذا المنطلق - أيضا - نرى إيراد ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) لبعض صور الالتفات سالكاً مسلك أبي عبيدة في جعلها تحت مصطلح « المجاز » بقوله : « وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريض والإفصاح والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين ... مع أشياء كثيرة سنها في أبواب المجاز، وبكل هذه المذاهب نزل القرآن »^(٣) .

(١) فن الالتفات في مباحث البلاغيين : ٦٧ .

(٢) مجاز القرآن ، أبو عبيدة : ١ / ١١ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة : ١٥ - ١٦ .

وفي تراثنا البلاغي إشارة أخرى لمفهوم « الالتفات » نجدها عند المبرّد (ت ٢٨٥هـ) عند تناوله للغة القرآن الكريم أيضاً بقوله : « كانت المخاطبة للأمة ثم صرفت الى النبي ﷺ إخباراً عنهم »^(١)، وذلك في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَنَّهُم يَبِيعُ تَطِيبَةً ﴾ [يونس: ٢٢] .

لقد عدّ المبرّد الانتقال بين الضمائر « صرفاً » وهذا مما حدا ببعض البلاغيين أن يسموا الالتفات بـ « الصرف »، كما ورد عند أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ)، إذ يقول : « باب الانصراف : وهو أن يرجع من الخبر إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الخبر »^(٢) .

ومن الذين عدّوا « الالتفات » انصرافاً أيضاً: ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) بقوله : « هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر »^(٣)، والالتفات بحسب هذا التعريف يعني الانتقال من الكلام المباشر إلى الكلام غير المباشر أو بالعكس ، لكن ابن المعتز أضاف في نهاية تحديده : إن هذه الصورة تعني عملية انتقال عن معنى يكون فيه الى معنى آخر^(٤)، ولا شك أن أسلوب الالتفات « هو نقل معنوي لا لفظي فقط »^(٥)، إذ أن كل تغيير لفظي يستدعي تغييراً معنوياً .

(١) الكامل في اللغة والأدب ، المبرّد : ٢٢/٣-٢٣ .

(٢) البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ : ٢٠٠ .

(٣) كتاب البديع ، ابن المعتز : ٥٨ .

(٤) ينظر : علم البديع والبلاغة عند العرب ، أ.ج كراتشكوفسكي ، ت : محمد الحجري : ٤٧ .

(٥) الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) ، الكفوي : ١٧٠ .

واستكمالاً لذلك نجد أن مفهوم « الالتفات » في مدونة ابن المعتز البلاغية يتموضع في قسمين :

القسم الأول : انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعكسه .

القسم الثاني : الانصراف عن معنى .

ويتجسد مفهوم « الالتفات » عند ابن المعتز في قسمه الأول بنمط الضمائر ، أما بالنسبة للقسم الثاني فيتعلق بمقصدية الخطاب ، فالأول يعني التركيب ، أما الثاني فيعني الدلالة .

إن عدّ ابن المعتز « الالتفات » انصرافاً يعني عملية التغيير الشكلية في نظام حركة الضمائر التي ينتج عنها تغيير المعنى مع وضوح شكل هذا التغيير^(١) .

ونلاحظ بعد ذلك أن ابن المعتز قد تحدث عن الالتفات ضمن حديثه عن البديع تحت ما سماه « محاسن الكلام » وكان مفهوم الالتفات هو أول تلك المحاسن عنده .

والبديع عنده بمعناه الخاص كأحد علوم البلاغة العربية ، وإن جعل (الاستعارة) من البديع مع انتمائها إلى علم البيان ، مع كل من (الطباق والجناس ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها والمذهب الكلامي) والاستعارة بحسب سلم التصنيف البلاغي لا تنتمي إلى البديع بشكل مطلق ، ويعد قيمته البلاغية في المعنى القصدي الذي يحمله ، وانصرافه من جهة إلى أخرى ، ولهذا فإنه إذا لم يحمل الالتفات معنى جديداً في دورانه من جهة إلى أخرى فهو لا قيمة له^(٢) .

(١) ينظر : استقبال النص عند العرب ، د. محمد المبارك : ٢٧٥ .

(٢) ينظر : دراسات في البلاغة ، د. محمد بركات حمدي : ١٣٦ .

ويعني « الالتفات » لدى قسم آخر من البلاغيين ونقاد الأدب تواصلاً لسانياً (شفوياً) ، وصفة للمعنى الشعري في محور التواصل الأدبي ، فهذا قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) يقول عنه : « ومن نعوت المعاني الالتفات ، وهو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى فكأنه يعترضه إما شك فيه أو يظن بأن راداً يرد عليه قوله أو سائلاً يسأله عن سببه ، فيعود راجعاً إلى ما قدمه فإما يؤكد أو يذكر سببه ، أو يحل الشك فيه »^(١) ، ونلاحظ من خلال هذا التعريف « قيمة الالتفات من الناحية المعنوية وصلتها بالنفس الانسانية ، من افتراض السائل في سؤاله ، وتقديم الجواب عن السؤال أو إحلال الشك مكانه »^(٢) .

وفي إطار انصباب قيمة الالتفات على المعنى - تحدث أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) عن الالتفات جاعلاً إياه على ضربين بقوله : « الالتفات على ضربين ، فواحد أن يفرغ المتكلم من المعنى فإذا ظننت أنه يريد أن يتجاوزته يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به ... والضرب الآخر أن يكون الشاعر آخذاً في معنى وكأنه يعترضه شك أو ظن أن راداً يردّ قوله أو سائلاً يسأله عن سبب فيعود راجعاً إلى ما قدمه ، فإما أن يؤكد ، أو يذكر سببه ، أو يزيل الشك عنه »^(٣) .

من الواضح أن العسكري يضيف إلى ما قاله قدامة بن جعفر ضرباً آخر من ضروب أشكال « الالتفات » من خلال حديثه في الضرب الأول عن كيفية منكيات الانتقال عن معنى إلى معنى آخر ، فالمرسل بحسب رؤيته النقدية والبلاغية ، يتناول معنى معيناً ثم ينتقل إلى معنى آخر ، ثم يعود إلى المعنى الأول

(١) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر : ١٦٧ ، وينظر : تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، ابن أبي الأصعب المصري : ١٢٣-١٢٦ .

(٢) مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي : ٩٥ ، وينظر : البرهان في علوم القرآن ، الزركشي : ٣٦١ .

(٣) الأصول المعرفية لنظرية التلقي ، ناظم عودة خضر : ٦٩ .

ملتفتاً إليه مشيراً بذلك إلى الشكل التالي للمعنى الأول بقوله : « فيذكره بغير ما تقدم » أي بعبارة أخرى بالشكل المغاير أو المفارق للأول^(١) .

ويقارب أبو يعقوب السكاكي (ت ٦٢٦هـ) الالتفات مقارنة قدامة والعسكري في اندراجه ضمن علم المعاني بقوله : « واعلم أن هذا النوع أعني نقل الكلام من الحكاية إلى الغيبة لا يختص المسند إليه ولا هذا القدر ، بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها إلى الآخر، ويسمى هذا النقل التفتاتاً عند علماء المعاني، والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع، وأحسن نظرية لنشاطه، وأملاً باستدرار إصغائه، وهم أحرىء بذلك ، أليس قرى الأضياف سجيتهم ونحر العشار للضيف دأبهم وهجّيراهم ، لا مزقت أيدي الأدوار لهم أديماً، ولا أباحت لهم حريماً، أفتراهم يحسنون قرى الأشباح ، فيخالفون فيه بين لون ولون وطعم وإيراد ، ولا يحسنون قرى الأرواح فلا يخالفون فيه بين أسلوب وأسلوب وإيراد وإيراد ، فإن الكلام المفيد عند الإنسان يكون بالمعنى لا بالصورة أشهى غذاءً لروحه وأطيب قرى لها^(٢) .

ولا يكتفي السكاكي بتحديد « الالتفات » بنمط الضمائر فحسب، وإنما يدورُ الكلام إلى قضية التلقي ، فيرى أن عملية « النقل » هذه الحاصلة بين الضمائر تؤدي إلى تمكين المعنى، وحصول الاستجابة ، لأن الكلام عندما ينطوي على تعديل معين في أسلوب مخاطبته للمتلقي يؤدي إلى تحريك نشاط السامع وإيقاظه^(٣) ، « وتعود فكرة التمكين في البلاغة العربية إلى أصلين هما : دراسات

(١) ظاهرة العدول بين البلاغة العربية والأسلوبية الحديثة، عبد العزيز عبد الله، (أطروحة دكتوراه)،

كلية الآداب، قسم اللغة العربية، ١٩٩٩م : ٢٧٦ .

(٢) مفتاح العلوم، : ٩٥ .

(٣) ينظر : الأصول المعرفية لنظرية التلقي : ٧٠ .

الإعجاز القرآني والغاية بدراسة المعنى^(١)، ولا يكتفي السكاكي بتصنيف الالتفات ضمن علم المعاني في البلاغة العربية، وإنما ذكره في علم البديع دون أن يفصل فيه القول بقوله: « ومنه الالتفات، وقد سبق ذكره في علم المعاني »^(٢) ومن الذين تحدثوا عن « الالتفات » ضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) ويلاحظ عليه في كتابه « المثل السائر » أنه عندما عرض للالتفات كان منظم المنهج، مرتب العرض، لذا نراه عرض في النوع الرابع من الصناعة المعنوية إلى الالتفات، وأدار الحديث حول قيمته، وأنواعه وربطه بالذوق، ثم عرض ابن الأثير للعلاقة بين الالتفات والنظم، وللاتصال بين الالتفات والأسلوب^(٣).

وينزل ابن الأثير الالتفات منزلة علم البيان بقوله: « هو خلاصة علم البيان التي حولها يدندن، وإليها تُستند البلاغة، وعنهما يعنن وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا، وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة، لأنه يُنتقل فيه من صيغة إلى صيغة، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل أو من مستقبل إلى ماضٍ، أو غير ذلك ... ويسمى أيضا « شجاعة العربية » وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام »^(٤).

لقد أضاف ابن الأثير قسماً آخر للالتفات وهو الالتفات الفعلي، وذلك في قوله: « أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل ... إلخ ».

(١) الأصول المعرفية لنظرية التلقي : ٧٠ .

(٢) مفتاح العلوم : ٢٠٢ .

(٣) ينظر : دراسات في البلاغة : ١٤٦ .

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير : ١٨١/٢ .

وفي كتابه « الجامع الكبير » يضيف ابن الأثير نمطاً ثالثاً إلى جانب النمطين السابقين للانتفات ألا وهو نمط « العدد » بقوله : « الرجوع من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع ، ومن خطاب الجمع إلى خطاب الواحد »^(١) .

وهذا يعني أنه وسَّع المفهوم وطوَّره عن سابقه ، ويصف ابن الأثير الحديث عن الانتفات بالذوق المدرب ، إذ إن عملية الانتقال من صيغة إلى صيغة مرتبط بالمعنى ، والمعاني متشعبة لا نهاية لها ، وبهذا ربط ابن الأثير الانتفات بالأغراض النفسية والمقاصد الاجتماعية^(٢) ، بقوله : « والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضته ، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب غير أنها لا تُحد بحد ، ولا تُضبط بضابط ، لكن يشار إلى مواضع منها ، ليقاس عليها غيرها .

فإننا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ، ثم رأينا ذلك بعينه - وهو ضد الأول - قد استعمل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، فعلمنا حينئذٍ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة ، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود ، وذلك المعنى يتشعب شعباً كثيرة لا تنحصر ، وإنما يُؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه »^(٣) .

ولا يقتصر كلام ابن الأثير عند هذا الحد ، وإنما يشير إلى قيمة الانتفات في نظرية النظم وفصاحة العربية بقوله : « واعلم أيها الموشح لمعرفة علم البيان أن

(١) الجامع الكبير ، ضياء الدين بن الأثير : ١٠١ .

(٢) دراسات في البلاغة : ١٤٧ .

(٣) المثل السائر : ١٨٢/٢ .

العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية ، اقتضت ذلك ، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارها، وفتش عن دفتها ... ولا تجد ذلك في كل كلام ، فإنه من أشكال ضروب علم البيان، وأدقها فهماً، وأعمقها طريقاً»^(١) .

وقد أطلق ابن الأثير كما أسلفنا على الالتفات تسمية « شجاعة العربية » وقد سبقه ابن الجني إلى هذه التسمية^(٢) .

إن المقصود بالشجاعة الإقدام على أنماط تعبيرية مخالفة لما يقتضيه الأصل ، فالتغيرات التي تمارسها أنماط الالتفات إن تأملت عبارة عن اقتحام سبيل غير السبيل المألوف .

ويطالعنا في ميدان التنظير الاصطلاحي للالتفات أيضاً حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) من خلال بحثه لبلاغة التلقي الأدبي عند العرب بقوله : « والصورة الالتفاتية هي أن يُجمع بين حاشيتي كلامين متباعدي المآخذ والأغراض ، وأن ينعطف من إحدهما إلى الأخرى انعطافاً لطيفاً من غير واسطة ، تكون توطئة للصيرورة من أحدهما إلى الآخر على جهة من التحول والانعطاف غير الالتفاتية يكون بواسطة بين المنعطف والمنعطف إليه »^(٣) ، ويحدد حازم القرطاجني بلاغة التلقي عند العرب بقوله : « وهم يسأمون الاستمرار على ضمير متكلم ، أو ضمير مخاطب ، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة ، وكذلك يتلاعب المتكلم بضميره فتارة يجعله ياء على جهة الإخبار عن نفسه ، وتارة يجعله كافاً أو تاء فيجعل نفسه

(١) المثل السائر : ١٨٣/٢ .

(٢) الخصائص ، ابن جني : ٢٦/٢ .

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني : ٣١٥ .

مقام الغائب، فلذلك كان الكلام المتوالي فيه ضمير متكلم أو مخاطب لا يستطاب ، وإنما يستحسن الانتقال من بعضها إلى بعض»^(١) .

ومن الذين تناولوا « الالتفات » السجلماسي (ت ٧٠٤هـ) بقوله : « وهو المدعو عند قوم خطاب التلون ... وفائدة هذا الأسلوب من النظم والفن من البلاغة استقرار السامع والأخذ بوجهه، وحمل النفس بتنويع الأسلوب وطراءة الافتنان على الإصغاء للقول والارتباط بمفهومه »^(٢) .

ويعرّف الطيبي (ت ٧٤٣هـ) الالتفات بقوله : « وهو الانتقال من إحدى الصيغ الثلاث أعني الحكاية والخطاب والغيبة إلى الأخرى ، منها لمفهوم واحد رعاية لكنته »^(٣) .

ووقف العلوي (ت ٧٤٩هـ) موقف ابن الأثير في إبراز قيمة الالتفات في البلاغة العربية ، وتبيان منزلته بقوله : « اعلم أن الالتفات من أجل علوم البلاغة وهو أمير جنودها، والواسطة في قلائدها وعقودها »^(٤) .

ووقف أيضا في تعريفه للالتفات بين مذهبين :مذهب (التخصيص) الذي يجعل الالتفات مقتصرأ على نمط الضمائر وتحولاته، ومذهب (الإعمام) الذي يجد فيه اتساعاً في الكلام وشمولية دلالاته الظاهرة^(٥) بقوله : الالتفات « معناه في مصطلح علماء البلاغة هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٣١٥ .

(٢) المنزغ البديع في تجنيس أساليب البديع ، السجلماسي : ٤٤٢-٤٤٣ .

(٣) التبيان في البيان ، الطيبي : ٢٣٢ .

(٤) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الاعجاز ، العلوي : ١٣١/٢ .

(٥) فن الالتفات في مباحث البلاغيين : ٧٨ .

مخالف للأول ، وهذا أحسن من قولنا : هو العدول من غيبة إلى خطاب، ومن خطاب إلى غيبة، لأن الأول يعم سائر الالتفاتات كلها ، والحد الثاني إنما هو مقصور على الغيبة والخطاب لا غير»^(١).

ويرى ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) أن «الالتفات» هو «نقل الكلام من حالة إلى حالة أخرى»^(٢) وهو بتعريفه هذا ينضم إلى مذهب التعميم .

وقد جعل ابن البناء المراكشي العددي «الالتفات» ضمن (أقسام اللفظ من جهة واجهة المعنى نحو الغرض المقصود) وضمن فصل (الخروج من شيء إلى شيء) معرفاً إياه بقوله: «الالتفات هو أن يخرج من حضور إلى غيبة، وعكسه، ويسمى الالتفات ويقال له: خطاب التالوين»^(٣).

ويبدو مما تقدم أن علماء البلاغة أجمعوا على كون «الالتفات» هو عبارة عن انتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر، وما المصطلحات التي وردت في تعريفاتهم كالصرف والتلون والانصراف والانتقال والعدول سوى نعوت لمصطلح «الالتفات»^(٤)، ومن شروط الالتفات عند البلاغيين «أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى المنتقل عنه، وإلا يلزم عليه أن يكون في «أنث صديقي» التفات شرطه أيضاً أن يكون في جملتين»^(٥).

(١) الطراز : ١٣٢/٢ .

(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية : ٩٨ .

(٣) الروض المريع في صناعة البديع ، ابن البناء المراكشي العددي : ٩٨ .

(٤) فن الالتفات في مباحث البلاغيين : ٧٠ .

(٥) معترك الأقران في إعجاز القرآن ، السيوطي : ٣٨٢/١-٣٨٣ .

ويتحدث الدكتور حسن طبل عن سبب اشتراط البلاغيين للشرط الأول وإلحاحهم عليه بقوله : « إن اشتراط البلاغيين لهذا الشرط، وإلحاحهم على ضرورة تحققه هو - فيما نعتقد - دليل واضح على أن الالتفات حسب تصورهم له هو إحدى « الظواهر الأسلوبية » التي لا تتحقق - حسب معيار الاختيار - إلا إذا كان لها في الأقل بديل (أو ثرت عليه) في نظام اللغة، ذلك أن اتحاد المعنى بين المنتقل عنه والمنتقل إليه يعني أننا نكون مع كل صورة من صور الالتفات إزاء بديل لها مفترض (وهو اطراد الأسلوب على نسق المنتقل عنه) يقبله السياق، ويقره نظام اللغة «^(١) .

ويرى أيضا في تحليله لمنهج الأسلوبيين في تناول الأسلوب بأنه منهج قائم على المقارنة، ويرى بأن منهج البلاغيين هو الآخر قائم على المقارنة بقوله : « أما المنهج الذي سار عليه الأسلوبيون من أصحاب هذا الاتجاه في تحليل ظواهر الأسلوب فهو منهج المقارنة، أي مقارنة احل ظاهرة بديلها المفترض كي تتكشف القيمة الفنية لإيثارها - دون هذا البديل - في سياقها الخاص الذي وردت فيه ، ويمكن القول بأن هذا المنهج بعينه هو ما سار عليه كثير من البلاغيين في تحليل صور الالتفات حيث كان هذا التحليل لديهم يعتمد - في الأغلب الأعم من أحواله - على مقارنة الصورة الالتفاتية بصورة أخرى (مقدرة) تعادلها دلاليًا أطلقوا عليها « أصل الكلام » أو « تقدير الكلام » أو « مقتضى الظاهر » أو « مساق الكلام » أو ما إلى ذلك من مصطلحات استخدمت لديهم للدلالة على الصورة النمطية التي تتجلى بالقياس إليها القيمة الفنية لإيثار صورة الالتفات عليها «^(٢) .

(١) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : ٣٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ٣٨ .

ويمكن تتبع مصطلح « الالتفات » في المرجعية الاصطلاحية الحديثة ، وبالتحديد في ميدان علم الأسلوب ، إذ يعد ومعه كثير من الألوان البلاغية من الظواهر التعبيرية التي يعنى علم الأسلوب بمعالجتها وتحليلها في لغة الأدب ، والواقع أن ميدان هذا العلم الناشئ في أحضان علم اللغة الحديث يتداخل بل ويتطابق تطابقاً بيناً مع ميدان البحث البلاغي العربي ، إذ أن وظيفة كليهما هي عملية التقاط الانزياحات أو التحولات البنيوية في لغة الأدب لغرض الكشف عن بلاغة وأسلوبية شحناتها التأثيرية أو الدلالية على المتلقي^(١) .

وهو يعني بحسب ما جاء عند الدكتور مجدي وهبة « الانتقال الفجائي في أثناء الكلام إلى مخاطبة شخص أو شيء حاضر أو غائب، ويطلق الآن عادة على مخاطبة شخص غائب أو معنى مجسّد »^(٢) .

لقد أضيف إلى « الالتفات » عنصر المفاجأة، وبذلك أصبح يشكل عنصراً بنيوياً من خلال خلخلته للتشكيل النصي، وهذه الخلخلة تعد منحىً أسلوبياً، لأن « التأثير الأسلوبى يتلاشى حيث يكون الترتيب ترتيباً عادياً »^(٣) خالياً من الانزياح من وجهة نظر أسلوبية، وإن كان هذا المعيار لا ينطبق على كل النصوص والخطابات البنيوية، فالخطاب القرآني فيه تنظيم معجز ولا يخضع لأية رؤية نقدية وإنما يُخضع اللغة ويجعلها طيّعة له ، واللغة تؤدي دورها البلاغي سواء كانت ذات ترتيب عادي أم غير عادي ، لكن في حالة حصول الترتيب غير العادي كما هو الحال بالنسبة لاشتغال « الالتفات » الذي يكون الترتيب فيه غير

(١) ينظر أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : ٣٣ .

(٢) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبة وكامل المهندس : ٥٨ .

(٣) بنية اللغة الشعرية ، جان كوهن : ١٨٨ .

عادي لمخالفته لبنية الأصل اللغوي يضيفي هذا العدول في الترتيب وظائف
إبلاغية وحلية تحسينية للمعنى، ويختزل الكلام والمسافات اللفظية المكونة لنصه .

وإن الصورة الالتفاتية أو أية صورة أخرى من الصور البلاغية « مهما ندت
عن خطية نصها الأكبر فإنها لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته، إنها لا تغير إلا
من طريقة عرضه، وكيفية تقديمه »^(١) ، وعلى الرغم من وجود مخالفة خارجية
على صعيد الدوال غريبة نوعاً ما ومفارقة للبناء الخطي، إلا أنها تقوي المعنى،
وتظل وحدة المعنى متماسكة، « فالنص يتحرك ضمن دلالاته ولا شيء يقوى
على ضبط هذه الدلالات ، وتحديد مواقعها ، أو رسم بنائها قدر ما يقوى
الأسلوب عليه »^(٢) .

وقد بين الدكتور محمد عبد المطلب في أثناء تناوله للالتفات : بأن الالتفات
بنية تركيبية تقوم على المخالفة السطحية بقوله : « فالانتقال يعتمد على المخالفة
السطحية بين المنتقل عنه والمنتقل إليه، لكن البلاغيين يعيدون الانتظام لهذه
المخالفة بالنظر في المستوى العميق وإيجاد نوع من التوافق والانسجام بين طرفي
الالتفات، وهذه المخالفة تتمثل في (الضمائر) و(الأعداد) و(الزمن) »^(٣)

ويواصل الدكتور محمد عبد المطلب في حديثه عن بنية الالتفات بقوله :
« ويلاحظ البلاغيون أنه لكي تتحقق بنية الالتفات بما فيها من مخالفة سطحية
وتوافق عميق، لابد من وحدة السياق بين الملتفت عنه والملتفت إليه ، لأن تعدد

(١) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د. جابر عصفور : ٣٩٢ .

(٢) مقالات في الأسلوبية (دراسة) ، د. منذر عياشي : ١٧ .

(٣) البلاغة العربية (قراءة أخرى) ، د. محمد عبد المطلب : ٣٩٢ .

السياق يزيل المخالفة السطحية، ومن ثم تفقد البنية مكوناتها، فلو قلنا مثلاً :
(أكرمك) لوجدنا التركيب يضم ضميرين الأول (تاء المتكلم) والثاني (كاف
الخطاب)، وبرغم ذلك لا يدخل التركيب دائرة الالتفات، لأن كل ضمير يرتد
إلى طرف غير الطرف الذي يرتد إليه الضمير الآخر، (فتاء التكلم) تحتل وظيفة
الفاعلية، في حين أن (كاف الخطاب) تحتل وظيفة المفعولية»^(١).

إن مفهوم « الالتفات » بحسب الفهم الذي قدمها الدكتور محمد عبد
المطلب واسع جداً يشمل على أنماط عديدة (الضمائر - العدد - الزمن) فهو
يجمع آراء ابن الأثير التي رأت أن « الالتفات » يكون في نمطين (الضمائر -
الزمن) مضيفاً إليها نمط الالتفات العددي، وبذلك يتشكل الالتفات من بنيتين :
بنية (سطحية) وبنية (عميقة) وهما يتشكلان بحسب دلالة النص، فبنية السطح
تُظهر التغيرات، أما بنية العمق فإنها تعيد للنص خطيته الأصلية « ويتيح تتبع النسق
الداخلي للأداء اللغوي، مع مراقبة السياق ببصيرة نافذة ويقظة كاملة لاستكناه ما
اختبأ خلف السطح اللغوي »^(٢).

إن المخالفة السطحية التي يقوم عليها الالتفات تعد علامة أو إشارة لغوية تواصلية
وما اللغة إلا « نظام من الإشارات *system of sighs* التي تعبر عن الأفكار »^(٣).

فلكل كلمة داخل النظام « علاقة ... مع الكلمات التي تتبعها وتسبقها، إن
جزءاً كبيراً من قدرتها على إفادة المعاني المختلفة ينبع من هذا النموذج
الترتيبي »^(٤) اللغوي، والصورة الالتفاتية بوصفها أنموذجاً لغوياً تفجر « اللغة من

(١) البلاغة العربية (قراءة أخرى) : ٣٩٦-٣٩٧ .

(٢) تذوق النص الأدبي (جماليات الأداء الفني) ، د. رجاء عيد : ٥٥ .

(٣) علم اللغة العام ، فردينان دي سوسير : ٣٤ .

(٤) البنيوية وعلم الإشارة ، ترنس هوكرز : ٢٣ .

الداخل ، وتقطع الخط المستقيم الذي يخطه الكلام العادي ، بين المرسل ، والمرسل إليه ، ويضطرب بالتالي المفهوم المعجمي للغة «^(١) ، وبذلك تتعدد أشكال النص البنائية ، وإذا كان النص « متعدد المراحل ، أو متغير الأشكال ، أو متشعب الأجزاء ، فإنه يحتاج إلى عدة جمل أو مفردات لبسطه ، والإحاطة به ، وبطبيعة الحال ستترابط هذه الجمل برباط معنوي واحد ، وهو وحدة الموضوع الذي تدور حوله »^(٢) .

ونلاحظ أن « الالتفات » يمتد امتداداً سياقياً عبر عدة نصوص لغوية ، فالسمة المميزة لهذا الأسلوب كونه يضبط بضابط السياق ، والسياق (*context*) هو الذي يحدد المعنى الأسلوبي للنص ، لأن « الدلالة التي لا تتضح من موقع الكلمة في الجملة وحدها ، وإنما من خلال النظر إليها ، كعامل مؤثر في الموضوع كله »^(٣) ، وهذا التوجيه لنسق الدلالة نابع من عدة عوامل منها : البنية الالتفاتية التي تخالف سياق الكلام الطبيعي لتحدث بذلك مفارقة شكلية تندفع وراءها مقاصد إبلاغية ، تتكشف في بنية النص الدلالية ، وبناء عليه يعد « الالتفات » من وجهة النظر الأسلوبية أسلوباً سياقياً ، إذ يعدُّ « الأسلوب الوسيلة التي يراقب من خلالها منتج رسالة ما ، إنشاؤها إنعاش يقظة المتلقي بواسطة تأثيرات غير متوقعة .

إن طريقة الأسلوبية في آلياتها ما هي سوى هذا التأثير المفاجئ الذي يحدثه اللامتوقع في عنصر السلسلة الكلامية بالنسبة الى عنصر سابق «^(٤) ، ويصف ميكائيل ريفاتير وهو _ أحد المنظرين للأسلوبية الحديثة _ عملية مخالفة السياق

(١) الصورة الشعرية _ الكتابة الفنية _ الأصول والفروع ، د. صبحي البستاني : ٣١ .

(٢) الفصل والوصل في القرآن الكريم ، د. منير سلطان : ٢٠٠ .

(٣) منازل الرؤية _ منهج تكاملي في قراءة النص ، د. سمير شريف : ١٤ .

(٤) مفهومات في بنية النص ، مجموعة كتاب : ٧٥ .

بأنها خروج عن قاعدة اللغة أو المعيار، وهذا بدوره يعني إبراز انزياحات في الخطاب^(١)، وهذا الخروج لا يقتصر على بنية الصورة الالفتاتية وإنما يشمل كل صورة تتسم بهذه النمطية.

وعرّف ريفاتير السياق الأسلوبي بقوله : « السياق الأسلوبي هو نموذج لساني مقطوع بواسطة عنصر غير متوقع ... التوقع يمكن أن يؤدي إلى قراءة سطحية، بينما سيجبر عدم التوقع على الانتباه، [عندئذٍ] ستتوافق شدة التلقي مع شدة الإرسالية »^(٢)، وبعد ذلك يمكن مقارنة مفهوم الالفتات بوصفه عنصراً غير متوقع بمفهوم حديث ألا وهو مفهوم « المفارقة » ، والمفارقة عنصر ضروري لكل خطاب أسلوبي يسعى إلى تفعيل الدلالة، ولذلك ينبغي أن يخالف النص الأسلوبي النظم المعتاد لأن « النظم »، « المعتاد » للمفردات ، والترتيب « المألوف » للكلمات ، لا يصنعان صوراً بلاغية ... فالصورة إذن هي كثافة المعنى ، وغياب الصورة هو انفتاح على الدلالة المرجعية المجردة^(٣) ، ولا تكمن فاعلية النص الدلالية إلا في رواء العبارة وكثافة التعبير، وفي توتر اللغة واحتفائها بالانزياحات المفاجئة، كالالفتات بوصفه بنية منزاحة عن أصل اللغة المألوفة، فضلاً عن ذلك فإن أخذ الدلالة من منظور النقد الأسلوبي يكون مأخذين :

- أخذ « الدلالة » للكلمة بمعناها الحصري .

- أخذ « الدلالة » من خلال قضايا الإيحاء والاستعمال الفني للغة^(٤) .

(١) ينظر : الشكل والخطاب (مدخل لتحليل ظاهراتي) ، محمد الماكري : ٣٣ .

(٢) معايير تحليل الأسلوب ، مكائيل ريفاتير : ٢٧-٥٦ .

(٣) ينظر : الأدب والدلالة ، تودوروف : ٦٨ .

(٤) ينظر : الشعرية ، ترفيطان تودوروف : ٣٣ .

وتكون الطاقة اللغوية متولدة عما يوقعه الالتفات في نظام اللغة من اضطراب، لأنه من أنماط البلاغة الخطابية يمتاز بالغرابة، والجدة والإثارة أو الدهشة^(١)، وهذه العناصر تقع في خضم عملية التلقي التي أضحت « عنصراً مهماً في دراسة النص وتأويله، لأن دراسة النص دون تفاعل بين النص والقارئ تغدو دراسة مبتورة وناقصة »^(٢)، وما التلقي إلا عملية « التفاعل بين المتوقع واللامتوقع »^(٣)

إن هذه السمة (التوقع - اللاتوقع) تتصل أيضاً بأسلوبية البناء التركيبي بوصفها عناصر لسانية متغيرة إزاء المعيار القاعدي^(٤) « وكل تغير أو تبدل في تركيب إنما يرجع إلى المعنى ومتطلباته، أو بمعنى آخر فإن المعنى هو الذي يتطلب هذا التغير والتبدل »^(٥)، والمعنى يتعلق بقصد المتفطن، والدلالة تتصل بفهم المتلقي^(٦).

ويرى سعيد الغانمي فيما يخص الرؤية الحديثة لمفهوم الالتفات في أثناء تناوله لمفهوم « الضمير » في اللغة الشعرية، أن الالتفات يتكون من خلال عدم التطابق بين الضمائر في الخطاب الشعري، إذ يقول: « ... فإذا كانت مهمة الضمير أن تتطابق مع ما يقابله من شخص خارجي فإننا حينئذ بإزاء عملية توصيل صريحة وأليفة، أما إذا كان الضمير يشير إلى شخص آخر غير المنادى،

(١) في تشكل الخطاب النقدي (مقاربات منهجية معاصرة)، د. عبد القادر الرباعي: ٥٢-٥٣.

(٢) جماليات الأسلوب والتلقي (دراسات تطبيقية)، د. موسى رابعة: ٨٦.

(٣) المصدر السابق نفسه: ٨٨.

(٤) الأسلوب والأسلوبية، بيير جيرو: ٨.

(٥) البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب: ٣٨.

(٦) بلاغتنا اليوم بين الجمالية والوظيفية، د. محمد بركات حمدي: ٦.

فإننا حينئذٍ بإزاء الالتفات؛ فالالتفات هو الإشارة إلى شخص بضمير لا يطابقه على طريقة (إياك أعني وأسمعي يا جارة) سواء كانت هذه الإشارة بقرينة أو غيرها، إنه ينادي باستخدام ضمير لغوي معين من الضمائر، ولكنه في الوقت نفسه يخاطب شخصاً آخر لا يقابله ذلك الضمير .

ومن هنا فإن الالتفات يمثل مداورة في الخطاب تشكل عائقاً أمام عملية التوصليل الاعتيادية، فهو يربك العلائق بين داخل اللغة وخارجها، حيث تشير علائق داخل اللغة إلى ضمير، في حين تدل علائق خارج اللغة على شخص لا يتطابق مع ضمير داخل اللغة، ويمكننا تعريف الالتفات بأنه: خطاب شخص بضمير لا يقابله^(١)

ويرى الدكتور محمد المبارك في تحديد سعيد الغانمي بعض المزالق بقوله :
« لكن هذا التحديد يغفل أمراً أساسياً هو الذات الخاصة بالشاعر في إطار التحول من سياق إلى سياق، فالشاعر يضع ذاته في جوهر الخطاب فيوهم المتلقي أن المخاطب بالضمير هو شخص خارجي، لكنه في الحقيقة هو ذات الشاعر الخاصة التي تقمصت المخاطب الخارجي ... كما أن المثل الذي أتى به وهو (إياك أعني وأسمعي يا جارة) لا علاقة له بفحوى كلامه ... لأنه في التحديد السابق تحدث عن مستويين للكلام خارجي وداخلي، وفي هذا المثل، مستويان خارجيان فقط ، الشخص المعني، والشخص غير المعني الذي كان واسطة للآخر .. كما أن هذا المثل لا يعتمد الضمائر ضرورة لذا فإن إدخاله في الالتفات ليس مناسباً »^(٢) .

(١) ينظر : أقنعة النص ، سعيد الغانمي : ٥١ .

(٢) استقبال النص عند العرب ، د. محمد المبارك : ٢٨١-٢٨٢ .

ويعد الالتفات من تنويعات اللغة ذات المتعة الجمالية، لأن « متعة اللغة الفنية هي متعة إعطاء الفكر والشعور المعبر عنهما تشكيلاً جمالياً ممتعاً، وعلى اللغة أن تلتزم بأداء هذا التشكيل الداخلي الجمالي الذي يستحيل تحقيقه بدونها وهنا تتجلى الحاجة الشديدة إلى جميع مظاهر الثراء والتنوع في اللغة ... ليتحقق هذا التشكيل »^(١).

ويمكن وضع الالتفات في ضوء علم الأسلوب طبقاً لتصنيف الانزياحات التركيبية وتأثيرها في مبدأي الاختيار والتركيب في الوحدات اللغوية تبعاً لجاكوبسون، فالانزياحات التركيبية تتصل بالسلسلة السياقية الخطية للإشارات اللغوية عندما تخرج على قواعد النظم والتركيب، مثل الاختلاف في ترتيب الكلمات، والانزياحات الاستبدالية تخرج على قواعد الاختيار للرموز اللغوية^(٢)

ويمكن عد « الالتفات » من الصور ذات البنية الكبرى بحسب فهم اللسانيين، إذ يميز جورج مولينييه رائد الأسلوبية الفرنسية بين الصور ذات البنية الكبرى والصور ذات البنية الصغرى فهو يحددهما بما يأتي :

« تمتاز الصور ذات البنية الصغرى عن الصور ذات البنية الكبرى بكونها يمكن عزلها في عناصر محددة من الخطاب ، تزول أو تتغير إذا غيرنا في العناصر الشكلية للخطاب، تدل على نفسها فوراً وتفرض نفسها عند تلقي المرسلة، تفسر انطلاقاً من سياقها المباشر، أما الصور ذات البنية الكبرى فإنها على عكس ذلك تماماً، وهي تعمل على مستوى النص أو الخطاب، ولا يمكن عزلها في مفردات معينة منه »^(٣).

(١) علم الأسلوب (مبادئه وإجراءاته) ، صلاح فضل : ٧٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ١٨٢ .

(٣) المنهجيات اللسانية في تحليل الخطاب الأدبي ، بسام بركة ، مجلة الفكر العربي ، عدد (٨٧) لسنة ١٩٩٧م : ٢٢٥

نقلا عن المعجم :

وظائف الخطاب الالفاتي في القرآن الكريم :

إن كل خطاب أسلوبى يؤدي وظيفة أو مجموعة وظائف أسلوبية وبنائية واقناعية وجمالية، وليست هذه الوظائف في وضوحها وكمالها من اهتمام الخطاب وحده، بل لابد للمتلقى أن يبدي جهداً يتلاحم مع المتفطن، وذلك من أجل التفاعل والتأثير والفائدة المرجوة التي يبتغي الخطاب إيصالها إلى المتلقى . ويكون ذلك من خلال « العملية الأدبية » التي تضم الرسالة المرسلة بين الخطاب والمتلقى .

وهذه العملية تثير في المتلقى كوامن، وتحرك فيه نوازع داخلية، وتوافق ثقافته واستعداداته^(١) ، أما من الناحية البنائية فإن الخطاب عبارة عن « جملة من المنطوقات أو التشكلات الأدائية التي تنتظم في سلسلة معينة لتنتج - على نحو تاريخي - دلالة ما، وتحقق أثراً متعيناً، ويخلق الخطاب تفاعلاً حوارياً مع المجال الاجتماعي الذي يعد مهاداً لتلقي موضوعه، فيتجادل مع غيره من الخطابات، ويشتبك مع وعي المخاطبين في محاولة لدفعهم إلى حقل قناعاته^(٢)»

ولاغرو فيما يؤديه الخطاب القرآني في عملية التلقي من وظائف، وذلك من خلال إحدى عناصره الخطابية والمتمثلة في الخطاب الالفاتي، إذ يث عبقة سماوية ولا يث عبقة وضعية، كالعقائد الدنيوية التي تسود العالم اليوم

(١) ينظر : بلاغتنا اليوم بين الجمالية والوظيفية : ١١٣ .

(٢) النص القرآني من الجملة الى العالم ، وليد منير : ١٧ .

كالرأسمالية والشيوعية وغيرها والتي ألهمت المادة من دون الله، وتركت منهج السماء : - المنهج الإلهي وهو منهج الخالق لمخلوقه - فضلت وأضلت، فالقرآن الكريم يحمل عقيدة السماء ويوجه خطابه لإيصال هذه العقيدة عبر قنواته الإبداعية، وبضمنها الخطاب الالتفاتي الذي يمتاز بحيوية القدرة الفنية على تصوير المشاهد، وفيه مراعاة الأدب في الخطاب والسلوك الحميد في طريقة التعبير ، وتجاذب أطراف الحديث، وبصفة خاصة إذا أريد تبجيل المخاطب لرفعة شأنه، وعلو قدره^(١) .

والخطاب الالتفاتي من « التصرفات التي تحدث في « النظم » بلاغة ودقة وجمالاً »^(٢) ، لأنه « لون من ألوان الصياغة يعين ذا الموهبة الصادقة على الإيحاء بكثير من اللطائف والأسرار، ويلفت النفس المتلقية الواعية إلى كثير من المزايا، وكلما أمعنت النظر في مواطنه من الكلام الرفيع بانث لك وجوه من الحسن تزيدك إحساساً بقدرته »^(٣) ، التأثيرية في المجال النفسي ، إذ فيه « تجديد لنشاط السامع وإثارة لانتباهه لمعنى يوليه المتكلم اهتماماً خاصاً، ويريد من المخاطب أن يتلقاه مصغياً إليه، متفتح الوجدان لاستقباله، فيلجأ لهذا الأسلوب ليحقق له ما يريد من تأكيد للمعنى وتثبيتته »^(٤) لما له من ملاك الذوق السليم والشعور الصادق، فالالتفات « من الفنون البلاغية التي تحدث في النفس وقعاً خاصاً فتحرك المشاعر ، وتبعث على التفكير والتأمل، وكأنها تأخذ بتلابيب المتتبع تقف به عندها، لأن في

(١) ينظر : أقنعة النص : ٥١ .

(٢) أثر النحاة في البحث البلاغي ، د. عبد القادر حسين : ٢٩١ .

(٣) خصائص التراكيب ، د. محمد أبو موسى : ١٩٤ .

(٤) أسلوب الدعوة القرآنية ، د. عبد الغني محمد سعيد بركة : ٣٣١ .

صيغة الالتفات حركة انتقالية بين ما قبلها وما بعدها»^(١) والدليل على جمال هذا الأسلوب بأنه مما يرد في كلام العرب وأشعارها ، فتعرف به قدرتها على التصرف في أقطار الكلام، والفسح في أعطان الخطاب^(٢) .

إن وظائف الخطاب الالتفاتي تبعاً لذلك كثيرة في القرآن الكريم يقودها المعنى أو الدلالة ، والتي تكمن داخل بنية الخطاب وخارجه ، فأما داخل الخطاب فمن خلال المعنى ، وأما من خارج الخطاب فمن الدلالة ، وهذه الوظائف هي الشفرة، التي من خلالها يتم الإيصال ، وهي تسعى إلى تأسيس سياق لها ، وهذا السياق الذي تسعى إليه هو (النموذج الدلالي) أو القصدي الذي يُؤسس الخطاب لأجله، وهو أنموذج ينشأ في طيات حركة العلاقات المتبادلة أو المتحولة بين الدوال الالتفاتيّة (الملتفت عنه - الملتفت إليه) ضمن بنية تؤسسها الصورة الالتفاتيّة كما اختارها البحث والتي تقع في أنماط ثلاثة (الضمائر - الفعل - العدد) وبهذا يصبح العمل بمجمله إشارات دلالية^(٣) ، من خلال ما يحدثه الخطاب الالتفاتي من تغييرات تركيبية على الدال اللغوي المرئي ، والمعنى هو الذي تطلب هذا التغيير والتبديل وما المعنى إلا علاقة بين الدال والمدلول^(٤) ، فالصورة التركيبية للالتفات تعمل على تأدية المقاصد، وكل جزء من التشكيل لا يقصد وحده، وإنما يقصد مؤثراً في الأجزاء الأخرى من الخطاب .

(١) فن الالتفات في البلاغة العربية ، قاسم أحمد ، (رسالة ماجستير) ، قسم اللغة العربية ، كلية

الآداب جامعة الموصل ، ١٩٨٨م : ٢٤ .

(٢) ينظر : دراسات بلاغية في القرآن الكريم والحديث النبوي ، محمد حسن شرر : ٧٦ .

(٣) ينظر : الخطيئة والتكفير ، د. عبد الله الغدامي : ١١٠ .

(٤) ينظر : الأسلوبية والأسلوب ، د. عبد السلام المسدي : ٣٨ .

وقد رصد البحث مجموعة وظائف أدائية للخطاب الالتفاتي في القرآن الكريم، فهو يحقق جملة وظائف تتوزع بحسب المقام ومقتضيات الخطاب، فمنها: تعظيم شأن المتكلم أو المخاطب، ومنها تقوية الشعور والحضور معاً، إذ إن تقوية حضور الأشياء المتحدث عنها بواسطة الالتفات تحصل بالالتفات الفعلي^(١).

كما يحصل في مشاهد القيامة وذكر الجنة والنار وغيرها، وهذه الوظيفة تتصل باعتبار الشيء مدار الالتفات كأنه قد تحقق وقضي الأمر إيجاباً له وإيداناً بصحة وجوده^(٢).

وأمثلة ذلك كثيرة في التفاتات القرآن الكريم كالأخبار عن أحداث ووقائع يوم القيامة، أو كل ما يتعلق بالأمور الغيبية الموجودة في عالم الغيب، وهي تراعي نفسية المتلقي ومنزلته الخطابية ومستوى إدراكه، وظروف تلقي الخطاب حتى يستطيع الخطاب أن يؤدي دوره المطلوب في التأثير وإثارة الانفعال اللازم لاتخاذ الموقف المناسب^(٣)، فالالتفات من الأشكال التي « تحدث في النفس حركة الانتباه قصداً، ليتقرر فيها ما تلتفت إليه تنشيطاً لداعي التأثير به، وهو في الكلام كما هو في الأجسام: تحويل وجهة إلى جهة أخرى غير ما ينتظر المخاطب^(٤) » و « الجملة القرآنية تتبع المعنى النفسي، فتصوره بألفاظها، لتلقيه في النفس، حتى إذا استكملت الجملة أركانها، برز المعنى ظاهراً فيه المهم

(١) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم، د. عبد الله صولة: ٥٢٠/١.

(٢) ينظر: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، مجيد عبد الحميد ناجي: ٧٦.

(٣) الحديث النبوي الشريف من الواجهة البلاغية، كمال عز الدين: ٣٤٦.

(٤) الحديث النبوي الشريف من الواجهة البلاغية، د. مجيد عبد الحميد ناجي: ٧٦.

والأهم، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه، وإلا اختل وانهار»^(١)، ولذلك « فليس اللفظ وحده هو الذي يستدعي المدلول، بل إن المدلول أيضاً قد يستدعي اللفظ، وهذه العلاقة المزدوجة هي القوة التي تربط الدال بالمدلول، أي الصيغة الخارجية للكلمة بالمحتوى الداخلي لها»^(٢)، وتمتاز الكلمة القرآنية « بالفصاحة كونها تخضع للاختبار الدقيق، وبه تأخذ مكانها من النظم حتى لا تبدو نائية أو قلقة أو غيرها من الأوصاف التي تلحق بغيرها»^(٣)، ولكن الكلمة مهما كانت تحمل من خصائص، على المستويين الداخلي والخارجي « فإن التركيب هو الذي يزيد في تلك الخصائص أو يقلل منها؛ فالعلاقات تنتج عن التركيب»^(٤)

إن الالتفات بهذه المفاهيم الوظيفية ليس لعبة لفظية مجردة وإنما آلية تحسين وتفهم وبيان مقصودة في الخطاب القرآني، لذلك فقد شكّل ظاهرة واضحة المعالم في القرآن الكريم، وإن « مفهوم الظاهرة في علم الأسلوب يشير إلى الملمح التعبيري البارز الذي يؤدي وظيفة دلالية تفوق مجرد دوره اللغوي ويقتضي هذا أن يكون للملمح نسبة ورود عالية في النص تجعله يتميز عن نظائره في المستوى والموقف، وأن يساعدنا رصده على فك شفرة النص وإدراك كيفية أدائه لدلالته»^(٥)

(١) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي: ١٠٥.

(٢) تطور البحث الدلالي (دراسة في النقد البلاغي واللغوي)، د. محمد حسين علي الصغير: ٢٠.

(٣) المقاييس البلاغية في تفسير التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، حوأس برّي: ٢٨٥.

(٤) في سيمياء الشعر القديم (دراسة نظرية وتطبيقية)، د. محمد مفتاح: ٥٣.

(٥) إنتاج الدلالة الأدبية، د. صلاح فضل: ٢٥٧.

ويرى هاليداي ممثل الاتجاه اللساني (الوظيفية) ، أن للخطاب اللساني ثلاث وظائف^(١) :

١- الوظيفة القصدية : وتبرز لنا دلالة أو قصدية استعمال الفن أو الملمح الأسلوبي ، أي أن اللغة تكون حول شيء ما .

٢- الوظيفة التواصلية : وتتصل بالبعد الاجتماعي لوظائف اللغة التعبيرية، وفيها يتم تحديد زاوية المتكلم ووضعه وأحكامه وتفسير لدور علاقته في المقام وحوافز قوله لشيء ما، في علاقته مع مخاطبه .

٣- الوظيفة النصية : وتتضمن الأصول التي تتركب منها اللغة لإبداع النص بنفس المعنى الذي حددناه بوحدة الدلالة ليصبح مشغلاً من خلال موضوع، ومنسجماً في علاقته مع ذاته، وفي سياق المقام الذي وُظف فيه .

إن كل مقطع لغوي « أسلوبي » مشغَّل وفق هذه الوظائف أو المكونات ، وله وحداته الدلالية، وانسجامه في سياق مقام معين يشكل نصاً سواء كان شفويّاً أو كتابياً^(٢) ، وكيفما كان أسلوبه التصويري أو نوعه البلاغي .

ومن منظور أسلوبي فإن (الوظيفة) وحدة دلالية وشكل لساني^(٣) ، ولذا فإن التحليل الأسلوبي يتعامل مع ثلاثة عناصر وهي على الترتيب الآتي^(٤) :

(١) ينظر : انفتاح النص الروائي ، د. سعيد يقطين : ١٧ .

(٢) انفتاح النص الدلالي : ١٧ .

(٣) ينظر : مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص ، رولان بارت : ٤١ .

(٤) ينظر : علم الأسلوب : ١٠٠ .

١- العنصر اللغوي : إذ يعالج نصوصاً قامت اللغة بوضع رموزها .

٢- العنصر النفعي : الذي يؤدي تحديد الوظائف السياقية التي ينتجها الشكل الأسلوبي (الالتفات) أو غيره من الأشكال، وهذا العنصر يستدعي وجود مقولات غير لغوية مثل : المنتج والقارئ والموقف، وهدف الرسالة .

٣- العنصر الجمالي الأدبي: ويكشف عن تأثير النص في المتلقي والتفسير والتقييم الأدبي له .

وبناء على تشكيل هذه العناصر تتحقق أدبية النصوص، أما فيما يخص العنصر الثاني والثالث فمن خلالهما تتحقق وظائف النص الجمالية والبلاغية .

وبما أن أسلوب الالتفات يعد شكلاً بلاغياً وأسلوبياً فإنه يحقق وظيفة ضمن بنية الخطاب اللغوي ذي الشكل البلاغي .

« وفيما يتعلق بوظيفة الصورة من الوجهة الأسلوبية فتعتمد ... على التمييز بين الواقعة والظاهرة، إذ تشمل الأولى كل بنية لغوية تلفت نظر القارئ لبروزها في النص الأدبي ، وتمارس عليه تأثيراً من نوع ما، فإذا اطردت بانتظام مجموعة من هذه الوقائع الأسلوبية المتشابهة في طبيعتها أو تأثيرها فإنها تكون عندئذٍ « ظواهر» ، وسواء اعتمدنا على معايير الانزياح والتضاد والدهشة أو التجسيد الحي للدلالات في استخلاصنا للوقائع، فإن الظواهر يمكن أن تُرصد من المنظور الإحصائي أو الوظيفي التراكمي»^(١) .

(١) علم الأسلوب (مبادئه وإجراءاته) : ٢٨١ .

لقد بيّن علماء البلاغة العربية في تراثنا البلاغي بعض وظائف الالتفات ، فهذا الزركشي (ت ٧٩٤هـ) يصف بعض وظائف الالتفات تحت عنوان (في أسبابه) أي أسباب حصول الالتفات بقوله : « اعلم إن للالتفات فوائد عامة وخاصة ؛ فمن العامة التفنن والانتقال من أسلوب إلى آخر ، لما في ذلك من تنشيط السامع ، واستجلاب صفائه ، واتساع مجاري الكلام ، وتسهيل الوزن والقافية ... وأما الخاصة فتختلف باختلاف محاله ومواقع الكلام فيه على ما يقصده المتكلم »^(١) .

إن تحديد (الزركشي) لفوائد الالتفات ووصفه إياها بالعامّة والخاصة فيه دلالة على حسه البلاغي ومعرفته بأشكال البلاغة ، ففي الفوائد العامة يشير إلى مقصدية الالتفات الجمالية وأثرها في تحسين فهم المتلقي ، في حين يشير في الفوائد الخاصة إلى مقاصد المرسل (المتكلم) من الخطاب .

ويرى بالي مؤسس علم الأسلوب أنه « إضافة ملمح تأثيري على التعبير »^(٢) ، ولا شك أن الالتفات يؤدي وظائف تأثيرية في المتلقي للخطاب القرآني ، لأنه جاء بمحض إرادة الله سبحانه وتعالى ، أما التأثيرات الأسلوبية فهي عبارة عن التبادل الجدلي بين الآثار المشفرة في النص المؤلف وردود الفعل الناجمة عن القراءة عند المتلقي ، أي : أن الأسلوب يتجلى عندئذ في النصوص خلال عملية التوصيل الأدبي فلا يصبح خاصية ساكنة ثابتة في النص ، بل خاصية

(١) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي : ٣/٣٧٤-٣٧٥ ، و معترك الأقران في إعجاز القرآن

(٢) علم الأسلوب (مبادئه وإجراءاته) : ٨٦ .

ممكنة متحركة ينبغي إعادة بنائها في عملية التلقي»^(١) ، فالالتفات يملك خصائص الصياغة التواصلية ويقصد بالخصائص هنا : طريقة الأداء اللغوي والبلاغي والفني ، وإعمال الخيال ، وتحريك مشاعر المتلقي .

(١) علم الأسلوب (مبادئه وإجراءاته) : ١٧٤ .

الفصل الأول

بلاغة الأنماط الأسلوبية للالتفات الضمائي

التركيب والدلالة

مدخل

المبحث الأول : سياقات التحول

١ - سياق الغيبة / الخطاب

٢ - سياق الخطاب / الغيبة

المبحث الثاني : سياقات التحول

١ - سياق الغيبة / التكلم

٢ - سياق التكلم / الغيبة

المبحث الثالث : سياقات التحول

١ - سياق التكلم / الخطاب

٢ - سياق الخطاب / التكلم

مدخل :

ينبغي لنا قبل إجراء معايمة لأنماط الالتفات الضمائري في الخطاب القرآني وتحولاتها السياقية من حيث التركيب والدلالة، أن نمهد لتعريف لفظ « الضمير » عند النحاة واللغويين بوصفه حقل الدراسة لهذا الفصل، فلفظ « الضمير » : « مأخوذ من معنى إضمار الشيء، والضمير في العربية : السر وداخل خاطر »^(١) والضمير على وزن فعيل بمعنى (مفعول) « من اضمرت الشيء في نفسي، إذا أخفيته وسترته فهو مضمّر كالحكيم بمعنى المحكم، والضمير مصطلح بصري، ويسميه الكوفيون كناية ومكناً وهو بالمعنى نفسه فإن الكناية تقابل التصريح، ومنه قولهم: استعارة تصريحية واستعارة مكنية»^(٢) وأطلق « الضمير » على العقل لكونه مستوراً عن الحواس^(٣).

وعرف النحاة العرب « الضمير » اصطلاحاً على انه « ما وضع لمتكلم أو مخاطب أو غائب تقدم ذكره لفظاً أو معنىً أو حكماً »^(٤) أو بعبارة أخرى هو « اسم جامد يدل على : متكلم أو مخاطب، أو غائب »^(٥) والضمير عنصر لغوي

(١) لسان العرب ، : ٤٩٢/٤ (مادة ضمير) .

(٢) معاني النحو ، د. فاضل صالح السامرائي : ٤٥/١ .

(٣) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي : ٥٧١ .

(٤) شرح الرضي على الكافية ، رضي الدين الاسترابادي : ٣/٢ .

(٥) النحو الوافي ، د. عباس حسن : ٤٨٢/٣ ، و: دراسات نقدية في النحو العربي ، د. عبد

الرحمن محمد أيوب : ٦٣ .

إحالي بامتياز^(١)، إذ يمثل « مكوناً يعرض مكوناً آخر في موضوع آخر سابق عادة، ويسير هذا التعويض لعمل الذاكرة في محتواها المشترك بين طرفي التواصل، فعوض العنصر الإشاري في موضع الحاجة إليه، بعد أن ورد أول مرة، يرد عنصر إحالي ينوب عنه ويؤدي معناه ويجعل جملة المقولات التي يحملها مفسرة^(٢) .

ومما لاشك فيه أن الضمائر تلعب دوراً هاماً جداً في علاقة الربط، فعودها إلى مرجع يُغني عن تكرار لفظ ما رجعت إليه، ومن هنا تؤدي الضمائر فاعلية بنيوية في تماسك الجملة وأطرافها، ولاختلاف الضمائر دور وظيفي على مستوى التركيب، فهي تخفف حرق رتابة العناصر التركيبية، وتؤثر في بلاغة الخطاب، لأنها تحدُّ من ظاهرة التكرار في الخطاب^(٣).

لذلك فإن « القيمة الاستعمالية للضمائر هي الاختصار والإيجاز في التعبير، وتغني عن إعادة ما سبق ذكره من الأسماء^(٤) وهي تؤدي « وظيفة جمالية في النص، خصوصاً عندما تتنوع وتختلف لتحيل على جهات متعددة^(٥) ونجد في ميدان البحث اللساني الحديث عدة تسميات للضمير، إذ أطلقت اللسانيات الحديثة على مفهوم « الضمير » تسميات أخرى تختلف عن تسمية النحو العربي، فقد ركزت عليها اللسانيات واعتبرتها إشارات لا تحتوي على مضمون مرجعي مباشر، ولكنها تشير إلى الشيء، أو إلى الشخص المعني بحسب

(١) ينظر : العنوان وسميو طيقا الاتصال الأدبي ، محمد فكري الجزائر : ٥٠ .

(٢) نسيح النص ، الزاهر الزناد : ١٣٣ .

(٣) ينظر : عزف على وتر النص الشعري (دراسة في تحليل النصوص الأدبية الشعرية) ، د. عمر محمد الطالب : ٢٠١ .

(٤) الضمائر في اللغة العربية ، د. محمد عبد الله جبر : ١٠٣ .

(٥) المصدر السابق نفسه : ٢٠٠ .

مكانه في عملية الاتصال، وقد سماها (جيرسن) (تغييرات السرعة) في حين أطلق عليها من قام بترجمتها (روابط الوصل)^(١) .

ومما يجدر الإشارة إليه هو أن : « الأصل في الضمائر أن تطابق ما تعود عليه ، فإذا كان ما تعود إليه مخاطباً عبّر بضمير الخطاب ، وإذا كان غائباً استعمل ضمير الغياب ، وأما إذا كان متكلماً فإنه لا بد من استخدام ضمير المتكلم . ولكن وردت نصوص كثيرة لم يطابق فيها الضمير ما يعود عليه ، واستخدم فيها ضمير الخطاب .

وقد علل النحاة ذلك بأنه نوع من الالتفات الذي يهدف إلى تأكيد المعنى وتقويته ، لما يتضمنه بالضرورة من إثارة لانتباه السامع وشحذ لفكره ، حين يفاجأ بضمير يعود على ما هو له ، فيبذل من طاقاته الفكرية ما يكشف به ما يعود إليه ، ثم يحاول أن يستكشف بعد ذلك السر في التفاوت بين الضمير وما يشار به إليه أو يدل به عليه .

وبذلك لا يظل السامع في موقف سلبي دائماً ، يتلقى من المتكلم أو الكاتب ما يقول دون جهد منه في استكناه مضمون ما يقال ، وإنما يشارك إيجاباً في النشاط اللغوي «^(٢) هذا من حيث التركيب والدلالة فضلاً عن الذي يحدثه هذا التحول في بلاغة الخطاب ضمن عملية الإبلاغ والتلقي .

وقد أشار رومان جاكوبسون أحد أعلام اللسانيات الحديثة إلى قيمة الضمائر في الخطاب الشعري قائلاً :

(١) ينظر : الأسلوب والأسلوبية ، بيير جيرو : ٦٥ .

(٢) أصول التفكير النحوي ، د. علي أبو المكارم : ٣٥٧-٣٥٨ .

« إن الضمائر تقع على الطرف النقيض من بقية عناصر الكلام القابلة للتغيير، وهي باعتبارها عناصر سياقية متمحضة في وظائفها النحوية، تخلو من أية دلالة حسية خاصة »^(١) ، وإنما دلالتها تؤخذ من السياق ، وسيق النص « ينطوي على كلمات وإشارات ، تتخلل نسيجه اللغوي، وظيفتها أن تجعل المتلقي على صلة دائمة بموضوع الحديث ، وظروفه، وملابساته الحالية »^(٢)

وتعد الضمائر من مواضع الترابط في النص بتعبير اللسانيين، إذ « تعزى إلى هارفينج Horweng (١٩٦٨) أول محاولة جادة لوصف التنظيم الذاتي، الداخلي للنص من خلال الحديث عن بعض العلاقات التي تسوده، مثل : علاقة الإحالة، والاستبدال التي فصلّ فيها القول »^(٣) .

لذا عدّ اللسانيون الضمائر من العناصر اللغوية التي يتشكل منها التماسك النصي أو ما يعرف بـ « الإحالة » التي تنشأ من استخدام الضمائر، وهي تعني أن يذكر (اسم) ثم يذكر بعده (ضمير) أو قبله يعود على الاسم أو يحيل إليه^(٤) .

أما بالنسبة للعدول الضمائري أو ما يعرف بالتجاوز في استعمال الضمائر باصطلاح اللسانيات فإنه يتوزع في الأبحاث البلاغية على عدد من فروع علم البديع: الالتفات - التجريد - التضمين - التوسع^(٥) .

(١) تحليل الخطاب الشعري ، محمد فتوح : ١٥٧ ، نقلا عن جاكوبسون ، شعرية القواعد وقواعد الشعر ، من كتاب فن الشعر *Poetics* : ٤٣٨ .

(٢) الأسلوبية ونظرية النص ، د. إبراهيم خليل : ١٣٧ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ١١٩ .

(٤) ينظر : الأسلوبية ونظرية النص : ١٣٦-١٣٧ .

(٥) ينظر : تبادل الضمائر وطاقته التعبيرية ، محمد نديم خشفة ، مجلة البيان ، ع (٢٩٢) ، لسنة ١٩٩٠م : ٩ .

وما ندرسه في هذا المقام هو « الالتفات » إذ يمثل عدولاً نسقياً عن مألوف الاستعمال .

ذلك أن « العدول في استخدام الضمائر برنامج أسلوبى يخطط له المرسل ، وليس مصادفة لغوية مجانية، لذلك ينبغي رصد كل التبدلات الطارئة على مسيرة الضمائر ، ومعرفة قدرتها على التوصيل والتعبير، ومدى نجاحها أو إخفاقها في الوصول إلى الأهداف المرسومة لها »^(١) وبخاصة فيما يتعلق بسياق التلقي.

ويبدو « أن التعامل مع منطقة الضمائر بكل تشكيلاتها المتعددة، ووظائفها المختلفة ، يدفع المتلقي إلى حركة ايجابية »^(٢) .

ولقد عالجت النظرية البنائية مثل هذه البنى اللسانية من خلال « الكشف عن علاقات التشكلات، وتركيبات الجزئيات والبحث في مناطق التجاور والعلاقات، وتنتهي عند البنى الكلية »^(٣) .

وتأسس الأنماط التركيبية للالتفات بشكل عام على الانزياح التركيبي، والانزياح « هو انحراف أسلوبى عن اللغة المألوفة »^(٤) .

وفيما يتعلق بالمنهج التحليلي لانزياحات الالتفات وتحولاته فهو « منهج لغوي يعتمد على رصد البناء الشكلي للصياغة، وما فيه من إجراءات ساعدت على إنتاج الدلالة »^(٥) ، من خلال معرفة مواطن الالتفات الذي يمتاز ببنيته المتحولة.

(١) تبادل الضمائر وطاقته التعبيرية: ٢٠ .

(٢) قراءات أسلوبية في الشعر الحديث ، د. محمد عبد المطلب : ١٤٤ .

(٣) الصورة في التشكيل الشعري (تفسير بنيوي) ، د. سمير علي سمير : ٦ .

(٤) أسلوبية الرواية ، حميد لحمداني : ٦٢ .

(٥) قراءات أسلوبية في الشعر الحديث : ١٤٢ .

ومن خصائص هذه البنية أنها غير ثابتة إذ « إن البنية لا يمكن أن تظل في حالة سكون مطلق ، بل هي تقبل دائماً من (التغييرات) ما يتفق مع الحاجات المحددة »^(١) للدلالة أو مقاصد (المرسل) لأن « اللغة حصيلة نوعين من الضغوط : ضغوط الدلالة، وضغوط الإبلاغ »^(٢) .

وأي تغيير في نظام التركيب فيما يتعلق بآلية التحويل يتحول إلى نظام آخر يوظفه المفهوم الإجرائي في مستوى آخر للدلالة غير ما كانت له في نظامه الأصلي^(٣) .

إن الالتفات الضمائري يعد إجراءً أسلوبياً يتوزع في الخطاب القرآني على مستوى التركيب على مجموعة سياقات، وهي على الترتيب :

١. سياقات التحويل ← الغيبة ← الخطاب
- الغيبة ← الخطاب
٢. سياقات التحويل ← الغيبة ← التكلم
- التكلم ← الغيبة
٣. سياقات التحويل ← التكلم ← الخطاب
- الخطاب ← التكلم

(١) مشكلة البنية ، زكريا إبراهيم : ٣١ .

(٢) البلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب : ١٤٨ .

(٣) بلاغة الخطاب وعلم النص ، د. صلاح فضل : ٢٤٢ .

إن هذه السياقات تخضع لعمليات الاختيار من جانب المرسل أو المنتج للرسالة لتعديل الدلالة، فهي تتعلق أصلاً بالأسلوب لأنه « محصلة مجموعة من الاختيارات المقصودة من بين عناصر اللغة القابلة للتبادل »^(١).

وحركة التبادل الضمائي بسياقاتها المتنوعة تندرج في أسلوب القول غير المباشر لأنها تمثل تقنية تغيير المرجع وعدم وضوح عائدته على أي متلفظ في بنية الرسالة الخطابية.

ويرى جيرار جينت أن الأسلوب « هو مظهر القول الذي ينجم عن اختيار وسائل التعبير . هذه الوسائل التي تحددها طبيعة ومقاصد المتكلم أو الكاتب »^(٢).

أمّا فيما يتعلق بشكل البنية الخطابية للصورة الالتفائية فقد تبني فكرة البحث الدكتور محمد عبد المطلب في تحليله لبنية الالتفات، إذ يرى أنّها بنية تتأسس على بنيتين (سطحية وعميقة) فالبنية السطحية تتجسد معالمها في شكل التركيب الذي تقوم عليه الصورة الالتفائية، أما البنية العميقة فهي عبارة عن معيارية اللغة الأصلية قبل حدوث عنصر المغايرة للغة الخطاب، وبذلك تتشكل الصورة الالتفائية عبر المخالفة السطحية للبنية الخطابية بين سياقين متضاربين (الغيبية / الخطاب أو الخطاب / الغيبية ... إلخ) وهما يشكلان بمجموعهما بنية تقوم على ثنائية ضدية تنبع من التمايز بين عنصرين أساسيين، وقد يفسر ما يقال هنا جزءاً من حيوية (ديناميكية) عملية التلقي الأدبي .

(١) علم الأسلوب (مبادئه وإجراءاته) : ١٠٢ .

(٢) علم الأسلوب (مبادئه وإجراءاته) : ١١٠ .

ويجلو سر عنصر رئيس في الخطاب هو عنصر التوقع، وعنصر آخر مرتبط به ونابع منه هو عنصر المفاجأة التي تستند أساساً إلى تغذية التوقع وتنميته، ثم إخراج البنية عن مسارها المتوقع وخلخلة بنية التوقعات المتشكلة في ذهن المتلقي^(١).

إن الصورة الالتفائية بسياقاتها المختلفة تفسر البنية السطحية من خلال عملية التبادل، مما يؤدي إلى عملية « تبادل الخواص الدلالية فيما بينها في نقط محددة يمكن أن يضيف عمقاً إلى الدلالة ، ويساعدنا على تكثيف البنية الجمالية المستترة وراءها »^(٢) والخطاب في بنيته السطحية « وجود ناطق بما فيه، يتجسم حضوره في اللغة وبها، فهو البناء المحدد له تمفصلاته الخاصة، ويتكشف حول نواة خفية أو بؤرة عميقة تعود إليها مختلف الوظائف الأساسية منها والمساعدة »^(٣).

إن البنية العميقة لا يمكن أن تحدد بدلالة ثابتة، لأن « المنحى الأسلوبي في ذاته لا يرتبط بقيمة ثابتة، أو بدلالة تعبيرية حاسمة ونهائية، تكون هي وحدها الصادقة، وإن المعول في استخدام منحى أسلوب بعينه في سياق بعينه على المعنى أو الهدف المعنوي الذي يتجه إليه منشئ الخطاب، فإن تحقيق هذا الهدف هو الذي دعاه إلى العدول مرة عن خطاب الغائب إلى خطاب الحاضر، ومرة عن خطاب الحاضر إلى خطاب الغائب »^(٤).

-
- (١) ينظر : جدلية الخفاء والتجلي (دراسات بنوية في الشعر) ، كمال أبو ديب : ١١٠ .
(٢) جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم ، د. محمد عبد المطلب : ١٨١ .
(٣) وجود النص / نص الوجود ، مصطفى الكيلاني : ٩٤ .

(٤) الالتفات وأثره في شاعرية ابن زيدون (دراسة نصية) ، حسين خريوش ، مجلة أبحاث اليرموك، ع (٢) لسنة ١٩٩٥م : ١١٨ .

وفي إطار دراستنا لبنية الالتفات في الخطاب القرآني فإن أنسب منهج لتحليل النماذج هو المنهج الأسلوبى (البنائى) والمنهج البلاغى (الدلالى)، لأنّ عنايتهما تنصب على دراسة الأشكال المتجاوزة لمستوى اللغة العادية أو الأشكال المنحرفة، على خلاف التحليل اللغوى النصي الذي يُعنى بكل أشكال اللغة في الأساس، يتجه إلى المعنى أو ما أطلق عليه « مغزى اللغة » سواء تحقق في صورة عادية أم صورة منحرفة، ولا يعني ذلك - بأية حال - أنه يهمل الفصل بين المستويات اللغوية، بل على العكس من ذلك تماماً، إذ يُعنى بالكشف عن كيفية الانتقال بين المستويات، وما ينبع عن تلك التحولات من تغييرات تركيبية ودلالية، وانعكاسها على المتلقي من خلال عملية الإبلاغ^(١).

وتعد أشكال الالتفات بالمفهوم الألسني حسب تصنيف ستيرن تبدلات ألسنية تنضوي تحت « أشكال البلاغة » وهي - أي تلك التبدلات - على صلة وثيقة بالتبدلات الخارجية التي تنضوي تحت « أشكال المعنى » بحسب تعبير ستيرن ، فالتبدلات الشكلية التي أجريت على الدال أدت إلى تبدلات المعنى التي طالت المدلول^(٢).

وبما أننا نعالج الالتفات الضمائري أحد أشكال الصور الالتفاتية في الخطاب القرآني سيكون عملنا منصباً على ثلاثة عناصر: (التركيب ← الدلالة ← البلاغة)، إذ نعالج في التركيب الضمائر باعتبارها بنى نحوية سياقية ووحدات لغوية لها دلالة وتحيل على عناصر من عالم الخطاب^(٣).

(١) ينظر : علم لغة النص (المفاهيم الاتجاهات) ، سعيد حسن بحيري : ٦٠ .

(٢) ينظر : علم الدلالة ، بيار غيرو : ٦١-٦٢ .

(٣) ينظر : أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية- تأسيس « نحو النص » ، محمد

الشاوش : ١٠٧٤/٢ .

ومن سمات هذه البنية أنَّها تمتاز بقدر كبير من الحرية؛ إذ تجيز كثيراً من أشكال العدول والتحوُّل من أبنية نمطية إلى أبنية غير نمطية، ويناط بالمفسر الكفاء اكتشاف أسباب هذا العدول وبلاغته من خلال ربط هذه الوحدات، أي الوحدات المتجاورة بالعلاقات الناتجة عن كل تغيير، والسياقات التي تتناسب مع هذه الأبنية والمقامات التي تميز بين التراكيب .

لقد ذهب البلاغيون في منهجهم - بناء على تمييز اللغويين بين وحدات تلتزم مكاناً واحداً في الجملة (وحدات ثابتة) ووحدات تتمتع بحرية الحركة (وحدات متحركة) - إلا أن الانزياحات تتصل بالوحدة المرنة، ووصفوا العملية البلاغية بوصفها تحوُّلات أو الانزياحات؛ إحداهما تتصل بجوهر المادة: تحول الوحدات ذاتها، والثانية بعلاقاتها، إذ تظل الوحدات كما هي، ولا يمس التحوُّل سوى علاقاتها .

ويرون أن اللغة المتشكلة بلاغياً تتجلى في المقام الأول بإحلال عناصر غير مألوفة محل عناصر القول العادية^(١) .

ولا بد لسياقات تشكيل الصورة الالفتاتية في بنائها ضمن آلية التحويل من طرفين، إذ يمثل الطرف الأول (الملتفت عنه) عنصر التوقع، في حين يمثل طرف الصورة الثاني (الملتفت إليه) عنصر المفاجأة، وهذه الثنائية نجدتها ماثلة في أشكال الالفتات عموماً .

وهي عبارة عن إشارة إبلاغية وجمالية في آن واحد، وتأتي تقنية توظيف الضمائر في بنية الصورة الالفتاتية في القرآن الكريم للأهمية التي تحتلها المرجعية الضمائية في حقول الدلالة القرآنية، إذ إن البنية الدلالية للقرآن الكريم تتكون من

(١) ينظر: علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات) : ٧٤ .

فاعلية هذا التخالف في حالة تشكله وربطه في علاقات سياقية تعمل على تفعيل عملية التلقي القرآني، وباكتمال حالتي (التوقع / عدم التوقع) يبلغ الخطاب أوجه البلاغي، لما يحدث من مفارقة على مستوى الدوال اللغوية ينسحب بدوره على صعيد البنى العميقة لإيصال المقاصد والتكاليف الشرعية ، لذا فان الالتفات ينطلق من الشكل اللغوي الذي « كان وما يزال - هو المعضلة المطروحة دائماً في نظرية الأدب، لأنه يتغير باستمرار ، ويؤدي هذا التغيير وظيفة ، تتصل في أحد وجوهها الرئيسة بالاستجابة^(١) .

ونقصد بالاستجابة تمكين المعنى في ذات المتلقي وهو غرض وغاية الخطاب البلاغي^(٢) ، وهو أي التمكين يرد « للدلالة على تثبيت المعنى ... بطرق تعتمد التغيير اللساني أو تغييرات البنية اللسانية لخلق أشكال فنية تؤدي وظيفة التمكين أو الاستجابة^(٣) .

ونرى تأكيد عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) على فكرة التغيير اللساني الذي يصنع الإفهام والاستجابة بقوله : « إن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به اخص وأولى، وضرباً من العبارة هو بتأديته أقوم ، وهو فيه أحلى، ومأخذاً إذا أخذ منه كان إلى الشيء متعلقاً بغيره، ومقيماً على ما سواه، كان من خير ما يستعان به على تقريبه من الإفهام في النفوس أن يوضع له مثال يكشف عن وجهه ، ويؤنس به ، ويكون زامماً عليه يمسه على المتفهم له، والطالب علمه^(٤) .

(١) ينظر : الأصول المعرفية لنظرية التلقي : ٣٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ٦١ .

(٣) الأصول المعرفية لنظرية التلقي : ٦٣ .

(٤) الرسالة الشافية ، ضمت ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، الجرجاني : ١١٧ .

لذا فإن تغيير الشكل رهين بتغيير الدلالة وهي تتعلق بنسيج النص، أو ما يعرف بـ « النظم » لان النظم هو « تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل »^(١) .

أو التفكير الذي يوفر دوافع قصدية لإنشاء الخطاب، وعناية العرب بينية (الشكل) أو (اللفظ) لا تقل أهمية عن عنايتهم بالمعنى، فهذا ابن جني (ت ٣٩٢هـ) يقول في باب « الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني » : « اعلم أن هذا الباب أشرف فصول العربية وأكرمها وأعلاها ... وذلك أن العرب كما تُعنى بألفاظها فتُصلحها، وتُهدبها، وتُرَاعِيها، وتلاحظ أحكامها، ... فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدراً في نفوسها . فأول ذلك عنايتها بألفاظها، فإنها لما كانت عنوان معانيها، وطريقاً إلى إظهار أغراضها ومراميتها، أصلحوها ورتبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها، ليكون ذلك أوقع في السمع وأذهب بها في الدلالة على القصد »^(٢) ولا يمكن استكناه معاني الألفاظ إلا في السياق الذي ترد فيه « فالكلمة لا معنى لها خارج السياق الذي ترد فيه »^(٣) .

أما فيما يخص شكل البنية للصورة الالفتائية، فإن الطبيعة التركيبية لبنية الصورة الالفتائية تقتضي توافر مجموعة عناصر بنوية تقود العملية، ويمكن بيان هذه العناصر بالخطاطة الآتية :

(١) التعريفات ، الشريف الجرجاني : ١٩١ .

(٢) الخصائص ، ابن جني : ٢١٦/١-٢١٧ .

(٣) النحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي) ، محمد حماسة : ٣٦ .

سياق (الإحالة) (٢) صيغة الخطاب سياق (الإحالة) (١)
 ←
 (بنية سطحية)

الملتفت إليه الملتفت عنه قطع تحول (أطراف الصورة)
 ←
 تضاد

(التركيب) بني متشابهة ←
 (الاتصال) متوقع بني متغايرة غير متوقع

متوقع (بنية عميقة) متوقع
 ←
 (سياق) (سياق)

(شكل البنية)

إن هذه الخطاطة تمثل أنموذجاً لشكل البنية للصورة الالتفائية، ويمكن توزيع عناصر هذه البنية على الأنموذج القرآني طبقاً لأشكال الصورة الالتفائية، ولا شك أن هذا الشكل يرصد لنا بنيتين، بنية سطحية وبنية عميقة، وفي الوقت نفسه يرصد لنا أطراف الصورة الالتفائية وسياقاتها الثابتة والمتحولة، وصيغة الخطاب تعني عملية التحول من سياق إلى سياق آخر في بنية الخطاب .

المبحث الأول

سياقات التحول

سياق الغيبة / الخطاب

سياق الخطاب / الغيبة

١ . سياق الغيبة / الخطاب :

إن هذا النوع من سياقات الصورة الالتفائية التحويلية لم يكن غريباً عن لغة العرب، فالعرب كثيراً ما تنصرف عن الغيبة إلى الخطاب وعن الخطاب إلى الغيبة، وهو متسع في لغة القرآن الكريم^(١) أيضاً، ولكن مقصدية مجيئه تختلف عن مقصدية العرب، إذ له دوره في إيصال عقيدة الدين الإسلامي .

ومن نصوص القرآن الكريم التي جاءت على هذا النمط قوله تعالى في فاتحة

الكتاب ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٢ - ٥] .

(١) ينظر : الأماي الشجرية ، ابن الشجري : ١١٧/١ .

بداية لا بد من بيان شكل البنية للصورة الالفتائية وآلية التحويل الحاصلة في هذه الآيات بالشكل الآتي :

صيغة الخطاب

سياق الخطاب (٢)

سياق الغيبة (١)

أ _ البنية السطحية

الملفت عنه (الغيبة)

الملفت إليه (الخطاب)

﴿ يَاكَ قَبُدْ وَإِيَّاكَ نَسَعِيْتُ ﴾

أنت ← قطع تحول // هو
تضاد

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ * تِلْكَ يَوْمَ الَّذِينَ * إِيَّاكَ تَبُدُّ
وَإِيَّاكَ نَسَعِيْتُ ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ

إِيَّاهُ نَعْبُدُ وَإِيَّاهُ نَسْتَعِينُ

هو ← هو
الغيبة

الرَّحِيمِ * تِلْكَ يَوْمَ الَّذِينَ * إِيَّاكَ تَبُدُّ

وَإِيَّاكَ نَسَعِيْتُ ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

إن التعامل مع الصورة الالفتائية بأشكالها المختلفة يعني الحركة لا السكون، الانفتاح لا الانغلاق، نتيجة للتنوع في سياقاته المتحولة ولهذا التنوع أبعاد أسلوية في إنتاج الدلالة، إذ « إنه يدخلنا مباشرة إلى دائرة (التلاحم) (الصوت الدلالي) إذ تتحول الصياغة إلى سبيكة متلاحمة العناصر نتيجة لعوامل الربط الظاهرة والمستترة، المنفصلة والمتصلة، التي تعمل على تعليق ذهن

المتلقي بصفة دائمة من ضمائر، ثم يتحرك منها إلى مراجعها السابقة»^(١) وهذا يؤدي إلى حدوث « تراكم وتكثيف بتعدد الأصوات، وسيغدو النص حواراً يقام بين أكثر من صوت»^(٢).

إن « أنا » المتكلم « الله » سبحانه وتعالى تتحدث عن نفسها بضمير الغيبة ، فتمحو المسافة بين الذات الفاعلة وذات مفعولها محواً مذهلاً، إنها تشير إلى ذاتها من موقع الحامد كأنها تعلمه درس تمجيدها، والذات الإلهية بذلك تكشف عن حضورها من خلال الغيبة بواسطة الكلام، كأنَّ الصوت جسر يمتد بين التجلي والخفاء، وبذلك نلاحظ تمثل موقع الإنسان بوصفه دلالة على موقع الله سبحانه وتعالى بوصفه خالقاً^(٣).

ولو أراد المتكلم وهو الإنسان بوصفه واسطة للتكلم، أي أن الكلام ليس له ولكن جاء بلسان حاله (سياق الخطاب) لقال : الحمد لك لأنك أنت رب العالمين^(٤)، فالخطاب أريد به أن يكون غيبة، وهو يتضمن معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، والأسماء المذكورة في سياق الغيبة هي أصول الأسماء الحسنى، وهي تشمل اسم الله والرب والرحمن ؛ فاسم الله متضمن الصفات الألوهية، واسم الرب متضمن الصفات الربوبية، واسم الرحمن متضمن لصفات البر والإحسان^(٥).

أما بالنسبة لبنية سياق الخطاب ففيها محددات خطابية (العبادة/الاستعانة) وتتحدد بلاغة الصورة الالفتاتية من خلال تمايز بنيتين : بنية (الحمد) وبنية

(١) قراءات أسلوبية في الشعر الحديث : ١٤٤ .

(٢) أسلوبية البناء الشعري (دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي) ، أرشد علي محمد : ١٠٥ .

(٣) ينظر : النص القرآني من الجملة إلى العالم ، وليد منير : ٤٧-٤٨ .

(٤) ينظر : الطراز : ١٣٥/٢ .

(٥) ينظر : الفوائد المشوق : ٢١ .

(العبادة/الاستعانة) كبؤر دلالية محورية في السياقين، فعملية اختيار الغيبة لبنية (الحمد) ولبنية (العبادة) الخطاب، للإشارة إلى أن الحمد دون العبادة في الرتبة ؛ لأنك تحمد نظيرك ولا تعبد؛ فاستعمل لفظ الحمد مع الغيبة ولفظ العبادة مع الخطاب؛ لينسب إلى العظيم حال المخاطبة والمواجهة ما هو أعلى رتبة ؛ وذلك على طريق التأدب^(١) .

إن المتلقي يمثل قصد الصورة لأنها جاءت ملونة « ولو كان أسلوب القول على نهج واحد لم يكن له هذا الوقوع وهذا التأثير »^(٢) وتكمن دوافع تغيير اتجاه الآيات من الغيبة إلى الخطاب في عنصر المتلقي، فالخطاب القرآني يراعي مقام المتلقي بالدرجة الأولى في بنية ترتيب الرسالة اللغوية والقصدية، فالتغيير جاء تبعاً لتغيير الاتجاه النفسي للمتلقي وهذا يدين أسلوب الالتفات، إذ تلوّن الحديث، فكان حديثاً عن الله المستحق للحمد، فإذا كان المقام مقام العبادة والاستعانة تحولت بنية الجمل إلى الخطاب إيذاناً بقرب الحامد من المحمود قرباً قلبياً، وفيه تدليل على منزلة الخالق من المخلوق بالعقل، وتبيان لامتلاك الله سبحانه لمقدرات الخلق وشؤون تدبيره، ويسمح هذا الشعور أن تطلب أنت المخلوق من الخالق العون وتخصّصه بالوحدانية المطلقة .

وقيل: إن النكتة البلاغية في هذا التحول في الصورة الالتفاتية « أن العبد إذا قدّر مثوله بين يدي مولاه ، فمن حقه أن يكون حاضر القلب يقظان النفس، درآك اللمحة، سيّما إذا افتتح بالتحميد ليستحضر ينبوع نعمائه، جلائها ودقائقها، فإذا أنتقل إلى اسم الذات يستجدّ لنفسه هيبة الجلال والكبرياء، ثم إذا انتقل منه إلى

(١) ينظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن : ٢٨٩/١ ، والمثل السائر : ١٨٤/٢ ، والإتقان في

علوم القرآن ، السيوطي : ١٢٥/٢ .

(٢) المنزغ البديع في أنواع البديع : ٤٣٣ .

معنى الربوبية والمالكية يستزيد المحرك، وإذا ارتقى منه إلى كونه شامل الرحمة دنياها وعقباها يتضاعف المحرك، ثم إذا آل الأمر إلى أنه مالك الأمور في العاقبة ثوابها وعقابها يصير ذلك المحرك إلى حد لا يتمالك معه أن لا يقبل على معبوده ومعينه الحاضر المشاهد، ولا يقول: إياك نعبد وإياك نستعين»^(١).

إن وظيفة الصورة الالفتائية في هذا النص تتمثل بشكلها التعبيري (المكاني والزمني) الذي احتوته، لأنه سبحانه تعالى «لما وُصف بأنه رب العالمين علم أنه حاضر في كل مكان وزمان وليس غائباً، ذلك لأنه رب العالمين جميعاً، فلا يغيب عنهم ولا يغيبون عنه، فلما علم حضوره نودي بنداء الحاضر المخاطب»^(٢).

ويرى ابن جني (٣٩٢ هـ) أن الصورة الالفتائية ليست من باب الاتساع والتصرف، وذلك في أثناء تناوله لنص سورة الفاتحة بقوله: «فليس ترك الغيبة إلى الخطاب هنا اتساعاً وتصرفاً، بل لأمر أعلى ومهم من الغرض أعنى. وذلك أن الحمد معنىً دون العبادة... لأن العبادة غاية الطاعة، والتقرب بها هو النهاية والغاية، فلما كان كذلك استعمل لفظ (الحمد) لتوسطه مع الغيبة فقال: «الحمد لله» ولم يقل: لك، ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى أمد الطاعة قال: «إياك نعبد» فخاطب بالعبادة إصراراً بها»^(٣).

إن الله سبحانه وتعالى حين يقول في سياق الغيبة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فإن لفظ الجلالة يكون في عالم الغيب وكذلك بالنسبة لقوله: (رب العالمين)

(١) التبيان في البيان: ٢٣٢، والبرهان في علوم القرآن: ٣/٣٢٦/٣٢٧، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: ١/٦٣-٦٤.

(٢) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل صالح السامرائي: ٣٧.

(٣) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، ابن جني: ١/١٤٦.

غيب و(الرحمن الرحيم) غيب و(مالك يوم الدين) غيب، أما بالنسبة للتحويل إلى سياق الخطاب في (إياك نعبد وإياك نستعين) فإنه حضور وتحويل معجز فيه دلالة بليغة على قوة الخطاب وآلية اشتغائه، إذ نقل الخطاب الالتفاتي الغيب إلى حضور المخاطب، فأصبحت الرؤية تعيناً إيمانياً .

فأنت في حضرة الله سبحانه وتعالى الذي غمرك بالنعم، وهذه تراها وتحيط بك لأنه (رب العالمين) أي : إن ربوبيته جل جلاله ليست ربوبية جبروت، بل هي ربوبية (الرحمن الرحيم) فإذا لم تحمده وتؤمن به بفضل نعمه التي تحسها وتعيش فيها، فاحذر من مخالفة منهجه لأنه (مالك يوم الدين) حيث يستحضر الحق سبحانه وتعالى ذاته بكل هذه الصفات التي فيها فضائل الألوهية، ونعم الربوبية والرحمة التي تمحو الذنوب، والرغبة من لقاءه يوم القيامة تكون قد انتقلت من صفات الغيب إلى محضر الشهود^(١) .

وبعد ذلك قد يسأل سائل : لماذا هذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، فالقرائن التقريرية الواردة في سياق الغيبة تكفي لمعرفة أن هذا الرب يستحق العبادة فهو (رب العالمين، والرحمن الرحيم، ومالك يوم الدين) ، نجيب : أيُّ شك أو إنكار من الجاحدين وليس من المؤمنين، فبالنسبة للمؤمنين فإنهم مؤمنون بوحداية الله سبحانه إلا أن الإنكار يقع من الكفار فهم يعبدون آلهة أخرى غير الله، لذلك كسر مسار الخطاب بسبب التخصيص الذي يفترض لوازم تخصيصه ومن ضمنها الصورة الالتفاتي الضمائية .

(١) ينظر : تفسير الشعراوي ، الشعراوي ؟ ٧٥-٧٦ ، و البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، ٣١٤

وتطالعنا الصورة الالتفائية في نص آخر من نصوص القرآن الكريم أخبرنا الله سبحانه وتعالى من خلالها عن فئة من الناس وهم المنافقون الفاسقون بأنهم المبعدون عن منهجه في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ * كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧-٢٨] .

أراد الحق أن يبين لنا صفاتهم، فحددها في ثلاث صفات نمطية : أولاً ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ ، ثانياً ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ ثالثاً ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، ثم حدد لنا الحق تبارك وتعالى حكمهم عنده بأنهم : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وكل هذه الأفعال المتجددة القبيحة جاءت في سياق الغيبة الذي يمثل طرف الصورة الأول وذلك في قوله جل شأنه : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧] .

ونلاحظ في سياق (الغيبة) جمالية تشكيل الصورة الاستعارية (التخيلية) في قوله : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ إذ « شبه العهد بالحبل، وأضمر في النفس ، فلم يصرح بشيء من أركان التشبيه سوى العهد المشبه، ودل عليه بإثبات النقض الذي هو من خواص المشبه به وهو الحبل »^(١).

(١) الإتيان في علوم القرآن : ١٢٦/٢ .

وقد تحدث الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) عن معنى النقض بقوله : « النقض :
الفسخ وفك التركيب ، فان قلت : من أين ساغ النقض في إبطال العهد ؟ قلت :
من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة
بين المتعاهدين ... وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء
المستعار ، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من رواده ، فينبهوا بتلك الرزمة على مكانه »^(١) .
وبعد ذلك ينتقل سبحانه وتعالى إلى أصل الحياة والموت وبيان قدرته
سبحانه وتعالى على الإحياء والإماتة ، كيف لا وهو خالق كل شيء ، وذلك في
سياق الخطاب الذي يمثل مكمنا الصورة الالتفائية في النص ، وذلك في
قوله تعالى ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ
يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨] .

وإذا عدنا إلى بنية الصورة الالتفائية على مستوى التحليل ، لا بد من بيان
شكل البنية التي تمكننا من معرفة الأنموذج الأصلي الذي تقوم عليه بنية اللغة
المتوقعة والشكل المنزاح عنها كما يأتي :

(١) الكشاف ، الزمخشري : ٦٨ .

صيغة الخطاب

سياق الخطاب (٢)

سياق الغيبة (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت إليه (الخطاب)

الملتفت عنه (الغيبة)

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

هم ← قطع نحول // أنتم
تضاد

﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ... ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

كَيْفَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ

هم ← الغيبة
الغيبة

﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ... ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

انطلاقاً من شكل البنية السابق يمكن القول: إن أي تغير في نظام التركيب يتحول إلى « نظام يوظفه الرمز في مستوى آخر لدلالة غير ما كانت له في نظامه الأصلي »^(١).

وتتأزر عدة مستويات في الخطاب القرآني (النحو - المعجم - الصوت) في آليات القول لتوجد نسيجاً لغوياً يعد شبكة النص البلاغية الاعجازية، ففي هذه الصورة نلاحظ وجود عنصر لغوي بنيوي يمكن تحديده في قوله تعالى: « كيف » وذلك في سياق (الخطاب).

(١) بلاغة الخطاب وعلم النص : ٢٤٢ .

وهو اسم استفهام يسأل به عن الحال، والحق سبحانه وأورده في هذه الصورة ليس بغرض الاستفهام، ولكن لطلب تفسير أمر عجيب ما كان يجب أن يحدث أي منكر من الله سبحانه وتعالى، ومعناه : أن الأمر يُتَعَجَّب منه لغرابته ويُعَدَّه عن المألوف من شكر المنعم^(١)، أي : كيف تكفرون وقد أعطاكم هذه الأدلة الدامغة من خلق السماوات والأرض وخلق الناس، أدلة لا يستطيع أحد أن ينكرها^(٢) .

والاستفهام إنكاري لا بمعنى إنكار الوقوع ... بل بمعنى إنكار الواقع واستبعاده، وفيه من المبالغة ما ليس في توجيه الإنكار إلى نفس الكفر^(٣) .

إن سياق الصورة الالفتائية يستحضر ويستجلب هؤلاء للمثول أمام واقعهم ولتعداد الجرائم التي اقترفوها كما حصل في سياق الغيبة .

والقرآن الكريم يتغلغل إلى الأعماق « أعماق المنافقين، فيكشف عن منازعهم ونوازعهم، ويبين خوالجهم ونبضاتهم، ويميط اللثام عن أدق حالاتهم وأحوالهم »^(٤) .

لذلك تحققت بلاغة الصورة الالفتائية في هذا النص من خلال مقصدية الله سبحانه وتعالى في توبيخ هؤلاء على كفرهم مع علمهم بحالهم المقتضية خلاف ذلك^(٥)، وتبني عن حالة الكفر مقصدية أخرى إذ تنبئ عن الانهماك في الغفلة أو

(١) ينظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ابن عطية : ٦٩ .

(٢) ينظر : تفسير الشعراوي : ٢٦٦/١ .

(٣) ينظر : من بلاغة القرآن ، أحمد أحمد بدوي : ٦٥ .

(٤) الأمثال في القرآن ، محمود بن الشريف : ١٣ .

(٥) ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢٦٧-٢٦٨ ، وروح المعاني ، الألوسي : ٢١٢/١ .

الجهل^(١)؛ لأن الكفر بالله في مواجهة هذه الدلائل والآلاء كفر قبيح بشع، لذلك جاءت الصورة الالتفائية لتواجه هذه الفئة من البشر بما لا بد من مواجهته، والاعتراف به، والتسليم بمقتضياته . تواجههم بموكب حياتهم وأطوار وجودهم . لقد كانوا أمواتاً فأحياهم، ولا مفر من مواجهة هذه الحقيقة التي لا تفسير لها إلا بالقدرة الإلهية الخالقة^(٢) .

ونعائين الصورة الالتفائية في معرض ذم الله سبحانه وتعالى المنافقين إذ « ذكر أنهم يتخذون الكافرين من اليهود أولياء دون المؤمنين، فيجلسون إليهم ويسمعون إلى طعنهم في القرآن مع أنهم قد نهوا عن سماع ذلك منهم، ثم ذكر تذبذبهم بين المسلمين والكفار ، فإن كان للمؤمنين فتح طلبوا أن يشاركوهم في الغنائم، وإن كان للكفار ظفر امتنوا عليهم بمنعهم من المسلمين، وأنهم يخادعون الله بذلك وهو خادعهم »^(٣) .

والمقصود بالكفار هنا كفار مكة أو أحبار اليهود، لأنه لم يبق مشركون صرحاء في وقت نزول السورة^(٤)، ونلاحظ بروز العنصر الخطابي في النص بمجمله وهو (الذم) في سياق الصورة المتجسدة في قول الحق سبحانه: ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنَعُوكَ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا * وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ

(١) ينظر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، د. فتحي أحمد عامر : ١٠٥ .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن : ٦٢/١ ، ودراسات قرآنية : ٢٨٥ .

(٣) النظم الفني في القرآن ، عبد المتعال الصعدي : ٨٧ .

(٤) ينظر : تفسير التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٣٤/٥ ، وفي ظلال القرآن : ٥٥٦/٢ .

حَقًّا يَخُوضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ **إِنكُرْ إِذَا مَثَلُهُمْ** إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ

جَمِيعًا ﴿ [النساء: ١٣٩ - ١٤٠].

ونلاحظ في سياق الغيبة أيضاً الاستفهام الإنكاري الذي اعتاد عليه أسلوب القرآن لمقصدية بلاغية في قوله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾، فهذا «إنكار لرأيهم وإبطال له وبيان لخيبة رجائهم وقطع لأطماعهم الفارغة»^(١) فالبنية الاستفهامية جاءت لغرض التوبيخ والإنكار^(٢)، وتتآزر مع هذه البنية بنى لغوية أخرى، ففي قوله: «أَيَبْتَغُونَ» استئناف بياني لوجود المعطوف في قوله: «فإن العزة لله» وفي ذلك إيماء إلى أن المنافقين لم تكن موالاتهم للمشركين لأجل المماثلة في الدين والعقيدة، لأن معظم المنافقين من اليهود، بل اتخذوهم ليعتزوا بهم على المؤمنين، وإيماء إلى أن المنافقين شعروا بالضعف فطلبوا الاعتزاز، وفي ذلك نهاية التجهيل والذم^(٣) وفي هذا الخطاب كناية عميقة الغور تكمن في العنصر الخطابي (التحذير) من مخالطة المنافقين، فصور الخطاب تتناسل بفعل منظومة النسق اللغوي على المستوى التركيبي والدلالي، وتظهر الصورة الالتفائية بعد هذا العرض الذي جاء بسياق الغيبة، إذ نجد عملية التحول في قوله تعالى: «وقد نزل عليكم...» فهذا السياق يمثل بؤرة الصورة الالتفائية أي (الخطاب) وقد شكلت هذه البؤرة حقولاً دلالية وإبلاغية على مستوى النسق اللغوي.

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم المعروف بـ (تفسير أبي السعود)، أبو السعود: ٢٤٤/٢.

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٣٤/٥.

(٣) المصدر السابق نفسه: ٢٣٤/٥.

منها استحضار أصحاب الصلة الذين ينسب إليهم فعل (الأخذ)، فبعد أن أجريت عليهم الضمائر الغائبة صاروا معروفين بصفتهم هذه فالتفت إليهم سبحانه بالخطاب^(١)، وتكشف اللمسة الأولى عن طبيعة المنافقين، وصفتهم الأولى، وهي ولاية الكافرين دون المؤمنين، كما تكشف عن سوء تصورهم لحقيقة القوى؛ وعن تجرد الكافرين من العزة والقوة، وتقرر الصورة أن العزة لله وحده؛ فهي تطلب عنده، وإلا فلا عزة ولا قوة عند الآخرين^(٢).

وفي خاتمة الخطاب جمع الله سبحانه المنافقين والكافرين في بؤرة واحدة وهي (جهنم) بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ بوصفها نهاية فعل الموالاة والمحصلة الجزائية المهينة لهم.

إن جمال الصورة لا يُعرف « إلا من الداخل يتبدى في التمفصل، أي: أنه يُبيح تجزيته في مستوى أول من القراءة على أن لا يكرر الجزء الآخر أو يغيب وظيفياً، فيكون العمل الفني بهذه الأجزاء غير المتجانسة وظيفياً فضاءً جمالياً مكتظاً بالحركة يشبه الجسد المتناسق البناء، تتحرك جميع أعضائه وخلاياه في هيجان منظم وتغمره الهيكلية في كل المواقع، فالجمال - بهذه القراءة من الداخل - تعقب لبعض التمفصلات التي بها يكون الواحد مفتوحاً على العدد اللانهائي^(٣)» ويمكن هيكلة هذه الصورة في بنيتها الشكلية الآتية:

(١) ينظر تفسير التحرير والتنوير: ٥ / ٢٣٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٥٥٦/٢.

(٣) وجود النص - نص الوجود: ٤٤.

صيغة الخطاب

سياق الغيبة (١)

سياق الخطاب (٢)

أ - البنية السطحية

الملفت إليه (الخطاب)

الملفت عنه (الغيبة)

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي
الْكِتَابِ ... ﴾

هم ← قطع تحول // أنتم
تضاد

﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾

غير متوقع

متوقع

ب - البنية العميقة

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْهِمْ فِي
الْكِتَابِ
متوقع

هم ← الغيبة
الغيبة

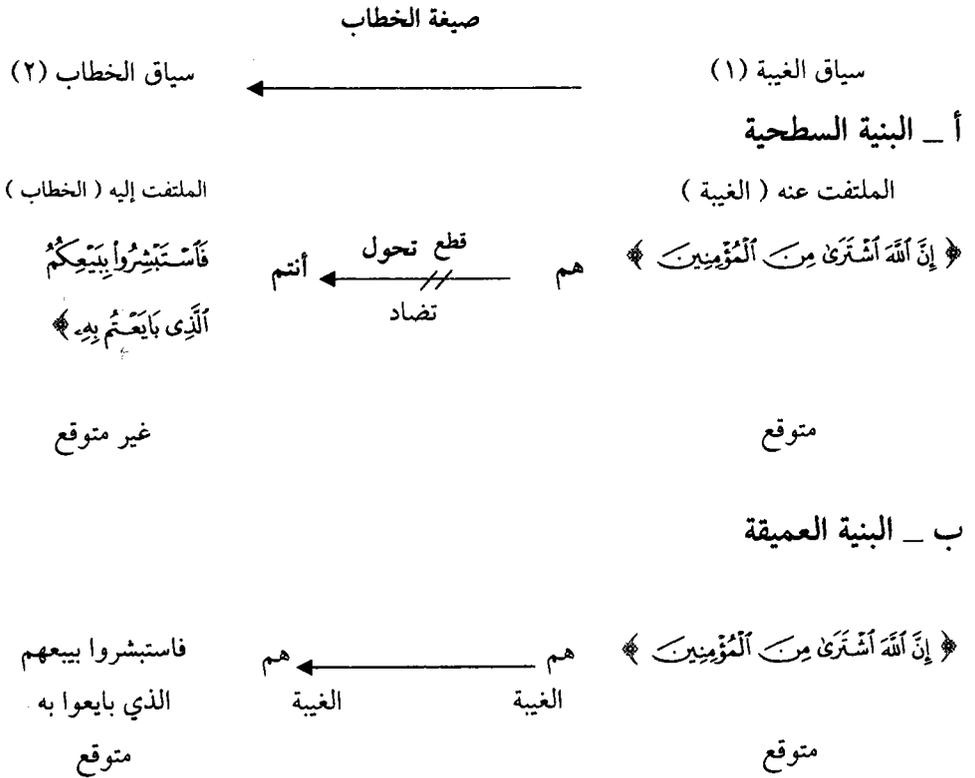
﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾
متوقع

شكل البنية

وفي رحاب آيات القرآن الكريم وبدائعه وفي سياق الحث على الجهاد في سبيل الله من خلال بيان منزلته وأجره وبيان حال المتخلفين عنه^(١) تطالعنا الصورة الالتفافية وذلك في قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثَرِ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا

(١) ينظر : روح المعاني : ٢٩/١١ .

يَبِّعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۗ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ [التوبة: ١١١] ، تتشكل معالم البنية للصورة الالتفافية بالآتي :



شكل البنية

نجد في هذا الأنموذج للصورة الالتفافية صوراً أخرى تتواشج وتتضافر مع الصورة الالتفافية، وهذه سمة أسلوبية إذ إن التضافر « هو أركان جملة من الإجراءات الأسلوبية ... في نقطة معينة من النص »^(١) .

(١) معايير تحليل الأسلوب ، ميكائيل ريفاتير : ١٠-٥٠ .

فمن الصور الجزئية الواقعة في سياق الغيبة في بنية التلطف - الصورة الإستعارية، وذلك ماثل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى... ﴾ إن دلالة المسند الفعلي « اشترى » تتجاوز المستوى المفهومي إلى المستوى المجازي الذي يضيف إلى الفعل دلالات أخرى، إذ شبه الله سبحانه وتعالى هيئة بذل الأنفس والأموال تحت عنوان الجهاد بهيئة المتاجرة، فلفظ الشراء (مستعار له) أي للبذل، والمستعار منه هو هيئة المتاجرة والبيع، أي : استبدل لفظ الشيء المباع بأشياء معنوية، وإن افتتاح الكلام بـ (إنّ) لتأكيد الخبر والاهتمام به^(١) .

ونلاحظ ملمحاً أسلوبياً آخر في تشكيل الصورة الالتفافية في السياق نفسه، إذ نجد تقديم لفظ (الأنفس) على (الأموال) وتعليل ذلك يتعلق بالسياق القرآني، فالقرآن الكريم يضع الألفاظ تبعاً للمقاصد الموجهة إلى المتلقي وإرادة المرسل ، فالأنفس « هي المشتراة في الحقيقة، وهي مورد العقد، وهي السلعة التي استامها ربها، وطلب شراءها لنفسه، وجعل ثمن هذا العقد رضاه وجنته، فكانت هي المقصودة بعقد الشراء، والأموال تبع لها، فإذا ملكها مشتريها ملك مالها، فإن العبد وما يملكه لسيده، وليس له فيه شيء، فالمالك الحق إذا ملك النفس ملك أموالها ومتعلقاتها »^(٢).

إن بنية الصورة الاستعارية في قوله سبحانه وتعالى : « اشترى » « تشعرك أن ثمة مبايعة وقعت على الحقيقة بين الله سبحانه وعباده المؤمنين »^(٣) لأن جمالية الإيحاء في الصورة الاستعارية قرّب « معاني التجارة والربح الوفير الذي يجنيه

(١) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٣٧/١١ .

(٢) ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين : ١١٥ .

(٣) الاستعارة في القرآن الكريم ، أحمد فتحي رمضان (رسالة ماجستير) جامعة الموصل : ٢٥٥ .

المؤمنون عند الله، ويتمثل ذلك الربح الوفير الذي ليس فوقه ربح « بالجنة »
الغاية الحقيقية التي يبشّرون بها مقابل ما بذلوا من نفوس وأموال»^(١) .

وتأتي بعد ذلك بنية الصورة الالتفائية في سياقها الخطابي في قوله تعالى :
﴿فَأَسْتَبْشِرُوا بِيْبَعِيكُمْ﴾ إذ يمكن تحديد بلاغة هذه الصورة في أنها خطاب للمؤمنين
لمزيد الاعتناء بهم^(٢) بدليل البشارة وأن الله سبحانه أخرج الكلام إلى سياق
الخطاب بعد الغيبة ليفاجئ عباده المجاهدين بقرب حصول الفوز وتحصيل
الثواب^(٣)، وقد جاءت هذه الصورة بعدة متغيرات بنيوية عملت على تفعيل
حقول الدلالة نذكر منها :

مجيء مجموعة من التأكيدات وهي (إنّ، بأنّ) .

– ورود مجموعة دوال تأكيدية أيضاً على مستوى الخطاب البلاغي (الوعد ،
الحق، الوفاء) وقد جاءت بصيغة التتابع والتوالي النصي (المنطقي) إذ يمثل الوعد
مرحلة أولى وهو منعوت بكونه حقاً لإخراج ما ليس كذلك، ثم تأتي بعد ذلك عملية
الوفاء به كمرحلة متقدمة ، والخطاب الالتفائي قدم وقرب الجزاء بالوعد .

– إثبات هذه الوثيقة والمبايعة في الكتب السماوية (التوراة، الإنجيل، القرآن)
بحسب الترتيب الإلهي لإنزالها . فعملية تقييد هذه المبايعة بالكتابة محور بالغ
الأهمية لكونه دليلاً على صحة وجود العقد أي عقد التعامل والمبايعة .

– إعطاء الجزاء والثواب بسرعة قصوى من خلال بنية التحول للصورة الالتفائية
سياق (الخطاب) عن طريق التصريح بالبشارة والفوز العظيم الذي لا مثيل له .

- حصيلة هذا التفعيل تكمن في الترغيب في الجهاد بوصفه أداة لنصر الدين
وإعلاء كلمة الحق المبين .

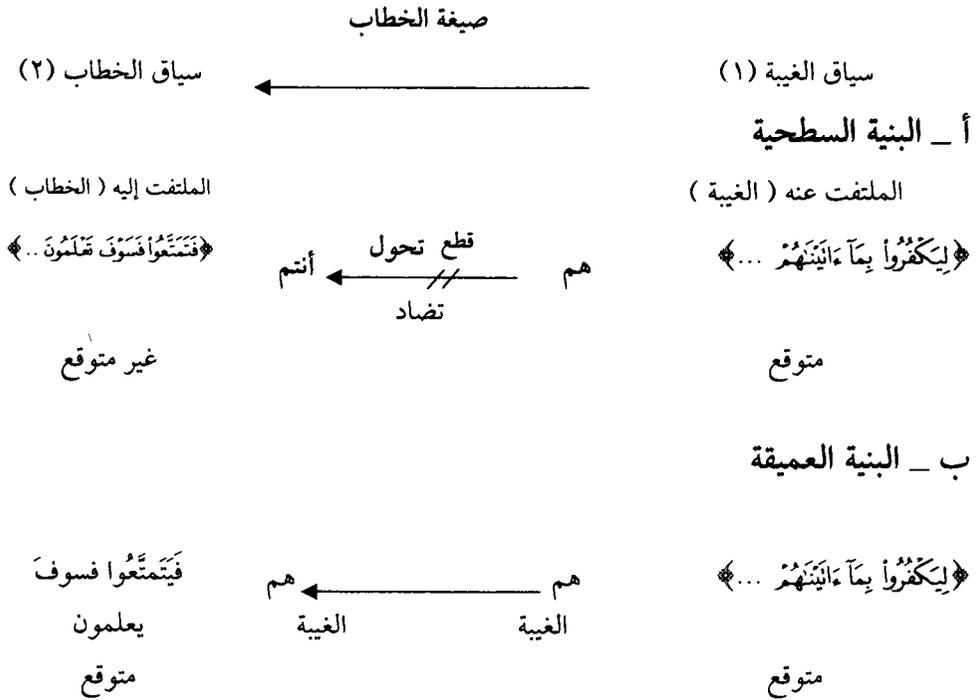
(١) المصدر نفسه : ٢٥٦ .

(٢) ينظر : حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ، الصاوي : ٨٤٠/٣ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير : ٣٧/١١ .

ومن صور الالتفات الأخرى في نصوص القرآن الكريم ما جاء في قوله تعالى
 ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا
 فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل ٥٤-٥٥].

إن هذا الخطاب بشكله العام مسوق لإنذار المشركين بالعذاب وإبطال
 شركهم، وبيان كفرهم نعم الله عليهم فجوزوا بذلك العذاب الذي حق عليهم^(١).
 ويمكن توضيح شكل البنية للصورة الالتفاتية بالآتي :



شكل البنية

(١) النظم الفني في القرآن ، عبد المتعال الصعيدي : ١٦٧ .

إن المفارقة السياقية حاصلة في الصورة الالتفائية والتي خرجت لبلاغة اقتضاها الخطاب القرآني، وهي تنامي سخط الخالق سبحانه على هؤلاء الجاحدين لنعمه والتعجب من إشراكهم بعد نجاتهم من الهلاك^(١)، إذ كفروا بما آتاهم الله من نعمة كشف الضر، وجاء الكفر هنا بمعنى الجحود، أي: إنكار كون تلك النعمة من الله^(٢)، لذلك جاءت الصورة الالتفائية لزيادة التوبيخ عليهم^(٣).

ومن المواطن التي يصور فيها القرآن الكريم - في أقوى صور التعبير التصويري - موقف الطبيعة الساخطة المستعظمة نسبة الولد إلى الله، فتكاد لشدة غضبها، أن تتفجر غيظاً، وتنشق ثورة وتخر الراسيات لهول هذا الافتراء، وضخامة هذا الكذب، واصغ إلى تصوير الغضب^(٤) وذلك في قوله عز وجل:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ [مریم: ٨٨ - ٩١].

إن هذه الآيات نزلت بخصوص من زعم أن الملائكة بنات الله، ومنهم اليهود والنصارى^(٥).

وقد جاءت الصورة الالتفائية لتوبيخهم ورد دعوتهم الباطلة، ويمكن بيان شكل البنية للصورة الالتفائية بالآتي:

(١) روح المعاني: ٢١٦/١٩.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٢١٦/١٩.

(٣) حاشية الصاوي: ١٠٧٣/٣.

(٤) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني: ١٩.

(٥) الجامع لاحكام القرآن، القرطبي: ١٠٣/١١.

صيغة الخطاب

سياق الغيبة (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت عنه (الغيبة)

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾

متوقع

ب _ البنية العميقة

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾

متوقع

سياق الخطاب (٢)

الملتفت إليه (الخطاب)

﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴾

غير متوقع

هم / قطع تحول / أنتم / تضاد

هم / الغيبة / الغيبة / هم

﴿ لَقَدْ جَاؤُوا شَيْئًا إِذَا ﴾

متوقع

شكل البنية

لقد تغيرت بنية النص، إذ لم يقل سبحانه : « لقد جاؤوا » بل قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ ﴾ ونتج عن هذا التغيير تغير في الدلالة النصية من خلال استحضار هؤلاء الذين ادّعوا أن الله سبحانه بنات موبخاً لهم منكرأ عليهم قولهم، فهو كأنه يخاطب قوماً حاضرين^(١) ومن بلاغة الصورة الالتفائية في هذا النص المبالغة بدمهم والتعجيل عليهم بالجرأة على الله تعالى^(٢)، فضلاً عن خطاب التوبيخ لأن

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣٧١/٣ .

(٢) ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٣٥/٤ .

توبيخ الحاضر أبلغ في الإهانة^(١)، من توبيخ الغائب، فكان « الانتقال من الحديث عنهم إلى الحديث إليهم زيادة في تهديد ... ومواجهة لهم بالسخط عليهم والتأنيب لهم »^(٢) ، لرد مقالتهم الباطلة وتهويلها لعظم أمرها وفسادها .

ومن النكت البلاغية الأخرى للصورة الالتفائية في هذا النص المبالغته والمباكته^(٣) ووضع أسلوب الخطاب في حالة الصدمة الضاربة لما قاله هؤلاء بأنَّ لله بنات والله منزه عن هذا الادعاء العريض .

وفي سياق الحديث عن النبي محمد ﷺ فيما يخص (النكاح) يوجه الله سبحانه وتعالى خطابه إلى النبي ﷺ بأسلوب الالتفات وذلك في قوله تعالى :

﴿وَأَمْرًا مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ

الْمُؤْمِنِينَ...﴾ [الأحزاب: ٥٠]

وتتضح بنية الصورة الالتفائية بالشكل الآتي :

(١) ينظر : الجامع الكبير ، ضياء الدين ابن الأثير : ٩٩ ، والبرهان في علوم القرآن : ٣٣٠/٣ .

(٢) بلاغة الكلمة والجملة والجمل ، منير سلطان : ١١٠ ، وروح المعاني : ١٣٩/١٦ .

(٣) ينظر : الإعجاز الفني في القرآن ، عمر السلامي : ١٥٢ .

صبغة الخطاب

سياق الخطاب (٢)

سياق الغيبة (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت إليه (الخطاب)

الملتفت عنه (الغيبة)

﴿ خَالِصَةٌ لِّكَ مِنْ

هو $\xleftarrow{\text{قطع تحول}}$ أنت

﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾

دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

تضاد

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

خَالِصَةٌ لَهُ مِنْ دُونِ
المؤمنين

هو $\xleftarrow{\text{هو}}$ هو
الغيبة الغيبة

﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

إن دلالة الآية بشكل عام تتجه إلى أنه في حالة إرادة النبي ﷺ نكاح امرأة، فحلل له أن ينكحها إذا وهبت نفسها له بغير مهر خالصة له، أي بعبارة أخرى يقول سبحانه : لا يحل لأحد من أمتك أن يقرب امرأة وهبت نفسها له إلا بمهر، وإنما ذلك لك يا محمد خالصة أخلصت لك من دون سائر أمتك^(١).

(١) ينظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بـ (تفسير الطبري) ، الطبري : ٢٨/٢٢ .

« وقد قالوا إنه ﷺ لم يصح أن تزوج واحدة من هذا النوع، وإنما كان يزوج الواهبات لغيره من أصحابه رضي الله عنهم، وقيل : إن ميمونة بنت الحارث الهلالية قد وهبت نفسها للنبي وأنه ﷺ أعرس بها »^(١) .

وقد جاءت الصورة الالتفائية في هذا النص القرآني ببلاغة خطابية تكمن في اختصاص النبي محمد ﷺ بهذا الأمر وإيثاره على غيره من الناس، وهو خطاب تكريم وتفخيم له وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته^(٢) ، إذ ترك الله سبحانه وتعالى للنبي الخيار في أن يضم إلى عصمته من شاء ممن يعرضن أنفسهن عليه^(٣) .

وتطالعنا صورة التفاتية أخرى في القرآن الكريم في إطار الحث على التسوية بين الناس في الدعوة إلى الله، وذلك في قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى ﴾ [عبس: ١- ٣] .

إن هذه السورة أي : سورة « عبس » نزلت في (عبد الله بن مكتوم) الذي أتى النبي ﷺ وعنده صنديد قريش يدعوهم إلى الإسلام، فطلب (عبد الله بن مكتوم) من الرسول ﷺ أن يقرئه ويعلمه مما علمه الله، فعبس واعرص عنه، فنزلت هذه السورة عتاباً له^(٤) .

ويمكن أن نبين شكل البنية للصورة الالتفائية بالآتي

-
- (١) من أسرار التعبير القرآني (دراسة تحليلية لسورة الأحزاب) ، د. محمد أبو موسى : ٢٦٠ .
 - (٢) ينظر : الكشف ، الزمخشري : ٨٦ .
 - (٣) ينظر : في ظلال القرآن : ٦٠٥/٦-٦٠٦ .
 - (٤) ينظر : النظم الفني في القرآن : ٣٣٩ .

صيغة الخطاب

سياق الخطاب (٢)

سياق الغيبة (١)

أ _ البنية السطحية

الملفت إليه (الخطاب)

الملفت عنه (الغيبة)

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾

هو ← قطع تحول // أنت
تضاد

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

وما يُدْرِيهِ لَعَلَّهُ يَزْكِي

هو ← هو
الغيبة الغيبة

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

وتتجسد بنية (العتاب) في عدة كلمات وردت في سياق التحول (الخطاب)

في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ فلا يوجد وحدة معجمية تشير إلى العتاب سوى السياق النصي للخطاب وأسباب النزول المختصة بالقرآن الكريم، وقد عبر سبحانه في طرف الصورة الالتفائية الأول عنه ﷺ بضمير الغيبة إجلالاً له ﷺ لإيهام أن من صدر عنه ذلك غيره، لأنه لا يصدر عنه ﷺ مثله، كما أن في التعبير عنه ﷺ بضمير الخطاب الالتفائي في قوله : « وما يدريك » ذلك لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش، والإقبال بعد الإعراض، والتعبير عن ابن مكتوم بالأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول ﷺ^(١).

(١) ينظر روح المعاني : ٤٠-٣٩/٣٠ .

ومن بلاغة الخطاب الالتفاتي في هذا النص : أن الله سبحانه وتعالى حين يعاتب الرسول ﷺ على فعل الإعراض لا يعاتبه على أنه مقصر بل يعاتبه على أنه حمّل نفسه من المشقة ما لم تطلبه الرسالة، فالعتاب لصالح الرسول ﷺ لا عليه، كذلك من بلاغة الصورة الالتفائية أنه سبحانه وتعالى لم يقل له « عبست وتوليت » لأنه سبحانه لا يريد أن يعرض رسوله إلى المواجهة تطفأً به^(١)، وقد أدت هذه الصورة عدة وظائف على مستوى الدلالة منها :

* عمومية الخطاب اللغوي في سياق الصورة الأول (عبس) : الذي جاء في سياق الغيبة والذي يحيل إلى شخص من دون تحديده موقِعاً لقصد الإيهام لتنزيه الرسول ﷺ عن ارتكاب أفعال مذمومة، ولإبعاده عن خطاب المواجهة.

* إثارة فعل قصدي وإدراجه في سلم الأولويات للدعوة الإسلامية : وهو اتخاذ الطريق السهل في حالة رفض الطرف الآخر قبول الدعوة، أي : بعبارة أخرى كان طريق (الأعمى) وهدايته أسهل بالنسبة للرسول ﷺ من دعوة هؤلاء المتكبرين.

* بيان دوافع العتاب وأبعاده الدلالية : فحين بدأ الخطاب متحدثاً عن الغائب، وكأنه بذلك يريد أن يرسم الصورة لرسوله على لوحة يراها أمام عينيه على وجه غير وجهه، لتكون الصورة واضحة القسّمات بينة المعالم، ثم اتجه العتاب إلى الخطاب في رفق قريب من العنف، مبيّناً ما لعله يرجي من الخير من هذا الأعمى السائل، ثم عقد موازنة بين من عنى به النبي ﷺ ومن أعرض عنه، فهذا مستغنى لا يعنيه أن يصغي إلى الدعوة، أو يطعيها، والآخر مقبل، تملأ قلبه الخشية، ويدفعه الإيمان، وقد سجل هذا الخطاب معاملة الرسول لهما، ولكن هذا الخطاب يحمل في ثناياه عذر الرسول^(٢).

(١) ينظر: المنتخب من تفسير القرآن الكريم ، محمد متولي الشعراوي : ١١٤-١١٥ .

(٢) ينظر : من بلاغة القرآن : ٣٦٣-٣٦٤ .

ومن مشاهد القيامة في القرآن الكريم التي جاءت لتصوير معاناة الكافرين في العذاب قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبا: ٢٧ - ٣٠].

إذ نجد التحول في الصورة الالتفائية في قوله تعالى ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾

وقد جاءت هذه الآية بعد سلسلة من الآيات التي تضمنت عملية تعداد لصفات الكافرين، وكانت كلها في سياق (الغيبة) الذي يمثل طرف الصورة الالتفائية الأول، أما هذه الآية فقد أخذت بزمام عملية التحول لتمثل بؤرة الصورة الالتفائية، ونبين شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :

صيغة الخطاب

سياق الخطاب (٢)

سياق الغيبة (١)

أ _ البنية السطحية

الملفت عنه (الغيبة)

﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴾

متوقع

ب _ البنية العميقة

﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴾

متوقع

الملفت إليه (الخطاب)

﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ

إِلَّا عَذَابًا ﴾

غير متوقع

هو $\xleftarrow{\text{قطع تحول}}$ أنت
تضاد

هو $\xleftarrow{\text{هو الغيبة}}$ هو الغيبة

ليذوقوا فلن نزيدكم
إلا عذاباً

متوقع

شكل البنية

وقد استُخدم في هذه الصورة نسق التجسيم، والمراد منه « إبراز الماهيات والأفكار العامة والعواطف في رسوم وصور وتشابيه محسوسة، هي في واقعها رموز معبرة عنها »^(١) .

وظهر عنصر مجسم للصورة التهويلية التي يعاني منها الكفار يوم القيامة من شدة العذاب الذي وقع عليهم، وهذا العنصر هو « الذوق » الذي يمثل أحد العناصر التكوينية لحواس الإنسان، وقد جاء ذكره في سياق الخطاب في قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا ﴾ والذوق حاسة دنيا إلى جانب اللمس والشم، أما الحواس العليا فهما السمع والبصر، وحسّية التذوق تبعث على التهويل، فكان حقيقاً بأن تُقرن بعذاب الآخرة، وفيها أقصى المباشرة في التلقي، وقد وردت أيضاً في تذوق الرحمة، كما وردت في تذوق الويال والبأس والعذاب، إذ تبعث في الذهن صورة النار تأكل الأحشاء بعد أن تصل إلى اللسان^(٢)، فعملية إيراد حاسة « الذوق » في هذه الآية لتشكيل صورة استعارية، إذ أستعار التعبير القرآني لفظ « الذوق » لأنه أبلغ في التهويل .

ويقول أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) عن بلاغة استعارة حاسة الذوق للعذاب : « لأن حاسة الذائق أقوى لإدراك ما يدوقه، وللذوق فضل على غيره من الحواس، ألا ترى الإنسان إذا رأى شيئاً لم يعرفه شمّه، فإن عرفه وإلا لما يعلم أن للذوق فضلاً في تبين الأشياء »^(٣) ومن بلاغة الصورة الالتفاتية في هذه الآية التي

(١) المعجم الأدبي ، جبور عبد النور : ٥٩ .

(٢) ينظر : جماليات المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف : ١٠٤-١٠٥ .

(٣) كتاب الصناعتين : ٢٧٥ .

جاءت بصيغة الاستعارة الكامنة في فعل الأمر « فذوقوا » التهديد والتهويل، إذ أخرج فعل الأمر عن معناه الأصلي وهو « الإيجاب والإلزام »^(١) إلى معنى التهديد الذي اقتضاه سياق الخطاب القرآني لأن « فذوقوا » خطاب من متكلم ومخاطبين يسمعون، لكن السياق الأول كان غيبة، فكأن الذي كنتم تحدثون عنه غيباً صار واقعاً، وصار مشهوداً، وصرت أخطابكم فيه^(٢)، وإن استحضرنا مشاهد القيامة لا يتحقق في سياق الغيبة، لأن الكفار كذبوا بوجودها وأنكروها، ويمكننا القول من خلال تتبع مشاهد القيامة في القرآن الكريم بأن الصورة الالتفائية أسلوب واضح جد الوضوح في بنية هذه المشاهد القرآنية.

ومن النماذج التي نحن بصدددها في هذا المقام قوله تعالى : ﴿ وَسَقَّهْمُ

رُبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرْجَاءَ وَكَانَ سَعِيكُمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإنسان: ٢١ - ٢٢] .

ويمكن بيان شكل البنية لهذا الأنموذج بالآتي :

(١) جواهر البلاغة ، احمد الهاشمي : ٧٨ .

(٢) ينظر : المنتخب من تفسير القرآن الكريم : ٨٥/٢ .

صيغة الخطاب

سياق الخطاب (٢)

سياق الغيبة (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت عنه (الغيبة)

الملتفت إليه (الخطاب)

﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُ جَزَاءً ﴾

هو / أنت
قطع نحول
تضاد

﴿ وَسَقَمَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَهُمْ جَزَاءً ﴾

هو / هو
الغيبة / الغيبة

﴿ وَسَقَمَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

وفي هذه الصورة ضمن سياق الغيبة نجد « أجمل أوصاف الشراب التي تحقق لذته، فلا ألم ولا صداع، ولا منع ولا انقطاع يذهب بلذة المتاع، إنما هي خمر أعدت للمنعمين في الجنة، خمر يحتفظ فيها الشارب بخير ما أعطي من النعم وهو عقله، والخمر حين حرّمت في الحياة الدنيا على المسلمين، إنما حرّمت لعيوبها ومضارها، فهي تُفقد الإنسان لبه وتفكيره، أما خمر الجنة فهي خالصة من العيوب، فهي لا تسكره ولا يصيب شاربها الصداع»^(١) لذلك بين سبحانه صفة هذا الشراب بأنه « طهور » أي « من أقدار لم تمسه الأيدي، ولم

(١) المشاهد في القرآن الكريم ، د. حامد صادق : ٢٠٨ .

تدنسه الأرجل كخمر الدنيا»^(١) ويأتي سياق التحول (الخطاب) ليشكل الصورة الالتفاتية وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ...﴾ ، وبلاغة هذه الصورة فيما تحمله من البشري^(٢) لهؤلاء الذين يدخلون الجنة من تعداد لأشكال النعيم الدائم ، وبأن هذا النعيم هو جزاء لكم لقاء فعلكم الخير، وهو يختص بكم دون غيركم، وكان مقتضى السياق على مستوى العمق أن يقال : « لهم » بدلاً من « لكم » ولكن كان هذا العدول لمقصدية بلاغية تتعلق بالخطاب .

(١) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين : ٢٢٨٩/٦ .

(٢) ينظر : المشاهد في القرآن الكريم : ٤٧٠ .

أنموذج الضمائر (سياق الغيبة / الخطاب)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه الغيبة	الملتفت إليه الخطاب	السور	الآيات
١	﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ قُتِلُوا إِصْلَاحًا لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ...﴾	هم	أنتم	البقرة	٢٢٠
٢	﴿فَإِنْ أَدَّاءٌ فَصَالًا عَنِ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ﴾	هما	أنتم	البقرة	٢٣٣
٣	﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ...﴾	هم	أنتم	آل عمران	١٠٦
٤	﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَخْلُقُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾	هم	أنتم	آل عمران	١٨٠
٥	﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾	هم	أنتم	آل عمران	١٧٨
٦	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾	هو	أنت	النساء	٦١

نموذج الضمائر (سياق الغيبة / الخطاب)

الآيات	السور	الملفت إليه الخطاب	الملفت عنه الغيبة	الشاهد القرآني	ت
٦٥-٦٤	النساء	أنت	هو	﴿وَأَسْتَغْفِرَ لَهُمْ رَسُولُ... فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾	١٠
٨٠	النساء	أنت	هو	﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾	١١
١٤٧-١٤٥	النساء	أنتم	هم	﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ... مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ...﴾	١٢
٦	الأنعام	أنتم	هم	﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ...﴾	١٣
٩١	الأنعام	أنتم	هم	﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرُوهُ... تَحْمِلُونَهُمْ قَرَأَطِيسَ بُدُونِهَا وَتُخَفُونَ كَثِيرًا...﴾	١٤
١٤٥	الأعراف	أنتم	هم	﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ بِالْحُدُودِ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾	١٥

أنموذج الضمائر (سياق الغيبة / الخطاب)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه الغيبة	الملتفت إليه الخطاب	السور	الآيات
١٣	﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	هم	أنتم	الأعراف	١٦٩
١٤	﴿وَإِذْ نَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاوِقِعُ بِهِمْ حُدُودًا...﴾	هم	أنتم	الأعراف	١٧١
١٥	﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...﴾	هم	أنتم	الأعراف	١٧٢
١٦	﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلِيكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنتُمْ ضَالِّتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَلُكُمْ ...﴾	هم	أنتم	الأعراف	١٩١-١٤
١٧	﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّا لَللَّهِ شَدِيدُ الْعِقَابِ ... ذَالِكُمْ فَذُوقُوهُ...﴾	هو	أنتم	الأنفال	١٣-٤

أ نموذج الضمائر (سياق الغيبة / الخطاب)

الآيات	السور	الملفتت إليه الخطاب	الملفتت عنه الغيبة	الشاهد القرآني
٣٥	الأنفال	أنتم	هم	﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ ... فَذُوقُوا الْعَذَابَ ... ﴾
٥٠	الأنفال	أنتم	هم	﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ ... وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾
٣	التوبة	أنتم	هم	﴿ إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن يُبْتَغَىٰ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ... ﴾
٦٩-٦٨	التوبة	أنتم	هم	﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً ﴾
٨٦	التوبة	أنت	هم	﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَن مَّامَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ ... ﴾

أنموذج الضمائر (سياق الغيبة / الخطاب)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه الغيبة	الملفت إليه الخطاب	السور	الآيات
٢١	﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾	هم	أنتم	يوسف	١٠٩
٢٤	﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ ... ﴾	هو	أنت	الرعد	٧
٢٥	﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيحًا ... تَأَلَّه لِيَتَّبِعُنَا ... ﴾	هم	أنتم	النحل	٥٦
٢٦	﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِيبَهُ فِي عُنُقِهِ ۗ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * أَقْرَأْ كِتَابَكَ ... ﴾	هو	أنت	الإسراء	١٣-١٤
٢٧	﴿ فَوَرَبِّكَ لِنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ... وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾	هم	أنتم	مريم	٦٨-٧١

أنموذج الضمائر (سياق الغيبة / الخطاب)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه الغيبة	الملتفت إليه الخطاب	السور	الآيات
٢٨	﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ، وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِّنِّي...﴾	هو	أنت	طه	٣٩
٢٩	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ...﴾	هو	أنت	الحج	١٠-٨
٣٠	﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ... فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَاسِ الْفَقِيرَ﴾	هم	أنتم	الحج	٢٨
٣١	﴿وَيَسْتَعْطُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلَفَ اللَّهُ وَعَدَّهُ، وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾	هم	أنتم	الحج	٤٧
٣٢	﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَفِئُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَفِئُونَكَ...﴾	هو	أنت	النور	٦٢
٣٣	﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ... فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ...﴾	هم	أنتم	الفرقان	١٧-٩

أنموذج الضمائر (سياق الغيبة / الخطاب)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه الغيبة	الملتفت إليه الخطاب	السور	الآيات
٣٤	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ... ﴾	هو	أنت	الفرقان	٣٢
٣٥	﴿ أَلَا يَسْحَدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ ... وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾	هم	أنتم	النمل	٢٥
٣٦	﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾	هم	أنتم	النمل	٩٠
٣٧	﴿ وَوَضِعْنَا الْإِنْسَانَ بِيَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ ﴾	هو	أنت	العنكبوت	٨
٣٨	﴿ ثُمَّ كَانَ عِاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا السُّوءَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِعَايَاتِ اللَّهِ ... ثُمَّ يُعِيدُهُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾	هم	أنتم	الروم	١١-١٠
٣٩	﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾	هم	أنتم	الروم	٣٤
٤٠	﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ... خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ... ﴾	هم	أنتم	لقمان	١٠-٨

أنموذج الضمائر (سياق الغيبة / الخطاب)

ت	الشاهد القرآني	الملمت عنه الغيبة	الملمت إليه الخطاب	السور	الآيات
٤١	﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۗ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنْتِهِم بِمَا عَمِلُوا ... مَا خَلَقَكُمْ وَلَا نَعْتُكُمْ ﴾	هم	أنتم	لقمان	٢٣-٢٨
٤٢	﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آيَاتِنَا ... وَتَقِينِ اللَّهَ ... ﴾	هن	أنتن	الأحزاب	٥٥
٤٣	﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ... وَمَا أَمْوَالُكُمْ ﴾	هم	أنتم	سبأ	٢٦-٣٧
٤٤	﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ... فَأَلَيْمَ لَا نُظَلِّمُ نَفْسًا شَيْئًا وَلَا نُحْزِنُوكَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾	هم	أنتم	يس	٥٣-٥٤
٤٥	﴿ فَأَتَتْهُمْ يُومِئِدٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ... إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾	هم	أنتم	الصفات	٣٣-٣٨
٤٦	﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * قَلِيلًا مَا نَتَذَكَّرُونَ ... ﴾	هم	أنتم	غافر	٥٧-٥٨
٤٧	﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِخَافٍ مِنْ ذَهَبٍ ... وَأَنْشُرُ فِيهَا خَلِيدُونَ ﴾	هم	أنتم	الزخرف	٧١

أنموذج الضمائر (سياق الغيبة / الخطاب)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه الغيبة	الملتفت إليه الخطاب	السور	الآيات
٤٨	﴿ وَقِيلَ لَهُ يَدْرِبَ إِنَّ هَذَا لَوْمَةٌ لَا يُؤْمِنُونَ * فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ... ﴾	هم	أنتم	الزخرف	٩-٨٨
٤٩	﴿ فَتَوَّ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ... ﴾	هم	أنتم	محمد	٢-٢١
٥٠	﴿ وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا... ﴾	هم	أنتم	الفتح	٠-١٩
٥١	﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾	هم	أنتم	الحجرات	٩
٥٢	﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ... وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحَدُّ ﴾	هو	أنت	ق	٩-١٨
٥٣	﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ... ﴾	هم	أنتم	الذاريات	١-٢٠
٥٤	﴿ وَوَقَّعَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْحَجِيرِ * كَلُوا وَأَشْرَبُوا ﴾	هم	أنتم	الطور	٩-١٨
٥٥	﴿ أَمْ لَمْ يَسْمَعُوا فِيهِ... * أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴾	هم	أنتم	الطور	٩-٣٨
٥٦	﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ... فَسَلِّمْ إِلَيْكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾	هو	أنت	الواقعة	١-٨٨
٥٧	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ... وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ... ﴾	هو	أنت	المنافقون	٥

أ نموذج الضمائر (سياق الغيبة / الخطاب)

الآيات	السور	الملفت إليه الخطاب	الملفت عنه الغيبة	الشاهد القرآني	ت
١	الطلاق	أنت	هو	﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾	٥
٣٦-٣٥	القلم	أنتم	هم	﴿ أَفَجَعَلُ الْمُتْسِلِينَ كَالْجُرْمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾	٥
٢٨-٢٧	التكوير	أنتم	هم	﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾	٦
١٧-١٦	الفجر	أنتم	هو	﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ * كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾	٦
٧-٤	التين	أنت	هو	﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * فَمَا تَكْفُرُ إِذْ تُكذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ﴾	٦١
٨-٥	العلق	أنت	هو	﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ﴾	٦٢

٢ - سياق الخطاب / الغيبة :

إنّ التغير الدلالي هو التغير في المعنى^(١)، وتعزى أسباب هذا التغير إلى عملية قصدية لدى المتكلم من خلال تبدل الفكرة التي يكونها المتكلم وإيصالها إلى المتلقي، ويتبع عملية التبدل في بنية المعنى إلى تبدل في بنية الشكل اللساني، وهذا ما نجده في بنية الصورة الالتفائية، فنحن بصدد نمط آخر من أنماط الالتفات الضمائري ألا وهو (الخطاب / الغيبة)، ويمكننا أن نقف عند آيات القرآن الكريم لمعاينة هذا النمط، فمن ذلك قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَبَ بِكُمْ رِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرِحْتُمْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِن أُجِيبْنَا مِنْ هَدْيِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْبِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس : ٢٢ - ٢٣] .

إن هذا النص يقرر اعتراف البشر بالله سبحانه ساعة العسرة، وأنه الملاذ والملجأ الحقيقي القادر وحده على كشف الضر والأذى، والمنقذ وحده من الشدائد، ويظل فعل الإنجاء من ظلمات البر والبحر دالاً على قدرته ورحمته ، مشيراً إليهما في مشهد من مشاهد الكون^(٢)، ويريد أن يبين سبحانه وتعالى أن

(١) ينظر : علم الدلالة ، بيار غيرو : ٦ .

(٢) ينظر : المشاهد في القرآن الكريم : ٢٣٢ .

الإنسان لا يعرف ربه إلا في ساعة الضيق، حتى إذا جاءه الفرج نسي الله الذي فرّج عنه، ولكنه لا يقولها في مثل هذا التنسيق الذهني، إنما يرسم القرآن صورة حافلة بالحركة المتجددة، والمشاهد المتتابعة، ويرسم في خلالها « أنموذجاً إنسانياً » كثير التكرار في بني الإنسان، وتحيا هذه الصورة وتموج وتضطرب ، وترتفع الأنفاس مع تماوج السفينة وتنخفض، ثم تؤدي في النهاية ذلك المعنى المراد، أبلغ أداء وأوفاه^(١)، وتأتي الصورة الالتفائية حدّاً فاصلاً بين صورتين : صورة النعمة التي أنعمها الله سبحانه على خلقه، وهي كامنة في بنية الفعل « يسيركم » وهذا الفعل يُغطّي نسق المكان الكلي والضدي (البر/البحر) وهنا مكمن النعمة، فلو أطلق نسق (البر) حصراً لحُرْم هؤلاء من نعمة السير في نسق (البحر) بوصفه بؤرة مكانية لها دورها الحيوي في تركيبة الإنسان الطبوغرافية والحياتية، والصورة الأخرى صورة هؤلاء حين انصرفوا إلى أنفسهم « وجرين بهم في ريح طيبة » يتمتعون بهذه النعمة نعمة التيسير « وفرحوا بها » لكن هذا التمتع لم يستمر، إذ لم يكن مفتوحاً بشكل مطلق، وفي ذلك إشارة إلى أن سنن الله في خلقه أن يريهم النعيم وبعد ذلك يصيبهم بالشدائد ليختبر خلقه ، أيشكرون أم يجحدون ويفسقون ؟ وهذا ما جرى عليه هذا النص .

ويمكن رسم شكل البنية للصورة الالتفائية بالآتي :

(١) ينظر : التصوير الفني في القرآن ، : ٤٤ .

صيغة الخطاب

سياق الخطاب (١)

أ - البنية السطحية

الملفت عنه (الغيبة)

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ ﴾

سياق الغيبة (٢)

الملفت إليه (الخطاب)

﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمُ ﴾

أنتم / قطع تحول / هم
تضاد

غير متوقع

متوقع

ب - البنية العميقة

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ ﴾

أنتم / الخطاب / أنتم / الخطاب
وجرين بكم

متوقع

متوقع

شكل البنية

نجد أن سياق الخطاب الذي يمثل طرف الصورة الالتفاتية الأول يقع في

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ... ﴾ وفيه ذكر لنعمة التيسير في بنية

المكان (البر/ البحر) وهنا تكمن أهمية هذه النعمة لأنها تحيط بالمكانين، إذ إن

الإنسان بطبيعته الحياتية لا يستطيع أن يستغني عن أحدهما دون الآخر، أما

بالنسبة لطرف الصورة الثاني الغيبة والذي يمثل بؤرة الصورة الالتفاتية فيتجسد

في قوله تعالى : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمُ... ﴾ وتلاحظ هذا الالتفات المتجسد في سياق الغيبة

ذكر لنعمة أخرى - أنعمها الله سبحانه وتعالى على الإنسان - وهي نعمة الإنجاء

والإنقاذ، لكنها جاءت بعد صراع ضدي حسي على مستوى الدال اللغوي، فطرف الصراع الأول يتجسد في قوله تعالى : ﴿ رِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ و طرف الصراع الآخر نجده في قوله تعالى : ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ وقد نتج عن هذا التمتع البنيوي عملية كشف لنوايا هؤلاء القوم، فبعد أن انصرفوا إلى التمتع بنعمة السير في البحر وجاءتهم الريح الطيبة، أختبر الله سبحانه وتعالى هذا النوع من البشر فجاءتهم ريح عاصف تدمرهم وتدخل الرعب في قلوبهم، إلا أنهم اجتازوا الاختبار ودعوا الله مخلصين له الدين بقولهم : ﴿ لَيْنَ أُنجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ، فلما أنقذهم الله سبحانه وتعالى من هذا البلاء ﴿ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَيْرِ الْحَقِّ ﴾ فقد تكشفت أغلفة قلوبهم، وأظهرت جحودهم لنعم الله، ونرى بأنهم غيروا أفق التوقع ، فكان لابد لهم أن يحمداوا الله على نعمة الإنجاء، إلا أنهم جحدوا نعمه فكانوا من الخاسرين، وفي هذه الصورة عدة فوائد على مستوى الخطاب البلاغي منها : التعجب من كفرهم وفعلهم؛ إذ لو استمر على خطابهم لفاتت تلك الفائدة، وقيل : لأن الخطاب أولاً كان مع الناس مؤمنهم وكافرهم ، بدليل : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْوَاحِ وَالْبِحْرِ... ﴾ ؛ فلو كان : وجرين بكم للزم الذم للجميع ، فالتفت عن الأول للإشارة إلى اختصاصه بهؤلاء الذين شأنهم ما ذكر عنهم في آخر الآية عدولاً عن الخطاب العام إلى الخطاب الخاص «^(١)» .

ومن التوجيهات الأخرى لهذه الصورة الالتفاتية ما حكاها السيوطي (ت ٩١١ هـ) عن بعض السلف وهو عكس هذا التوجيه قوله : « ورأيت عن

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن : ٣٩٧/١ ، والبرهان في علوم القرآن : ٣١٨/٣ .

بعض السلف في توجيهه عكس ذلك، وهو أن الخطاب أوله خاص وآخره عام، فأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه قال في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجْرَيْنَ فِيهِمْ﴾ قال: ذكر الحديث عنهم ثم حدث عن غيرهم، ولم يقل: وجرين بكم، لأنه قصد أن يجمعهم وغيرهم وجرين بهؤلاء وغيرهم من الخلق»^(١)

ومن الفوائد الأخرى أن هؤلاء القوم وقت الركوب حضروا لأنهم خافوا الهلاك وغلبة الريح، فخاطبهم خطاب الحاضرين، ثم لما جرت الرياح بما تشتهي النفوس، وأمنا الهلاك، لم يبق حضورهم كما كان، على عادة الإنسان أنه إذا أمن غاب قلبه عن ربه، فلما غابوا ذكرهم الله سبحانه وتعالى بصيغة الغيبة^(٢) تحولاً عن الخطاب، وفي الحديث عن الغائبين إيماء للمخاطبين بألا يفعلوا هذا الفعل المستنكر^(٣)، ومن جماليات الصورة الالفتائية في هذا النص التنسيق الرائع والعجيب للتعبير اللغوية على مستوى الإعجاز البنائي للقرآن الكريم والذي تتجسد فيه وجوه الدلالة النفسية وما يعتري الإنسان من نوايا وأفكار متجسدة على أرض الواقع، ومن بلاغة هذه الصورة أنها قبّحت حالهم للمبالغة وحكت سوء صنيعهم^(٤).

إن من محاور الخطاب القرآني الرئيسة- الإنسان والكشف عن حقيقته، وبيان خفاياه، وعرض خيره وشره، وقد ارتاد جوانب الذات البشرية فكشفها

(١) الإتيان في علوم القرآن : ٢٣٧/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٨٠/١ .

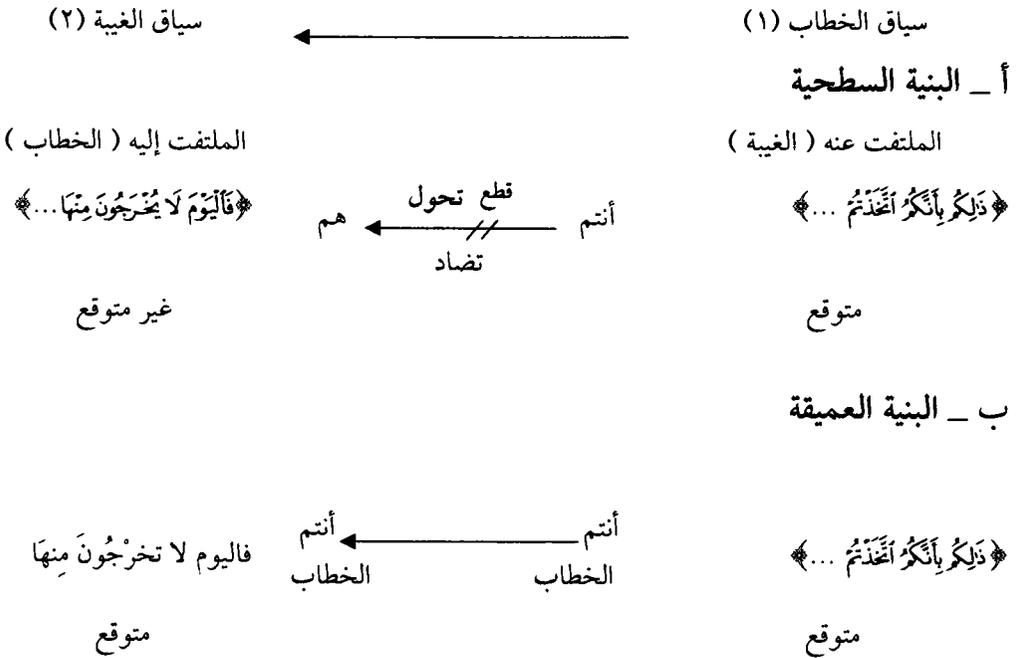
(٣) ينظر : المشاهد في القرآن : ٤٧١ .

(٤) ينظر : روح المعاني : ٩٦/١١ .

أصدق كشف، بأسلوب فني رائع، ونفسي شائق، تنعكس على حياة الإنسان وتنقله إلى عالم متحرك، يلمس على مسرحه مشاهد ونماذج بشرية، تحمل طابع التكرار، وصفة الديمومة في كل آن من الزمن^(١)، ومن النصوص التي تطلعننا في هذا المضممار والتي ترسم أنموذجاً من البشر يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا وَعَرَّضْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

هذا خطاب الله سبحانه وتعالى للذين كفروا بآياته يبين لهم سبب عقابه إياهم، وقد جاء الخطاب عن طريق الصورة الالفتائية المتمثلة بالشكل الآتي:

صيغة الخطاب



شكل البنية

(١) الإعجاز الفني في القرآن : ١٥ .

نرى بأنَّ الله سبحانه وتعالى بيّن في سياق الخطاب سبب عقابه لهذه الفئة من البشر بأن « هذا الذي حلَّ بكم من عذاب الله اليوم (بأنكم) في الدنيا (اتخذتم آيات الله هزوا)»^(١)، وكون الدنيا صارت سبباً في تغريهم مما جعل النار مأواهم^(٢)، لتأتي بعد ذلك بنية التحول للصورة الالتفاتية في سياق الغيبة في قوله تعالى: ﴿ فَأَلْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا ﴾، وقد أدت هذه الصورة بإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانة بهم، أو بنقلهم مقام الخطابة الى غيابة النار^(٣) توبيخاً وتأييساً لهم، لأن الحديث يدور على ما لم يقع أي : في عالم الغيب (يوم القيامة) في سياق الغيبة، ولأن الآخرة لم تقع بعد، كذلك عدم وقوع العذاب عذاب أيضاً، في حين ناسب ضمير الخطاب حال الدنيا، لأن الاستهزاء حاصل في الدنيا وهم أهل دنيا، وكذلك كان صرف الإخبار عنهم إلى مخاطب آخر ينبئ ببقية أمرهم تحقيراً لهم ، لأنهم لا يشكرون نعمة الله عليهم فاستحقوا العقوبة .

وفي موضوع التوحيد وبيان وحدانية الله سبحانه وتعالى وعبادته وحده من دون الآلهة والأوثان، فهذا خطاب الله للناس أجمعين في الحث على عبادته، وأن لا يكونوا فرقا في الدين، وجاء ذلك في قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنبياء: ٩٢ - ٩٣] .

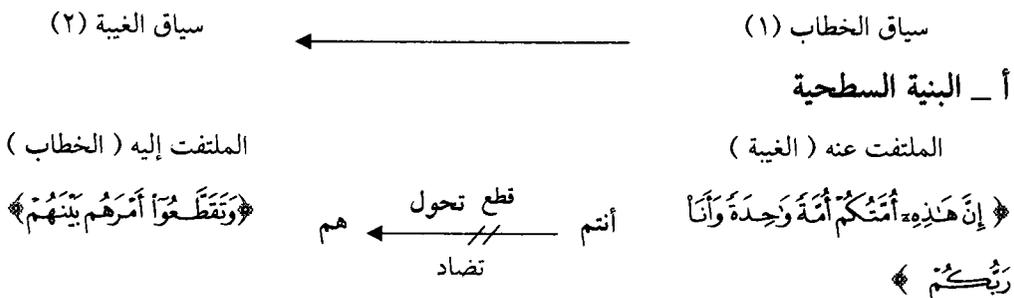
وشكل البنية لهذه الصورة الالتفاتية كالآتي :

(١) ينظر الطبري : ١٨٥/٢٥ .

(٢) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٣٧٦/٢٥ .

(٣) ينظر : روح المعاني : ٢/٢٦ .

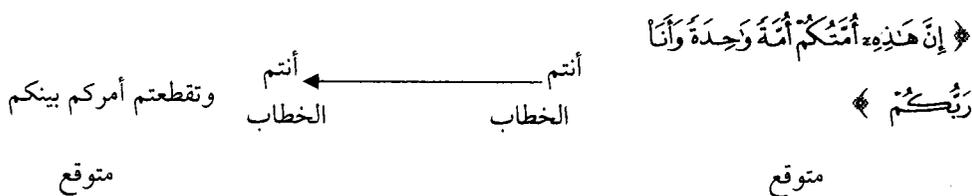
صيغة الخطاب



غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة



شكل البنية

لقد جاء الخطاب مشكلاً بالصورة الالتفائية، فسياق الصورة في طرفها الأول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً ﴾ أي سياق الخطاب، أما طرفها الثاني يمثل بؤرة التحول الالتفائي ونجده في قوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ والذي يمثل سياق الغيبة، والأصل أن يقال : « وتقطعتم » إلا أن النص صُرف إلى الغيبة، ولهذا الانصراف والتحول فوائده على المستوى البلاغي نذكر منها : أن الله سبحانه وتعالى ينعى على هؤلاء ما أفسدوه إلى قوم آخرين ويقبِّح عليهم ما فعلوه، ويقول ألا ترون ما ارتكب هؤلاء في دين الله فجعلوا أمر دينهم

فيما بينهم قطعاً، وهذا مثل لاختلافهم فيه وتباينهم، ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون فهو مجازيهم على ما فعلوه^(١).

ويبين سبحانه أن ملتهم التي يدعوهم إليها ملة واحدة تتابع أولئك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - عليها، وأن ربهم واحد يجب أن يعبدوه، وأنهم انحرفوا عنها فتفرقوا فرقاً كثيرة، وأنه لا بد من يوم يرجعون فيه إليه، فلا ينجو منهم إلا من آمن به وعمل صالحاً^(٢)، « وفي ذلك ذم للاختلاف في الأصول »^(٣) الذي اتضح من خلال العدول في الصورة الالتفائية « إشعاراً بأن الأمة لا تتحد كلمتها إلا إذا اعتصمت بعقيدة التوحيد، فلم تستجب إلا إلى نداء الحق، ولم تحتكم إلا إلى منهج السماء، أما دون ذلك فإنها تتقطع بدداً، وتتناثر أحراباً وشيعاً »^(٤) وقد « وصف نفسه بالربوبية حثاً لهم على عبادته، إذ لا يليق بالعبد الذليل إلا عبادة الرب الجليل »^(٥).

ومن صور الالتفات الأخرى في القرآن الكريم سياق (الخطاب / الغيبة) قول

الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم : ٣٩] .

إن موضوعه هذا النص تتعلق بهبة الثواب، وهو أن يريد الرجل بهديته أكثر منها وهي مكروهة في الإسلام، وأما في حقه ﷺ

(١) ينظر : الفوائد المشوق : ١٠-١٠١ ، والجامع الكبير : ١٠٠ ، والمثل السائر : ١٩١/٢-١٩٢ .

(٢) ينظر : النظم الفني في القرآن : ٢٠٣ .

(٣) روح المعاني : ٩٠/١٧ ، وحاشية الصاوي : ١٣١٧/٤ .

(٤) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : ١٠٤ .

(٥) البديع في ضوء أساليب القرآن ، د. عبد الفتاح لاشين : ٤١ .

لقد جسدت هذه الصورة وفقاً لعملية التحول فائدة بلاغية يمكن إجمالها في أن أولئك دون، فأنتم للتعظيم، كأنه سبحانه خاطب بذلك الملائكة عليهم السلام وخواص الخلق تعريفاً لحالهم^(١)، أو قصداً لعموم الخطاب كأنه قال: من فعل ذلك فأولئك هم المضعفون^(٢).

ومن مشاهد العذاب في القرآن الكريم التي توعد الله سبحانه بها الكفار قوله تعالى: ﴿أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ * وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٍ﴾.

إن هذا النص فيه إشارة إلى ما فعله الله سبحانه وتعالى بالأمم السابقة، أي قبل كفار مكة كقوم نوح وعاد وأضرابهم^(٣) من أشكال العذاب، نتيجة لتكذيبهم الرسل، والخطاب للحاضرين، وأنه يهددهم ويتوعددهم بأنه سينالهم إذا بقوا على تكذيبهم ما نال مكذبي الأمم الذين كانوا قبلهم^(٤).

وترسم صورة التهديد تصويراً حسياً إذ «بينما هم في هذا الأمان على ظهر الأرض الذلول، وفي هذا اليسر الفاضل بإذن الله وأمره.. الآن يهز هذه الأرض الساكنة من تحت أقدامهم هزاً ويرجها رجاً فإذا هي تمور، ويشير الجو من حولهم فإذا هو حاصب يضرب الوجوه والصدور، يهز هذه الأرض في حسهم ويشير هذا الحاصب في تصورهم، ليتتهوا من غفلة الأمان والقرار، ويمدوا بأبصارهم إلى

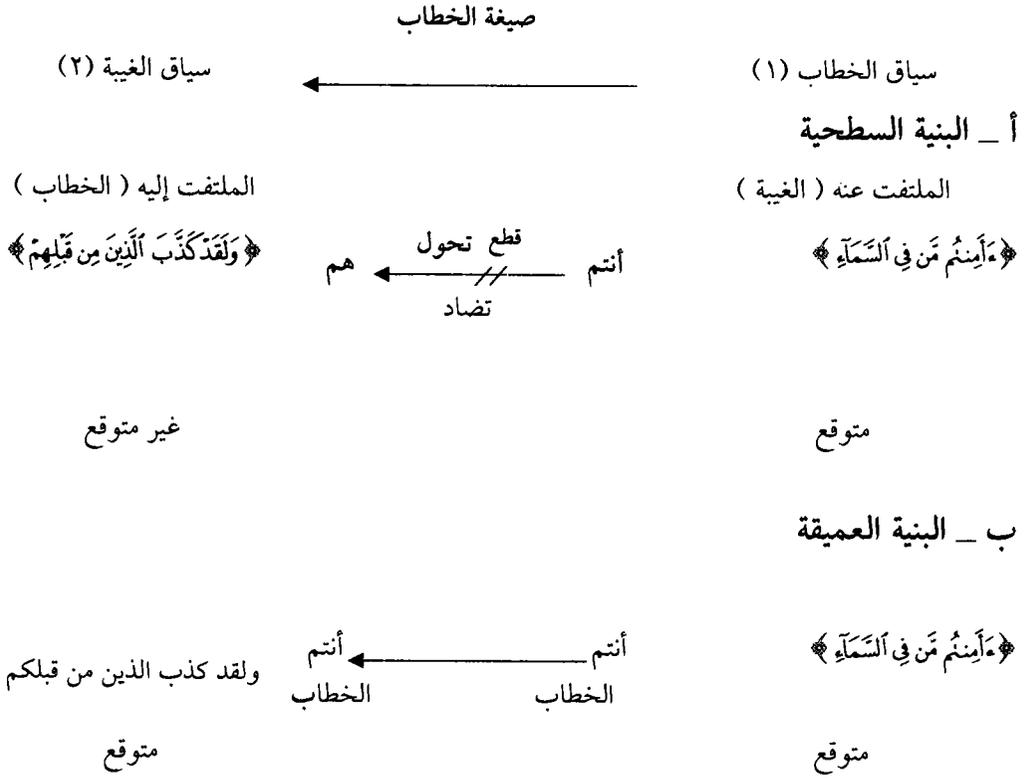
(١) ينظر: روح المعاني: ٤٦/٢١.

(٢) ينظر: حاشية الصاوي: ١٥٨٤/٤.

(٣) ينظر: روح المعاني: ١٧/٢٨.

(٤) ينظر: المشاهد في القرآن: ٤٧٢.

السماء وإلى الغيب، ويعلقوا قلوبهم بقدر الله^(١) وتظهر معالم الصورة الالتفائية في هذا بالشكل الآتي :



شكل البنية

نجد أن سياق الصورة الأول (الخطاب) يبدأ بالاستفهام في قوله تعالى : « أأمنتم » وهو إنكار توبيخي يفيد معنى « ما كان ينبغي أن يكون »^(٢) أي : ما كان منكم أن تكونوا في الأمان والاطمئنان وأنتم تكذبون بالله، وقد تكرر هذا الاستفهام مرتين في سياق الخطاب، وأما بالنسبة لسياق الصورة الثاني الذي يمثل

(١) في ظلال القرآن : ١٩٨/٨ .

(٢) دراسات في البلاغة العربية ، عبد العاطي غريب : ٥٦ ، ودلائل الاعجاز ، عبد القاهر الجرجاني : ٨٩ .

بؤرة الصورة الالتفاتية سياق (الغيبة) يظهر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إذ كان الانزياح من الخطاب إلى الغيبة ، وهو يفيد على مستوى بلاغة الخطاب الإعراض عن هؤلاء الكفار بدلالة قوله أيضاً: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم بإنزال العذاب، أي كان على غاية الهول والفظاعة^(١) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الذي مثل سياق الغيبة فيه تسلية للرسول ﷺ، أي: فلا تحزن على تكذيبهم لك، فقد سبقهم غيرهم بالتكذيب لأنبيائهم^(٢)، والمراد بقوله تعالى في السياق نفسه من كلمة «تمور» «أي: تضطرب وتدور وترتج ارتجاجاً يأتي عليكم كأن لم تكونوا شيئاً مذكوراً»^(٣) وكلمة «أم» تفيد الإضراب، كأن الله جل شأنه أضرب عن الوعيد بالخسف إلى الوعيد بإرسال حاصب على الكفار، والحاصب حجارة من السماء، أو ريح فيها حجارة وحصباء وهي الحصى الصغار، والمراد بـ «السماء» في الآيتين وصف العلو المعنوي وما يتصل به من القدرة والقهر والعظمة، وقد ذكر الخسف أولاً لمناسبة ذكره الأرض قبل ذلك وجعلها ذلولاً للإنسان يمشي في مناكبها، ثم ذكر الحاصب ثانياً في مقابلة الامتان الذي ذكره بعد تذليل الأرض بإسداء الرزق إلى الإنسان .

(١) روح المعاني: ١٧/٢٨ .

(٢) حاشية الصاوي: ٢٢٠٤-٢٢٠٥ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٣٦٤/٥ .

(٣) سورة الرحمن وسور قصار(عرض ودراسة) ، شوقي ضيف : ٢٠٧-٢٠٨ .

أنموذج الضمائر (سياق الخطاب / الغيبة)

الآيات	السور	الملفت إليه الغيبة	الملفت عنه الخطاب	الشاهد القرآني	ت
٥٧	البقرة	هم	أنتم	﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا...﴾	١
٦١	البقرة	هم	أنتم	﴿اهْبِطُوا بَعْضًا... وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ﴾	٢
٨٨-٨٧	البقرة	هم	أنتم	﴿أَفَكُلَّمَا حَاءَ كُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ... وَقَالُوا أَقْلُوبُنَا غُلْفٌ...﴾	٣
١٢٣	البقرة	هم	أنتم	﴿وَأَنْقُضُوا يَوْمَ مَا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾	٤
١٤٣	البقرة	هو	أنت	﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَبْتَغِ الرُّسُولَ...﴾	٥
١٠-٢٠٩	البقرة	هم	أنتم	﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * هَلْ يَنْظُرُونَ...﴾	٦

أنموذج الضمائر (سياق الخطاب / الغيبة)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه الخطاب	الملفت إليه الغيبة	السور	الآيات
٧	﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ ... إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ أَلَيْعَكَ ﴾	أنت	هو	آل عمران	٩
٨	﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾	أنتم	هو	النساء	٦٤
٩	﴿ آيِنَمَا تَكُونُوا يَذُرْكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ... ﴾	أنتم	هم	النساء	٧٨
١٠	﴿ فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَنقَبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾	أنتم	هم	الأنعام	١٣٥
١١	﴿ يَبْنَىءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُونُ ... لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾	أنتم	هم	الأعراف	٢٦
١٢	﴿ لَقَدْ أَنْفَلْنَاكُمْ رَسُولَنَا نَبِيًّا وَصَحَّحْنَا لَكُمْ فَكَيْفَ ءَأَسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾	أنتم	هم	الأعراف	٩٣

أنموذج الضمائر (سياق الخطاب / الغيبة)

الآيات	السور	الملفت إليه الغيبة	الملفت عنه الخطاب	الشاهد القرآني	ت
١	الأنفال	هو	أنت	﴿سَتَلُونَكُمْ عَنِ الْآنْفَالِ قَوْلَ الْآنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾	١١
٢	التوبة	هم	أنتم	﴿وَأَعْلَمُوا أَنكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾	١١
٢٦-٢٥	التوبة	هم	أنتم	﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْحَضَكُمْ كَثْرَتُكُمْ ... ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾	١١
٥-٤	هود	هم	أنتم	﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ﴾	١١
٢١-١٩	إبراهيم	هم	أنتم	﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ... وَيَبْرَأُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾	١١
٣٨	إبراهيم	هو	أنت	﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ﴾	١١
١٩	الرعد	هم	أنتم	﴿أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ... أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾	١٩

أمودج الضمائر (سباق الؤطاب / الغيبة)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه الخطاب	الملفت إليه الغيبة	السور	الآيات
٢٠	﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّيَالِ بُيُوتًا ... يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا ﴾	أنت	هي	النحل	٩-٦٨
٢١	﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفِيَا بَاطِلٍ يُؤْمِنُونَ ﴾	أتم	هم	النحل	٧٢
٢٢	﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ... فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾	أتم	هم	النحل	٢-٨١
٢٣	﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عَدَاؤَنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾	أتم	هم	الإسراء	٨
٢٤	﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ... وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾	أنت	هو	الإسراء	٤-٦٣
٢٥	﴿ يَسْحَبِ حُدُودَ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَأَنَّى لَهُ الْحُكْمَ صَبِيرًا ﴾	أنت	هو	مريم	١٢
٢٦	﴿ قُلْ مَنْ يَكْفُرْ بِكُفْرَانٍ يَأْتِيهِ مِنَ النَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلَدُهُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾	أتم	هم	الأنبياء	٤٢

أنموذج الضمائر (سياق الخطاب / الغيبة)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه الخطاب	الملتفت إليه الغيبة	السور	الآيات
٢	﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ ﴾	أنت	هو	الأنبياء	١١٢
٢	﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ مِّمَّنْ أُوتِيَتْ كِتَابًا لَّيُبَيِّنَ لَكُمْ آيَاتِهِ وَيُخْبِرَكُمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَبِحُكْمِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَوْلَىٰ الصَّالِحِينَ ﴾	أنتم	هم	المؤمنون	٥٢-٥٣
٢	﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ ﴾	أنتم	هم	النور	١٢
٣	﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾	أنتم	هم	النور	٥٤
٣	﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾	أنتم	هم	النور	٦٤
٣	﴿ وَلَا تُخْفِي بِيَوْمٍ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾	أنت	هو	الشعراء	٨٧-٨٩
٣	﴿ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمًا أَمَّا ذٰلِكَ فَكُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾	أنتم	هم	النمل	٨٤-٨٥
٣	﴿ وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ... * أَوْلَمْ يَرَوْا ... ﴾	أنتم	هم	العنكبوت	١٨-١٩
٣	﴿ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا ... ﴾	أنتم	هم	الروم	٣٤-٣٥

أنموذج الضمائر (سياق الخطاب / الغيبة)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه الخطاب	الملفت إليه الغيبة	السور	الآيات
٣٦	﴿وَبَنَاتٍ خَالَكَ وَبَنَاتٍ خَلَّيْنَاكَ... وَأَمْرَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾	أنت	هو	الأحزاب	٥٠
٣٧	﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ... * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ...﴾	أنتم	هم	فصلت	٩-١٣
٣٨	﴿إِنْ كُنْتُمْ آيَاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا...﴾	أنتم	هم	فصلت	٣٧-٣٨
٣٩	﴿يَتَعَادَى خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ... * الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾	أنتم	هم	الزخرف	٦٨-١٩
٤٠	﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ...﴾	أنتم	هم	الزخرف	٧٠-٧١
٤١	﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ * أَمْ آتَيْتُمُوهُمْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾	أنتم	هم	الزخرف	٧٨-٧٩
٤٢	﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا... فَأَلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا...﴾	أنتم	هم	الجمانية	٣٥

أنموذج الضمائر (سياق الخطاب / الغيبة)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه الخطاب	الملفت إليه الغيبة	السور	الآيات
٤	﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ... * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ... ﴾	أنتم	هم	محمد	٢٣-٢٢
٤	﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾	أنتم	هم	الفتح	٢٠
٤	﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ ... هُمْ الرّٰشِدُونَ ﴾	أنتم	هم	الحجرات	٧
٤	﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ... هُمْ مَا بَشَأُؤْنَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾	أنتم	هم	ق	٣٥-٣٢
٤	﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَكِبِينَ عَلَىٰ سُرُورٍ مَّصْفُوفَةٍ يُحَوِّرُ عَيْنَ ﴾	أنتم	هم	الطور	٢٠-١٩
٤	﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُهَا ... إِنْ يَنْبَغُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾	أنتم	هم	النجم	٢٣
٤	﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * هَذَا نُرْتُمُّكُمْ يَوْمَ الَّذِينَ ﴾	أنتم	هم	الواقعة	٥٦-٥١
٥	﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَهَوْا ... وَيَنْجِبُونَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ... ﴾	أنت	هو	المجادلة	٨

أنموذج الضمائر (سياق الخطاب / الغيبة)

الآيات	السور	الملفت إليه الغيبة	الملفت عنه الخطاب	الشاهد القرآني	ت
١١-٩	الجمعة	هم	أنتم	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَوَدَّى لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ... * وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَنْقَضُوا إِلَيْهَا ... ﴾	٥١
٢١	الملك	هم	أنتم	﴿ أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْفُقُ إِنْ أَمَسَكَ رِزْقُهُ بَلْ لِخَوَافٍ عَتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾	٥٢
٢٨	الملك	هم	أنتم	﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ ﴾	٥٣
٣٤-٢٩	المرسلات	هم	أنتم	﴿ أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾	٥٤
١٠-٩	العلق	هو	أنت	﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾	٥٥

المبحث الثاني

سياقات التحول

سياق الغيبة/التكلم

سياق التكلم/الغيبة

١ - سياق الغيبة / التكلم :

تعد بنية التنوع في سياقات الخطاب الأساس الذي تقوم عليه الصورة الالتفاتية، ويرى عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) أن لهذا التنوع أثره في الدلالة البلاغية بقوله: « لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتهما، فإن قلت: فإذا أفادت هذه ما لا تفيد تلك فليستا عبارتين في معنى واحد، بل هما عبارتان عن معنيين اثنين»^(١).

لهذا نجد في هذا المبحث تنوعاً في سياقات الصورة الالتفاتية (نمط الضمائر) وأول سياقات هذا المبحث (سياق الغيبة/التكلم) ونعاين هذا السياق في نصوص القرآن الكريم لنرصد الأثر البلاغي والدلالي الناتج عنه، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالزُّمَانُ مِثْلَهَا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩] .

(١) دلائل الإعجاز .

إن هذه الآية وغيرها من آيات (سورة الأنعام) وهي إحدى السور المكية تعالج في مجملها القضايا الأساسية في العقيدة الإسلامية وعلى رأسها قضية التوحيد ، والآيات تعالج هذه القضية بأسلوب متميز، يعتمد على تقرير طائفة من بعض الحقائق الكونية الملموسة، وتسوقها في أسلوب تلقيني يكشف عن الحقيقة الخالصة، ليملاها العقل البشري ويتدبر دلالتها التي تتجلى من ورائها قدرة المبدع وتقديره وتدبيره، ويستقبلها أيضاً الوجدان ليستشف وحيها، وما تلقيه في النفس من نور يهدي البصيرة، ويأخذ بزمام النفس بكل قواها نحو الحق المبين^(١) ومن هذه الحقائق الكونية الواردة في هذا النص قضية إنزال الماء من السماء، وهذه نعمة أنعمها الله سبحانه على عباده، وهي منبئة عن كمال قدرته تعالى وسعة كرمه^(٢) .

وهذا ما نجده في سياق الصورة الأولى (الغيبية) في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ وتأتي الصورة الالفتائية في نسقها البنائي التحويلي والذي يمثل طرف الصورة الثاني (التكلم) ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ لبيان بلاغة وعظم كمال هذه القدرة المختصة بالخالق سبحانه وتدبيره لشؤون خلقه، وإظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله، إشارة إلى أن نعمه عظيمة^(٣) . ويمكننا أن نبين شكل البنية لهذا النص بالآتي :

(١) ينظر : أسلوب الدعوة القرآنية ، عبد الغني سعيد بركة : ١٨٠ .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٣ / ٢٢٣ .

(٣) ينظر : حاشية الصاوي : ٦١١/٢ .

صيغة الخطاب

سياق التكلم (٢)

سياق الغيبة (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت إليه (التكلم)

الملتفت عنه (الغيبة)

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ بُنَاتَ ﴾

هو ← قطع نحول // نحن
تضاد

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

فأخرج به بُنَاتَ

هو ← هو
الغيبة الغيبة

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

ومن النصوص القرآنية التي جاءت بطريق الصورة الالتفاتية قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ [المائدة : ١٢]

إن هذا النص يعرض مقطعاً من حكاية بني إسرائيل مع نبيهم موسى (عليه السلام) فقد « نُقِلَ أن الله تعالى أمر موسى وقومه بالسير إلى الأرض المقدسة، وكان يسكنها الجبارون، فقال تعالى : يا موسى اخرج إليها وجاهد من فيها من العدو، وخذ من قومك اثني عشر نقيباً، من كل سبط نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بما أمروا به فاختراروا النقباء »^(١) وهذا الخطاب « مسوق لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله تعالى

(١) زاد المسير في علم التفسير ، ابن الجوزي : ٣١١/٢-٣١٢ .

ومراعاة حق الميثاق وتحذيرهم من نقضه»^(١) ، والميثاق هو ما أخذ بعقد مؤكد يمين وعهد^(٢) وكان سياق الخطاب المتوقع بأن يقال: «أخذ الله ← بعث» إلا أن سياق الخطاب القرآني المعجز فعّل الدلالة من خلال مخالفة سياق اللغة الطبيعي لبلاغة اقتضاها مقام التواصل ، فإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتفخيم الميثاق^(٣) بوصفه أمر عظيم وأجره جسيم، ونقضه فيه الوبال الكبير^(٤) .

وتتضح الصورة الالتفافية لهذا النص من خلال شكل البنية المبين في أدناه :

صيغة الخطاب

سياق التكلم (٢)

سياق الغيبة (١)

أ _ البنية السطحية

الملفت عنه (الغيبة)

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

﴿ إِسْرَائِيلَ ﴾

متوقع

هو / قطع نحول / نحن
تضاد

الملفت إليه (التكلم)

﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾

﴿ نَقِيبًا ﴾

غير متوقع

ب _ البنية العميقة

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

﴿ إِسْرَائِيلَ ﴾

متوقع

هو / هو / الغيبة / الغيبة

وبعث منهم اثني عشر نقيباً

متوقع

شكل البنية

(١) روح المعاني : ٨٥/٦ .

(٢) ينظر : الغريب في مفردات القرآن ، الراغب الأصفهاني : ٥٢٧ .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم : ١٤/٣ .

(٤) ينظر : حاشية الصاوي : ٤٨٢/٢ .

إن الصورة الالفتائية تشكل خاصية تعبيرية تتميز بطاقتها الإيحائية من حيث اعتمادها على الانزياح الأسلوبي من أسلوب إلى آخر من أغراض الكلام ، وأشكال الخطاب في النص الأدبي، وقد أدرك النقاد أهمية هذه الصورة في ربط النص والمتلقي معاً من خلال الإيحاءات الفنية في كثير من الأحيان على النص ، مما يساعد على شد انتباه المتلقي وتفعيل دوره في التفاعل مع النص الأدبي^(١) .

ويطالعنا نص آخر وصورة الفتائية أخرى تدور موضوعاتها حول توحيد الله سبحانه وتعالى ضمن سياق (الغيبة/ التكلم) أيضاً ، وذلك ماثل في قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ ﴾ [النحل : ٥١] .

لقد قيل : إن سبب نزول هذا النص « أن رجلاً من المسلمين دعا الله في صلاته، ودعا الرحمن ، فقال رجل من المشركين : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً، فما بال هذا يدعو ربين اثنين »^(٢) ، فجاء هذا النص لبيان توحيد الله سبحانه عن أي معبود سواه، وكان هناك نوع آخر من الشرك تقلدته قبائل العرب وهو الإشراك بالهين : إله للخير وآخر للشر، وكانت هذه القبائل مجاورة لبلاد فارس^(٣) .

وجاءت صيغة التثنية في قوله تعالى : « اثنين » ضمن سياق الصورة الأول (الغيبة) « للدلالة على أن الاثنينية مقصودة بالنهاي إبطالاً لشرك مخصوص من إشراك المشركين، وأن لا اكتفاء بالنهاي عن تعدد الإله بل المقصود النهي عن

(١) ينظر : ظواهر أسلوبية في كتاب جوهر الكنز لابن الأثير ، محمود درابسة ، مجلة أبحاث اليرموك ، مجلد (١٧) عدد (١) السنة (١٩٩٩) : ١٨٥-١٨٦ .

(٢) زاد المسير : ٤٥٥/٤ .

(٣) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ١٧١/١٥ .

التعدد الخاص وهو قول المجوس بإلهين^(١)، لذلك ردّ القرآن الكريم على فكرة الثنائية في العبادة التي دان بها هؤلاء المجوس، وقد ذكر العدد مع أن المعدود يدل عليه دلالة على أن مساق النهي إليه، أو إيماء بأن هذه الاثنينية تنافي الألوهية^(٢)، وأنّ هذا التأكيد بإيراد الصفة لغرض رفع الإبهام، « فان إلهين للثنائية فائنين بعده صفة مؤكدة للنهي عن الإشراك، ولإفادة أن النهي عن اتخاذ إلهين إنما هو لمحض كونهما اثنين فقط لا لمعنى آخر من كونهما عاجزين أو غير ذلك، ولأن الوحدة تطلق ويراد بها النوعية كقوله ﷺ: « إنما نحن بنو المطلب شيء واحد » وتطلق ويراد بها نفي العدة، فالثنائية باعتبارها، فلو قيل: لا تتخذوا إلهين، فقط لتوهم أنه نهى عن اتخاذ جنس آلهة، وإن جاز أن يتخذ من نوع واحد آلهة، ولهذا أكد بالواحدة^(٣) وذلك متجسد في قوله: ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ﴾.

وقد جاء التحول في بنية النص من سياق (الغيبة) في قوله: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ ... ﴾ إلى سياق (التكلم) في قوله تعالى: ﴿ فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ ﴾ والأصل « فإياه » والرهبنة تعني المخافة مع تحزر واضطراب^(٤)، أن مجيء هذا الدال « فارهبون » في إطار بنية التكلم للصورة الالتفاتية لفائدة بلاغية، وهي تتجسد في تربية « المهابة وإلقاء الرهبة في القلوب^(٥) »، لأنه أبلغ في التخويف^(٦)، فلا يقدموا على الإشراك بالله سبحانه وتعالى.

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١٧١/١٥-١٧٢.

(٢) ينظر: المشاهد في القرآن: ٢٢٤.

(٣) الإتيان في علوم القرآن: ١٩٢/٢-١٩٣.

(٤) ينظر: الغريب في مفردات القرآن: ٢٠٩-٢١٠.

(٥) إرشاد العقل السليم: ١١٩/٥.

(٦) ينظر: حاشية الصاوي: ١٠٧٢/٣.

ونلاحظ شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :

صيغة الخطاب

سياق الغيبة (١)

أ _ البنية السطحية

الملفت عنه (الغيبة)

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا نَتَّخِذُ... ﴾

هو $\xleftarrow{\text{قطع تحول}}$ أنا
تضاد

متوقع

ب _ البنية العميقة

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا نَتَّخِذُ... ﴾

هو $\xleftarrow{\text{الغيبة}}$ هو
الغيبة

متوقع

فَأَيُّهَا فَارْهَبُونِ

غير متوقع

متوقع

شكل البنية

وفي سياق إظهار قدرة الله سبحانه وتعالى على بيان صدق بعثه رسوله ﷺ تأتي معجزة الإسراء والمعراج، وذلك في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١] .

ويتخذ شكل البنية للصورة الالتفاتية في هذا النص بالآتي :

صيغة الخطاب

سياق التكلم (٢)

سياق الغيبة (١)

أ _ البنية السطحية

الملفت إليه (التكلم)

الملفت عنه (الغيبة)

﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾

هو $\xrightarrow{\text{قطع تحول}}$ نحن
تضاد

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

الذي بَارَك حوله

هو $\xrightarrow{\text{هو}}$ هو
الغيبة الغيبة

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

إن مطلع هذا النص الذي يقع في سياق الصورة الأول (الغيبة) تفجر طاقة إيحائية كبيرة، وهي متمثلة في قوله تعالى : « سبحان » لما تحدثه في المتلقي من التعجب من الخبر المتحدث عنه، لأن وظيفة هذا اللفظ على مستوى اللغة والدلالة : التعجب، فهو يؤذن بأن خيراً عجبياً يستقبله السامعون دالاً على عظيم القدرة من المتكلم ورفيع منزلة المتحدث عنه^(١).

(١) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٩/١٥ .

وفيه صدق على دعوته ﷺ ما لا قبل للكفار بإنكاره، فقد كان إسراؤه إطلاعاً على غائب من الأرض، وهو أفضل مكان بعد المسجد الحرام^(١)، فكان اختيار لفظ « سبحان » خير دليل على عظم الحدث والمعجزة، فهو اختيار دقيق لمعنى دقيق، ولفظ (سبحان) « اسم علم لتسبيح الله وتنزيهه، فمعنى سبحان الله : أسبح الله سبحانه والمقصود التقديس والتنزيه عن السوء في الذات والصفات والأفعال والأسماء والأحكام، أي : ما أعبد الذي له هذه الصفات عن جميع النقائص »^(٢) ويقول الجرجاني (٤٧١ هـ) في مسألة تمايز اللفظ عن المعنى : « إنه لا يتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وأنت تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك أتبعته الألفاظ وقفوت بها آثارها، وإنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى ان تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولا حقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس ، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق »^(٣) .

ويأتي سياق التحول في الصورة (التكلم) لمقصدية بلاغية تتجسد في تعظيم المسجد الأقصى، وتعظيم شأن ما يُري الله من آياته^(٤)، وفيه من « الإيماء إلى أن النبي ﷺ عند حلوله بالمسجد الأقصى قد انتقل من مقام الاستدلال على عالم

(١) ينظر : المصدر نفسه : ١٩/١٥ .

(٢) تفسير سورة الإسراء ، د. عبد الله محمود شحاتة : ٢١ .

(٣) دلائل الاعجاز : ٤٣ .

(٤) ينظر : بلاغة الكلمة والجملة والجميل ، منير سلطان : ١١٠ .

الغيب إلى مقام مصيره في عالم المشاهدة»^(١) ، ومن بلاغة هذا الخطاب أيضاً «التنبية على التخصيص بالقدرة، وأنه لا يدخل تحت قدرة أحد»^(٢) .

إنّ الهدف من دراسة الصورة الالفتاتية في القرآن الكريم هو معرفة المكونات الدلالية الأساسية للخطاب، ولتحقيق هذا الهدف، لابد من استغلال تقنيات التركيب اللغوية التي تؤدي إلى تماسك وانسجام النص والدلالة التي تتيحها بنية الصورة الالفتاتية ، ومن المواطن القرآنية للصورة الالفتاتية سياق (الغيبة/التكلم) التي تدور موضوعاتها حول خطاب النفس بأنها النفس المؤمنة وذلك في قوله جل شأنه : ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً * فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] .

فقد جاء العدول في معرض وصف مشاهد القيامة في حالة الحساب، فإنه سبحانه وتعالى « لما استوعب ما اقتضاه المقام من الوعيد والتهديد والإنذار ختم الكلام بالبشارة للمؤمنين الذين تذكروا بالقرآن واتبعوا هديه، على عادة القرآن في تعقيب النذارة بالبشارة والعكس، فإن ذلك يزيد رغبة الناس في فعل الخير ورهبتهم من أفعال الشر»^(٣)، ونجد في سياق الصورة الأول (الغيبة) وبالتحديد في مفتتح النص بروز وحدة لغوية أسهمت في تفعيل بلاغة الخطاب وهي النداء بالأداة (يا) ويكون النداء لطلب إقبال المدعو ليصغي إلى أمر ذي بال، ولذا غلب أن يلي النداء أمر أو نهى^(٤) ، وهذا ما نجده في قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجِي...﴾ وقد

(١) التحرير والتنوير : ١٢/١٥ .

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن : ٣٨١/١ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير : ٣٤٠/٣٠ .

(٤) ينظر : من بلاغة القرآن : ١٦٨ .

أتبع المنادى الموجه إليه النداء وهو « النفس » وصفتها « المطمئنة » بأفعال الأمر في قوله تعالى : « ارجعي ، أدخلي » فالخطاب للنفس المؤمنة بدلالة صفتها « المطمئنة » في حالة رجوعها إلى ربها يوم القيامة ولفظ « الرجوع » هنا يكون على سبيل الاستعارة ، فالرجوع إلى الله « مستعار للكون من نعيم الجنة التي هي دار الكرامة عند الله بمنزلة دار المضيف »^(١) ، ويوحي لفظ « الرب » برعاية الخالق لعباده ، وبأنه مدبر لشؤونهم ، ولولاه لما استطاعوا أن ينظموا حياتهم وفقاً لشريعته ورضاه من خلال العمل بالقرآن الذي هو حلقة الوصل بالخالق من حيث علاقة الخلق والتنظيم ، فالنفس المؤمنة لا تحتاج إلى غير ربها ، ولا تحتاج إلى فكر غير القرآن كمنهج للحياة ، وهكذا في عطف ولطف « يا أيها » وفي روحانية وتكريم « يا أيها النفس » « المطمئنة » في وسط هذا الروع « ارجعي إلى ربك » بما بينك وبينه من صلة « راضية مرضية » بهذا الانسجام الذي يغمر الجو كله بالرضى والتعاطف « فادخلي في عبادي » ممتزجة بهم متوادة معهم^(٢) ، فإذا بالنص في سياق التحول (التكلم) لتتشكل الصورة الالتفاتية في قوله تعالى :

﴿ فِي عِبَادِي ... ﴾ إذ انتقل الخطاب من الغيبة إلى التكلم .

ونكتة هذه الصورة البلاغية في تخصيص الله سبحانه للخطاب بعبادة الصالحين^(٣) بقوله تعالى : ﴿ فِي عِبَادِي ﴾ وتخصيص الجنة بالله سبحانه لأنه هو خالقها وهي جنته أَعَدَّهَا لِلْمُؤْمِنِينَ في قوله تبارك وتعالى ﴿ وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ﴾ ، ويمكن بيان شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :

(١) تفسير التحرير والتنوير : ٣/٣٤١ .

(٢) ينظر : التصوير الفني في القرآن : ٨٣ .

(٣) ينظر : التفسير البياني للقرآن الكريم ، د. عائشة عبد الرحمن : ١٦٥/٢ .

صيغة الخطاب

سياق التكلم (٢)

سياق الغيبة (١)

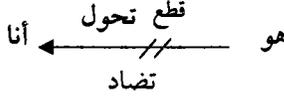
أ _ البنية السطحية



الملفت إليه (التكلم)

الملفت عنه (الغيبة)

﴿ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾



﴿ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ ... ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

فادخلي في عباده



﴿ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ ... ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

« ففي هذه المشاهدة المفزعة التي تتابع فيها معاني القوة والضعف من ذلك الجبال وتحطيمها، والشهود والملائكة وجهنم المهياة لتعذيب المجرمين، خلال هذه المشاهدة المفزعة تتاب صورة المؤمنين المطمئنة غير آبهة بالفزع حولها، وإنما تسير بثقة ورضى الله لتلقى الثواب والجنة ونعيمها »^(١)، ويعدُّ « التصوير » من السمات البارزة في عرض مشاهد الكون في القرآن الكريم « فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخلية عن المعنى الذهني، والحالة النفسية ؛ والحادث المحسوس، والمشهد المنظور؛ وعن النموذج الإنساني والطبيعة

(١) التعبيرات القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة ، ابتسام مرهون الصفار : ١٦٥ .

البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة»^(١).

ومن النصوص القرآنية التي جاءت بطريق التصوير الفني متضمنة الصورة الالتفائية قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْفِقُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩] ، لقد قدم القرآن الكريم بأسلوب التصوير للمعارضين في البعث حججه الفاصلة في صورة مختلفة، وطرق متنوعة تدور كلها حول محور واحد، وهو إثبات قدرة الله الباهرة في الإنسان والكون، فالإنسان وتعاقبه في الخلق وتحوله من حال إلى حال ، والأرض وما تخرجه من نبات كل ذلك آية من آيات قدرته^(٢)، فالقرآن الكريم يصور الأرض « كالناسك المتعبد الخاشع، يسوده جلال وهيبة، وهذا يعطي الأرض صفة الخنوع والتذلل لربها، إن قوة التصوير عن طريق التجسيد الحسي الذي تقوم به هذه اللفظة تضع الصورة مجسمة أمام العين الباصرة، هذا الخشوع والسكون سرعان ما يتحولان إلى حركة مثيرة تهز النفس، وهذا التحويل تم عن طريق لفظتين « أهتزت و ربت » .. إن هاتين اللفظتين تعرضان صورة حية عن الأرض، بعد أن كانت هامدة ميتة، فينبعث فيها نفس الحياة وتهتز المخيلة لتدرك دقة هذا التصوير الحركي وأبعاده^(٣) الدلالية، لقد جرى هذا التصوير في سياق الصورة الالتفائية التي تتجسد أطرافها في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الذي يمثل سياق الغيبة وطرف الصورة الأول، في حين نجد سياق التحول في الصورة

(١) التصوير الفني في القرآن : ٣٩ .

(٢) ينظر : المشاهد في القرآن : ٢٤٤ .

(٣) ينظر : الإعجاز الفني في القرآن : ٨٩ .

الالتفاتية في قوله : « أنزلنا » الذي يمثل طرف الصورة الثاني (التكلم)، وكان الأصل أن يقال : « أنزل » إلا أن النص التفت عن لغة الخطاب الأصلية لغرض بلاغي يتعلق ببيان قدرة الله سبحانه على نقل سكون الأرض إلى حالة الحركة الحية، فكان الضمير (نا) للمتكلم فاعلية السياقية لبيان قدرته على إحياء الأرض بعد موتها، كذلك هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها^(١).

« ويجوز أن يكون في الكلام استعارة تمثيلية شبه حال جدوبة الأرض وخلوها عن النبات، ثم إحياء الله تعالى إياها بالمطر وانقلابها من الجدوبة إلى الخصب وإنبات كل زوج بهيج، بحال شخص كئيب كاسف البال رث الهيئة لا يؤبه له، ثم إذا أصابه من متاع الدنيا وزيتها تكلف بأنواع الزينة والزخارف، فيختار في مشيه زهواً فيهتز بالأعطاف خيلاء وكبراً، فحذف المشبه واستعمل الخشوع والاهتزاز دلالة على مكانه، ورجح اعتبار التمثيل^(٢)، وفي قوله تعالى : ﴿ أَهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ ﴾ معنى الحركة أي : « تحركت حركة عظيمة شديدة بسرعة، وارتفع ترابها وعلا^(٣)، وفي هذا النص القرآني يأخذنا معنى آخر؛ وقد جعل الأول سبباً إليه^(٤)، فبينما يدل الله سبحانه على نفسه بإنزال الغيث واهتزاز الأرض بعد خشوعها قال : ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُعْنَى الْمَوْقِ ﴾ فأخبر عن قدرته على إعادة الموتى بعد إفنائها وإحيائها بعد إرجائها، وقد جعل ما تقدم من ذكر الغيث والنبات دليلاً عليه، ولم يكن في تقدير السامع الأول الكلام، إلا أنه يريد الدلالة

(١) ينظر : التفسير الكبير : ١١٣/٢٧ .

(٢) روح المعاني : ٢٦/٢٤ .

(٣) حاشية الصاوي : ١٨٥٤/٥ .

(٤) ينظر : كتاب الصناعتين : ٣٩٨ .

« تمثل لوحة فنية تلتقي في تكثيف الدلالة الفكرية التي يرمي إليها القرآن، وهي إثبات أصل مهم من أصول الإيمان، وركن من أركان الدين الحنيف، وهو إثبات فكرة وحقيقة البعث والنشور في اليوم الآخر بعد الموتة الأولى في الحياة الدنيا، ولا شك أنها فكرة عظيمة وخطيرة لأنها من الأفكار الغيبية عن مدارك الإنسان، وأنها تترتب عليها أركان الإيمان وأصوله، لذلك نجد أن الخطاب القرآني لخطورة هذه الفكرة وعظمتها يعمد في تقريبها وإثباتها بصور وأدلة حسية قريبة إلى الفكر الإنساني، فيعمد إلى التصوير الاستعاري التشخيصي في قوله « خاشعة »^(١) .

وفيما يخص بعث الله سبحانه وتعالى الأنبياء والرسل بالشرائع الدينية التي أقامها في الناس، هناك مجموعة شرائع تسلسلت عبر ممدد من خلق الإنسان لبيان التكاليف والأحكام الموكلة إلى هذا المخلوق، وقد جاءت آيات القرآن موضحة ذلك ومختلطة الزمن في طياته لتذكر بأهم هذه الشرائع متخللة الصورة الالتفائية وذلك في قوله عز وجل : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٣] .

هذا خطاب الله سبحانه للناس بأنه شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً أن يعمل به والذي أوحينا إليك يا محمد ﷺ ، وشرع لكم من الدين أيضاً ما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى (عليهم السلام) أن أقيموا الدين^(٢)، وبالإجمال فإن

(١) الاستعارة في القرآن : ٢٢٣ .

(٢) ينظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٢٠/٢٥ .

المقصود من هذا النص أنه يقال : شرع لكم من الدين ديناً تطابقت الأنبياء على صحته، إلا أنه دين مغاير للتكاليف والأحكام، وذلك لأنها مختلفة متفاوتة قال تعالى : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة : ٤٨].

يجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا تختلف باختلاف الشرائع، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر^(١)، كما أن تخصيص المذكورين بالذكر لما أشير إليه من علو شأنهم وعظيم شهرتهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إلى الاتباع لاتفاق كل على نبوة بعضهم، واختصاص اليهود بموسى عليه السلام والنصارى بعمسى عليه السلام وإلا فما من نبي إلا وهو مأمور بما أمروا به، من إقامة دين الإسلام وهو التوحيد، وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدل الأعصار من أصول الشرائع والأحكام بدلالة فعل التوصية فإنه معرب عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن المأمور به، والمراد بإيحاؤه إليه ﷺ^(٢)، وهذا الحقل الدلالي هو بؤرة المعنى الدلالي للصورة الالتفافية الكامنة في قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ الذي يجسد طرف الصورة الأول (الغيبية) وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا...﴾ وهو طرف الصورة الثاني التحويلي (التكلم) ، فالالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناء بإيحاؤه، وفي ذلك إشعار على مستوى سلم الشرائع بأن شريعته ﷺ هي الشريعة المعنى بها غاية الاعتناء، ولذا عبر فيها بـ (الذي) التي هي أصل الموصولات، وذلك هو السر في تقديم الذي أوحى إليه

(١) التفسير الكبير : ١٣٤/٢٧ - ١٣٥ .

(٢) روح المعاني : ٢٥/٢٠ - ٢٢ .

(عليه الصلاة والسلام) على ما بعده مع تقدمهم عليهم زماناً ، وتقديم توصية نوح (عليه السلام) للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً^(١) .

ويمكننا أن نبين شكل البنية لهذه الصورة الالتفافية بالآتي :

صيغة الخطاب

سياق التكلم (٢)

سياق الغيبة (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت عنه (الغيبة)

الملتفت إليه (التكلم)

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا... ﴾

هو ← قطع تحول // نحن
تضاد

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى... ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

والذي أوحى إليك

هو ← هو
الغيبة الغيبة

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى... ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

(١) روح المعاني : ٢٥/٢٠-٢٢ ، وينظر : حاشية الصاوي : ١٨٦٦٥ .

أنموذج الضمائر (سياق الغيبة / التكلم)

الآيات	السور	الملتفت إليه التكلم	الملتفت عنه الغيبة	الشاهد القرآني
١٩٧	البقرة	أنا	هو	﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ... وَأَتَّقُونِ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾
٢٥٢	البقرة	نحن	هو	﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾
٥٨-٥٧	آل عمران	نحن	هو	﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾
١٨١	آل عمران	نحن	هو	﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا... سَكَتْنَا مَا قَالُوا﴾
١١٤	النساء	نحن	هو	﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ آتِبْغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾
١٧٤	النساء	نحن	هو	﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾

أنموذج الضمائر (سياق الغيبة / التكلم)

ت	الشاهد القرآني	الملمتت عنه الغيبة	الملمتت إليه التكلم	السور	الآيات
٧	﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ... رَسُولَنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾	هو	نحن	المائدة	٩٢
٨	﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأَتِ اللَّهُ بِمَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأُذُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا ...﴾	هو	نحن	الأنعام	٣٣-٤
٩	﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ... تَوَفَّنَهُ رَسُولَنَا﴾	هو	نحن	الأنعام	٦١
١٠	﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ ... قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾	هو	نحن	الأنعام	٩٧
١١	﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ... قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾	هو	نحن	الأنعام	٩٨
١٢	﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾	هو	نحن	الأنعام	١٢٦
١٣	﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ... سَنَحْزِي الَّذِينَ يَصْدُقُونَ﴾	هو	نحن	الأنعام	١٥٧

أنموذج الضمائر (سياق الغيبة / التكلم)

الآيات	السور	الملتفت إليه التكلم	الملتفت عنه الغيبة	الشاهد القرآني
٣٧	الأعراف	نحن	هو	﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ ... حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا ﴾
٥٧	الأعراف	نحن	هو	﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ ... حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نِّقَالًا سُقِنَتْهُ ﴾
٥٨	الأعراف	نحن	هو	﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾
١٥٢	الأعراف	نحن	هو	﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ... وَكَذَلِكَ نَجْزِي ﴾
٤١	الأنفال	نحن	هو	﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ ... إِنْ كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾
٥٤	الأنفال	نحن	هو	﴿ كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ ... كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْلَكْنَاهُمْ ﴾

أنموذج الضمائر (سياق الغيبة / التكلم)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه الغيبة	الملتفت إليه التكلم	السور	الآيات
٢٠	﴿ وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ... فَنَذِرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ ﴾	هو	نحن	يونس	١١
٢١	﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ ﴾	هو	نحن	يوسف	٢٤
٢٢	﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا... رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾	هو	نحن	النحل	٧٥
٢٣	﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا ﴾	هو	نحن	النحل	٨٨
٢٤	﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا ﴾	هو	نحن	الإسراء	٨
٢٥	﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ ﴾	هو	نحن	الإسراء	٥٥
٢٦	﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ... وَنَحْشُرْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾	هو	نحن	الإسراء	٩٧

أنموذج الضمائر (سياق الغيبة / التكلم)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه الغيبة	الملفت إليه التكلم	السور	الآيات
٢٧	﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾	هو	نحن	الكهف	١٣
٢٨	﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ... وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾	هو	نحن	الكهف	٥٢
٢٩	﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ... وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ﴾	هو	أنا	مريم	٩
٣٠	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ... وَمَنْ حَمَلْنَا... إِذَا نُنَالِي عَلَيْهِمْ آيَاتِ الرَّحْمَنِ﴾	هو	نحن	مريم	٥٨
٣١	﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾	هو	نحن	مريم	٧٢-٧١
٣٢	﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾	هو	نحن	طه	٥٣
٣٣	﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَحْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾	هو	نحن	الأنبياء	٢٩

أ نموذج الضمائر (سياق الغيبة / التكلم)

الآيات	السور	الملفت إليه التكلم	الملفت عنه الغيبة	الشاهد القرآني	ت
٨٤-٨٣	الأنبياء	نحن	هو	﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ... * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾	٣٤
٩٠-٨٩	الأنبياء	نحن	هو	﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ... * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾	٣٥
٢٥	الحج	نحن	هو	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ﴾	٣٦
٣٥	الحج	نحن	هو	﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ... وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾	٣٧
٤١-٤٠	الحج	نحن	هو	﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ... * الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾	٣٨
٥٧-٥٦	الحج	نحن	هو	﴿الْمَلَأُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ... * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾	٣٩
٥٥	النور	أنا	هو	﴿وَلَيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ... يَعْبُدُونَنِي﴾	٤٠

أنموذج الضمائر (سياق الغيبة / التكلم)

الآيات	السور	الملتفت إليه التكلم	الملتفت عنه الغيبة	الشاهد القرآني	ت
٤٥	الفرقان	نحن	هو	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ... ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾	٤٥
٤٨	الفرقان	نحن	هو	﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا... وَأَنْزَلْنَا ﴾	٤٨
٦٠	النمل	نحن	هو	﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ﴾	٦٠
٥٩	القصص	نحن	هو	﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ﴾	٥٩
٤-٣	العنكبوت	نحن	هو	﴿ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا... * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ﴾	٤٤
٢٣	العنكبوت	أنا	هو	﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَصَّوْنَ لِلَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكْفُرُونَ * ﴾	٤١
٦٦-٥٦	العنكبوت	نحن	هو	﴿ فَلَمَّا نَسَبْنَاهُمْ إِلَىٰ الْآلِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ ﴾	٤١

أنموذج الضمائر (سياق الغيبة / التكلم)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه الغيبة	الملفت إليه التكلم	السور	الآيات
٤٨	﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ... كَذَلِكَ نَقُصِّدُ الْآيَاتِ ﴾	هو	نحن	الروم	٢٨
٤٩	﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ... وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾	هو	نحن	لقمان	١٠
٥٠	﴿ فَلَمَّا نَحْنُحُهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا ﴾	هو	نحن	لقمان	٣٢
٥١	﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾	هو	نحن	السجدة	١٦
٥٢	﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ... إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴾	هو	نحن	السجدة	٢٢
٥٣	﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ... فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا ﴾	هو	نحن	الأحزاب	٩

أ نموذج الضمائر (سياق الغيبة / التكلم)

الآيات	السور	الملتفت إليه التكلم	الملتفت عنه الغيبة	الشاهد القرآني	ت
٢٧	فاطر	نحن	هو	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾	٥٠
٦-٥	الصفات	نحن	هو	﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا... إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا﴾	٥٠
١٢	فصلت	نحن	هو	﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾	٥٠
١٥	فصلت	نحن	هو	﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾	٥١
٢٨	فصلت	نحن	هو	﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾	٥١
٣٥	الشورى	نحن	هو	﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجْدِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾	٥٩
٣٨	الشورى	نحن	هو	﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ... وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾	٦٠

أنموذج الضمائر (سياق الغيبة / التكلم)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه الغيبة	الملتفت إليه التكلم	السور	الآيات
٦١	﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾	هو	نحن	الزخرف	١١
٦٢	﴿أَهْمٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا...﴾	هو	نحن	الزخرف	٣٢
٦٣	﴿وَمَنْ يَعْتَسِفْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾	هو	نحن	الزخرف	٣٦
٦٤	﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ﴾	هو	نحن	الأحقاف	٣-٢
٦٥	﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا... تَحْزَى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾	هو	نحن	الأحقاف	٢٥
٦٦	﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ... إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾	هو	نحن	الفتح	٨-٧
٦٧	﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾	هو	نحن	الفتح	١٣
٦٨	﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾	هو	نحن	الطور	٤٨
٦٩	﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ * فَفَنَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾	هو	نحن	القمر	١-١٠

أ نموذج الضمائر (سياق الغيبة / التكلم)

الآيات	السور	الملفت إليه التكلم	الملفت عنه الغيبة	الشاهد القرآني
٣١-٣٠	الرحمن	نحن	هو	﴿ فَبِأَيِّ آءِ آءٍ رَّبِّكُمْ تُكذِّبَانِ * سَنَفَعُ لَكُمْ ﴾
١٧	الحديد	نحن	هو	﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَشَّرْنَاكُمْ الْآيَاتِ ﴾
١٩	الحديد	نحن	هو	﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ... وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾
٢٥-٢٤	الحديد	نحن	هو	﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾
١	المتحنة	أنا	هو	﴿ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي ﴾
١٤	الصف	نحن	هو	﴿ قَالَ الْمُؤْمِنُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ... فَأَيَّدْنَا... ﴾
٨	التغابن	نحن	هو	﴿ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَالتُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾
١٢	التغابن	نحن	هو	﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا ﴾
٨	الطلاق	نحن	هو	﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرِيْبٍ عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ. فَحَاسِنْتُهُمْ ﴾

أنموذج الضمائر (سياق الغيبة / التكلم)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه الغيبة	الملفت إليه التكلم	السور	الآيات
٧٩.	﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾	هو	نحن	القلم	٥-٣٤
٨٠.	﴿ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ نَقُولُ عَلْتَنَا ﴾	هو	نحن	الحاقة	٤-٤٣
٨١.	﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ... وَذَرَفِي وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾	هو	أنا	المزمل	١-٩
٨٢.	﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا * إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾	هو	نحن	النبأ	١٠-٣٩
٨٣.	﴿ بَلَىٰ إِنْ رَيْتَهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا * فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾	هو	أنا	الأنشقاق	١٠-١٥
٨٤.	﴿ إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى * وَنَسِيكَ لِلْبَسْرَى ﴾	هو	نحن	الأعلى	٨-٧
٨٥.	﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾	هو	نحن	الغاشية	٥-٢٤
٨٦.	﴿ أَلَمْ يَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ يَبْصُرُ * كَلَّا لَئِنْ لَرَبَّنَا لَسَفْعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾	هو	نحن	العلق	٥-١٤

٢- سياق التكلم/ الغيبة :

إن البلاغة دراسة للغة الخطاب، منظورة من خلال وظيفتها، والصور أشكال مصممة تهدف إلى إحداث التأثير، وإثارة الإعجاب، والتلويح، كل ذلك بقوة وغرابة، والبلاغة جدول منظم لأدوات التعبير^(١)، التي تؤثر في متلقي الخطاب، وأستكمالاً لذلك فإننا بصدد نمط جديد من أنماط تشكيل الصورة الالفتائية من خلال نوع الضمائر، وهذا النمط هو سياق (التكلم/ الغيبة) ويمكن معاينة هذا النمط في نصوص القرآن الكريم ، من ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . هذا النص جزء من حكاية آل فرعون مع موسى (عليه السلام) ، ونجد بأن طرف الصورة الالفتائية الأول في قوله ﴿ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ الذي يمثل سياق (التكلم) في حين يتجسد من قبلهم طرف الصورة الثاني في قوله : ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾ والذي يمثل سياق الصورة التحويلي (الغيبة) وعند العودة إلى سياق الصورة الأول (التكلم) نرصد معنى لفظ « دأب » ففيه قولان : « أحدهما : أنه العادة، فمعناه كعادة آل فرعون ، يريد : كفر اليهود، ككفر من قبلهم.. والثاني : أنه الاجتهاد، فمعناه : أن دأب هؤلاء، هو اجتهادهم في كفرهم وتظاهرهم على النبي ﷺ كتظاهر آل فرعون على موسى

(١) ينظر : الأسلوب والأسلوبية : ٦٢ .

عليه السلام»^(١) وفي ذلك إشارة إلى أن هذا الخطاب في المنافقين، ويتضح المنحى الدلالي لقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ في التكذيب بالمعجزات وحين كذبوا بها فقد كذبوا لا محالة بالأنبياء^(٢)، وهو جواب عن سؤال مقدر عن حالهم ما فعلوه وما فعل بهم، أما بالنسبة لسياق الصورة الثاني (الغيبة) المتحول إليه والذي يمثل بؤرة الصورة والدلالة فنجد فيه لفظ (الأخذ) في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ وإنما استعمل فيه (الأخذ): لأن من ينزل به العقاب يصير كالمأخوذ المأسور الذي لا يقدر على التخلص^(٣)، ومن بلاغة هذه الصورة الالتفاتية أن الله سبحانه وتعالى عندما تحدث عن تكذيب هؤلاء بالآيات نسب إليها ضمير العظمة (نا) لتعظيم هذه الآيات أي: المعجزات، وبأنها منسوبة إليه سبحانه وتعالى لبيان قدرته عز وجل، أما على مستوى بلاغة السياق التحويلي، فنجد سياق الغيبة إذ قام بإظهار لفظ الجلالة في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ لتربية المهابة وإدخال الروعة في قلوب السامعين^(٤).

ويمكن أن نبين شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :

(١) زاد المسير : ٣٥٥/١ .

(٢) ينظر : التفسير الكبير : ١٦٢/٧ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير : ١٦٢/٧ .

(٤) ينظر : روح المعاني : ٩٤/٣ .

صيغة الخطاب

سياق الغيبة (٢)

سياق التكلم (١)

أ _ البنية السطحية

الملفت إليه (الغيبة)

الملفت عنه (التكلم)

﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾

نحن // قطع تحول // هو
تضاد

﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

نحن // نحن
التكلم // أخذناهم

﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

ويطالعنا نص آخر من نصوص القرآن الكريم تكمن فيه الصورة الالفتائية في سياق (التكلم/الغيبة) قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَنُصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴾ [الفتح: ١-٣] لقد تشكلت الصورة الالفتائية في هذا النص في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ الذي يمثل سياق الصورة الأول (التكلم) في حين نجد في قوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ سياق الصورة الثاني المتحول إليه (الغيبة) .

ونجد في سياق (التكلم) لفظ الفتح والمقصود به فتح مكة، وأن محمله على الوعد بالفتح، والمعنى : سنفتح، وإنما جيء في الإخبار بلفظ الماضي لتحقيقه وتيقنه^(١)، وفي الالتفات إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات، للإشعار بأن كل واحد ممن أنتظم في سلك الغاية من أفعاله تعالى صار تحته تعالى^(٢) ولم يقل: « لنغفر لك » تعليقاً لهذه المغفرة التامة باسمه المتضمن لسائر أسمائه الحسنی، ولهذا علق به النصر^(٣)، في قوله تعالى: ﴿ وَبَصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾.

ونوضح شكل البنية لهذه الصورة الالتفاتية بالآتي :

صيغة الخطاب

سياق الغيبة (٢)

سياق التكلم (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت إليه (الغيبة)

الملتفت عنه (التكلم)

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ... ﴾

نحن // قطع تحول // هو
تضاد

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

لنغفر لك

نحن

نحن

التكلم

التكلم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

(١) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ١٤٤/٢٦ .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم : ١٠٤/٨ .

(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣١٦/٣ .

ومن النصوص القرآنية التي تُبرز سمة العطاء وجاءت بطريق الصورة الالتفائية سياق (التكلم/الغيبة) وأي عطاء هذا؟ إنه عطاء الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ﴾ [الكوثر: ١ - ٢]، إن سياق الصورة الأول (التكلم) نجده في قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أما سياق الصورة الثاني والذي يجسد بؤرة الصورة الالتفائية سياق (الغيبة) فنجده في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ﴾ وفي تخصيص الصلاة للرب في قوله «لربك» بيان للإخلاص ودفع للرياء، وكان سياق النص الأصلي أن يقول: (فصل لنا) ولكنه التفت فقال: (فصل لربك) وفي هذا الالتفات عدة فوائد على مستوى الخطاب، البلاغي منها^(١):

أنه أفاد أن الصلاة تكون للرب وحده لا للمعطي على سبيل الإطلاق، فإن المتصف بالعطاء يستحق الشكر ولا يستحق الصلاة إلا الله، ولو قال (فصل لنا) ربما أوهم أنه استحق الصلاة لكونه معطياً فأزال الالتفات هذا الوهم، واختيار لفظ (الرب) وإضافته إلى ضمير الخطاب فيه من التكريم ما لا يخفى، فإن اختيار لفظ (الرب) مناسب للعطاء الذي أعطاه إياه، وإضافته إلى ضمير الخطاب فيه من التخصيص ما هو ظاهر، إن هذا النص والسورة مختصة بالرسول ﷺ، ولذا كانت كلها مبنية على خطابه: «إنا أعطيناك... فصل لربك... إن شائتك» ويمكن بيان شكل البنية لهذه الصورة بالآتي:

(١) ينظر: على طريق التفسير البياني، د. فاضل صالح السامرائي: ٨٦/١.

صيغة الخطاب

سياق الغيبة (٢)

سياق التكلم (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت إليه (الغيبة)

الملتفت عنه (التكلم)

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾

نحن // قطع تحول هو
تضاد

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

فصل لنا وانحر

نحن التكلم ← نحن التكلم

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

أنموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

الآيات	السور	الملفت إليه الغيبة	الملفت عنه التكلم	الشاهد القرآني
٣٧-٣٦	البقرة	هو	نحن	﴿ وَقُلْنَا أَهْبَطُوا ... * ... فَنَابَ عَلَيْنَا ... ﴾
١٥٩	البقرة	هو	نحن	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلْنَا ... أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ... ﴾
١٧٢	البقرة	هو	نحن	﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ ... ﴾
٢١١	البقرة	هو	نحن	﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ ... ﴾
٢٥٣	البقرة	هو	نحن	﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا ... مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ... وَآتَيْنَا ... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾
١١	آل عمران	هو	نحن	﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾
٥٧-٥٦	آل عمران	هو	أنا	﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذْنَاهُمْ ... * وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ ﴾
١٠٨	آل عمران	هو	نحن	﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾

أنموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

ت	الشاهد القرآني	الملقت عنه التكلم	الملقت إليه الغيبة	السور	الآيات
٩	﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَّوِلْهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾	نحن	هو	آل عمران	١٤٠
١٠	﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾	نحن	هو	آل عمران	١٥١
١١	﴿فَسَوْفَ نُضَلِّيه نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾	نحن	هو	النساء	٣٠
١٢	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَجْتَنِبْنَا سَوْفَ نُضَلِّيهِم نَارًا ... إِنَّ اللَّهَ﴾	نحن	هو	النساء	٥٦
١٣	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾	نحن	هو	النساء	٦٤
١٤	﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ ... وَعَدَّ اللَّهُ﴾	نحن	هو	النساء	١٢٢
١٥	﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ... أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾	نحن	هو	النساء	١٣١

أنموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

الآيات	السور	الملتفت إليه الغيبة	الملتفت عنه التكلم	الشاهد القرآني	ت
١٤	المائدة	هو	نحن	﴿فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ... وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ﴾	١٠
١٥	المائدة	هو	نحن	﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ... قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾	١١
٣٤	الأنعام	هو	نحن	﴿وَأُذُوا حَتَّىٰ أَنْهَبَهُمْ فَصَرَّفْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾	١٢
٣٨	الأنعام	هو	نحن	﴿مَا فَطَرْنَا فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ شَيْءٍ نُعَذِّبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾	١٣
٨٣	الأنعام	هو	نحن	﴿نُفَعِّمُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾	٢٠
١٠٨	الأنعام	هو	نحن	﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾	٢١
١١٢	الأنعام	هو	نحن	﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا... وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾	٢١

أنموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه التكلم	الملفت إليه الغيبة	السور	الآيات
٢٣	﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾	نحن	هو	الأنعام	١١٤
٢٤	﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِمَا نُنزِّلُ... وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾	نحن	هو	الأنعام	١٥٠
٢٥	﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ... لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾	نحن	هو	الأنعام	١٥٤
٢٦	﴿يَنْبِئُكَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ... ذَلِكَ حَقٌّ ذَلِكُ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾	نحن	هو	الأعراف	٢٦
٢٧	﴿وَلَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَغُصَّ عَلَيْكَ... كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾	نحن	هو	الأعراف	١٠١
٢٨	﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ... وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى...﴾	نحن	هو	الأعراف	١٣٧
٢٩	﴿وَأَتَمَمْنَا بِهَا عَشْرَ فِتْمٍ مِّمَّقَتِ رَبِّهِمْ... أَرْبَعِينَ آيَةً﴾	نحن	هو	الأعراف	١٤٢

أنموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

الآيات	السور	الملفت إليه الغيبة	الملفت عنه التكلم	الشاهد القرآني	ت
١٤٣	الأعراف	هو	نحن	﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾	٣٠
١٥٨	الأعراف	هو	أنا	﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ فِي رِسْوَلِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا... فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾	٣١
١٩	الأنفال	هو	نحن	﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ... وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾	٣٢
٢	يونس	هو	نحن	﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا... أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾	٣٣
٤٦	يونس	هو	نحن	﴿فَالْتَبْنَا مَرَجَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾	٣٤
٦١	يونس	هو	نحن	﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا... وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾	٣٥
٩٣	يونس	هو	نحن	﴿وَلَقَدْ يَوَّنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوِّأً صِدْقٍ... إِنَّ رَبَّكَ بَقِصٍ﴾	٣٦
٩٤	يونس	هو	نحن	﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا... لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾	٣٧

أنموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه التكلم	الملتفت إليه الغيبة	السور	الآيات
٣٨	﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَجْتِنَا صَدِّحًا ... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾	نحن	هو	هود	٦٦
٣٩	﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ... * مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ﴾	نحن	هو	هود	٨٢-٨٣
٤٠	﴿ لَتَسْتَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾	نحن	هو	الرعد	٣٠
٤١	﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ... وَلَئِن أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ ... مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾	نحن	هو	الرعد	٣٧
٤٢	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا ... وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِطَايِفَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾	نحن	هو	الرعد	٣٨
٤٣	﴿ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ ... وَاللَّهُ ﴾	نحن	هو	الرعد	٤١
٤٤	﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ ... بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾	نحن	هو	إبراهيم	١

أنموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

الآيات	السور	الملفت إليه الغيبة	الملفت عنه التكلم	الشاهد القرآني	ت
٤	إبراهيم	هو	نحن	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ... فَيُضِلُّ اللَّهُ ﴾	٤٤
٥	إبراهيم	هو	نحن	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا... وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ ﴾	٤٦
٢٥-٢٤	الحجر	هو	نحن	﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ... * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾	٤٧
٣٦	النحل	هو	نحن	﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ ﴾	٤٨
١٠١	النحل	هو	نحن	﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً... وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرْسِلُ ﴾	٤٩
١٢	الإسراء	هو	نحن	﴿ وَحَمَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ... لِنَبْتَلِيَكُمْ فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾	٥٠
١٧	الإسراء	هو	نحن	﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ ﴾	٥١

أنموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه التكلم	الملفت إليه الغيبة	السور	الآيات
٥٢	﴿ كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾	نحن	هو	الإسراء	٦٠
٥٣	﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ... * إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾	نحن	هو	الإسراء	٧-٨٦
٥٤	﴿ وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾	نحن	هو	الكهف	٢١
٥٥	﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ ... وَكَانَ اللَّهُ ﴾	نحن	هو	الكهف	٤٥
٥٦	﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ... * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾	نحن	هو	مريم	٧٧-٨
٥٧	﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ... تَزِيلًا مَعْنَى خَلَقَ الْأَرْضَ ﴾	نحن	هو	طه	٢-٤
٥٨	﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ... * فَفَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾	نحن	هو	طه	١١٣-١١٤

أنموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

الآيات	السور	الملفتت إليه الغيبة	الملفتت عنه التكلم	الشاهد القرآني
١٢٧	طه	هو	نحن	﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾
طه	١٣١	هو	نحن	﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا... وَرَزَقُوكَ رِيكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾
١٩-١٨	الأنبياء	هو	نحن	﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ... * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ﴾
٣٣-٣٢	الأنبياء	هو	نحن	﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا... * وَهُوَ الَّذِي ﴾
٤٩-٤٨	الأنبياء	هو	نحن	﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْقُرْآنَ... * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾
٣٤	الحج	هو	نحن	﴿ وَإِكْلِ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾
٥٢	الحج	هو	نحن	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ... فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾

أنموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه الكلم	الملفت إليه الغيبة	السور	الآيات
٦٦	﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ... وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾	نحن	هو	الحج	٦٧
٦٧	﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾	نحن	هو	المؤمنون	١٤
٦٨	﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾	نحن	هو	المؤمنون	٣٢
٦٩	﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِيَعْتَمِدُوا﴾	نحن	هو	المؤمنون	٧٦
٧٠	﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ... * فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾	نحن	هو	المؤمنون	١١٥- ١١٦
٧١	﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾	نحن	هو	الفرقان	٢٠
٧٢	﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾	نحن	هو	الفرقان	٣١
٧٣	﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ وَقَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي﴾	نحن	هو	النمل	٨٣-٨٤

أنموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

الآيات	السور	الملفتت عنه التكلم	الملفتت إليه الغيبة	الشاهد القرآني
٤٦	القصص	نحن	هو	﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾
٦٢-٦١	القصص	نحن	هو	﴿ أَفَمَنْ وَعَدْتُهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ ... * وَيَوْمَ نُنَادِيهِمْ ﴾
٧٥	القصص	نحن	هو	﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ ﴾
٣	العنكبوت	نحن	هو	﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ ﴾
٤٠	العنكبوت	نحن	هو	﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ... وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ ﴾
٦٩	العنكبوت	نحن	هو	﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ... وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾
٢٣	لقمان	نحن	هو	﴿ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَيُنْتَبَهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾
١٥	السجدة	نحن	هو	﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾

أنموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه التكلم	الملفت إليه الغيبة	السور	الآيات
٨٢	﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ... * لَيْسَ لَكَ الصَّدِيقِينَ﴾	نحن	هو	الأحزاب	٨-٧
٨٣	﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾	نحن	هو	الأحزاب	٦-٤٥
٨٤	﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا .. وَكَانَ اللَّهُ عَاقِبَةً رَاحِمًا﴾	نحن	هو	الأحزاب	٥٠
٨٥	﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظِيرِ وَمَنْ أَلْحِنَ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾	نحن	هو	سبأ	١٢
٨٦	﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ ... وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾	نحن	هو	سبأ	٢١
٨٧	﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ ... إِنْ اللَّهُ بِعِبَادِهِ﴾	نحن	هو	فاطر	٣١
٨٨	﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَى الْكِتَابِ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا ... وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾	نحن	هو	فاطر	٣٢

أنموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

الآيات	السور	الملفت إليه الغيبة	الملفت عنه التكلم	الشاهد القرآني	ت
٩-٨	ص	هو	نحن	﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي... * أَمْعَدُهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾	٨١
٢٤	ص	هو	نحن	﴿وَطَنَّ دَاوُدُ إِتْمَانًا فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾	٩٠
٢٦	ص	هو	نحن	﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً... وَلَا تَتَّبِعْ آلَهُوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾	٩١
٤١	ص	هو	نحن	﴿وَأذْكُرْ عِدَّةَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾	٩٢
٢	الزمر	هو	نحن	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا﴾	٩٤
١٨-١٧	الزمر	هو	نحن	﴿فَشِرْعَابًا * ... أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ﴾	٩٥
٦-٥	غافر	هو	نحن	﴿فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾	٩٦
٧٨	غافر	هو	نحن	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ... وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾	

أ نموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه التكلم	الملفت إليه الغيبة	السور	الآيات
٩٧	﴿ فَلمَ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهُ ﴾	نحن	هو	غافر	٨٥
٩٨	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا... إِنَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾	نحن	هو	فصلت	٤٠
٩٩	﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ... وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾	نحن	هو	فصلت	٤٥
١٠٠	﴿ سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ... أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾	نحن	هو	فصلت	٥٣
١٠١	﴿ وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴾	نحن	هو	الزخرف	٤٥
١٠٢	﴿ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾	نحن	هو	الدخان	٦-٥
١٠٣	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتْلُوا هِيَ عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بِعدِ اللهُ وَءَايَاتِهِ يُؤْمَرُونَ ﴾	نحن	هو	الجاثية	٦
١٠٤	﴿ وَعَايَاتِنَهُمْ يَنْتَدِبُ مِنَ الْأَمْرِ... إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾	نحن	هو	الجاثية	١٧
١٠٥	﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ... إِنَّهُمْ لَنْ يُعْتُوا عَنكَ مِنْ اللهُ شَيْئًا ﴾	نحن	هو	الجاثية	٩-١٨

أنموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

الآيات	السور	الملفت إليه الغيبة	الملفت عنه التكلم	الشاهد القرآني
٣٠-٢٩	الجاثية	هو	نحن	﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ ﴾
٢٦	الأحقاف	هو	نحن	﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً... إِذْ كَانُوا يَمْجَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾
٢٨-٢٧	الأحقاف	هو	نحن	﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ... * فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾
٩-٨	الفتح	هو	نحن	﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا * لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ﴾
١٣	الحجرات	هو	نحن	﴿ إِنَّا عَلَّمْنَاكَ مِنْ ذِكْرِنَا أَنْتَ... أَكْرَمَكَ عِنْدَ اللَّهِ أَقْنَمَكَ ﴾
٥٨-٥٧	الذاريات	هو	أنا	﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ... * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ ﴾
٣٠-٢٩	النجم	هو	نحن	﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا... * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ ﴾
١٠-٩	القمر	هو	نحن	﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا... * فَدَعَا رَبَّهُ ﴾
٧٤-٧٣	الواقعة	هو	نحن	﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾

انموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

الآيات	السور	الملفت إليه الغيبة	الملفت عنه التكلم	الشاهد القرآني	ت
٢٢	الحديد	هو	نحن	﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ... إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾	١١٥
٢٥	الحديد	هو	نحن	﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾	١١٦
٢٧	الحديد	هو	نحن	﴿ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهَا إِلَّا أَتْبَعَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾	١١٧
٢٢-٢١	الحشر	هو	نحن	﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْمًا... هُوَ اللَّهُ ﴾	١١٨
٦-٥	التحریم	هو	نحن	﴿ فَرَجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ... وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتٍ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا ﴾	١١٩
٤٠	المعارج	هو	أنا	﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾	١٢٠
١٧	الجن	هو	نحن	﴿ لَنُنْفِثَنَّ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾	١٢١
٢٤-٢٣	الإنسان	هو	نحن	﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾	١٢٢
٢٩-٢٨	الإنسان	هو	نحن	﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْتَهُمْ بَدِيلًا * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾	١٢٣

أنموذج الضمائر (سياق التكلم / الغيبة)

الآيات	السور	الملتفت إليه الغيبة	الملتفت عنه التكلم	الشاهد القرآني	ت
٢٠-١٥	التكوير	هو	أنا	﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَنِينِ ... * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾	١٢٤
٧-٦	الأعلى	هو	نحن	﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾	١٢٥
٨-٤	الشرح	هو	نحن	﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ... وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾	١٢٦
٨-٤	التين	هو	نحن	﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ... أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْحَكِيمِينَ﴾	١٢٧
٤-١	القدر	هو	نحن	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ... نَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾	١٢٨

المبحث الثالث

سياقات التحول

سياق التكلم/الخطاب

سياق الخطاب/التكلم

١ - سياق التكلم/الخطاب :

يعد هذا السياق أقل السياقات وروداً في الخطاب القرآني، إذ لم نجد على حد معرفتنا إلا مثلاً واحداً، ولم تورد كتب إعجاز القرآن وعلومه أمثلة عن هذا السياق أيضاً إلا هذا المثال الواحد المتمثل في قوله عز وجل :

﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَاهُ قُلُوبًا مَّغْلُوبَةً هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِلْإِسْلَامِ لِلرَّبِّ الْعَلِيمِ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٧١ - ٧٢] .

تتجسد أطراف الصورة الالتفافية في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَمْرًا لِلْإِسْلَامِ ﴾ والذي يمثل طرف الصورة الأول (سياق التكلم) في حين نجد أن طرف الصورة الثاني في قوله عز وجل : ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا ﴾ إذ مثل سياق التحول من التكلم الى الخطاب، ومعنى « لنسلم » إنه « يعم الدين والإسلام »^(١) أي : أمرنا لنسلم بالله

(١) المحرر الوجيز : ٦٣٤ .

ودينه الذي أرسله إلينا وهو « الإسلام » وأن لا نعود إلى الشرك بعد هداية الله سبحانه وتعالى لنا^(١). وجاءت (اللام) في قوله « لنسلم » لتعليل الأمر وتعيين ما أريد به في الأوامر الثلاثة^(٢) وهي متجسدة في الإسلام وإقامة الصلاة والتقوى، فالأمر الأول كائن في طرف الصورة الأول « لنسلم » في حين نجد الأمرين الآخرين في طرف الصورة المتحول في قوله: ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتَّقُوهُ ﴾ ولم يَسِرْ سياق الخطاب في طرف الصورة الثاني على نسق واحد حيث بنية الفعل ، إذ انتقل الخطاب من المضارع (لنسلم) إلى الأمر (أقيموا) فكان ينبغي أن يكون الفعل (أقيموا) (لتقييم) على نسق خطاب التكلم (لنسلم) إلا أنه عدل عن ذلك لجزالة اللفظ^(٣) ولأهمية إقامة الصلاة وتقوى الله وعدم مخالفة أمره^(٤) ، بوصفهما واقعاً عملياً لعبادته .

ويمكن تمثيل شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :

(١) ينظر : الكشاف : ٣٣٣ .

(٢) إرشاد العقل السليم : ١٥٠/٣ .

(٣) ينظر : المحرر الوجيز : ٦٣٤ .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم : ١٥٠/٢ .

صيغة الخطاب

سياق الخطاب (٢)



سياق التكلم (١)

أ _ البنية السطحية

الملفت عنه (التكلم)

﴿وَأْمُرْنَا لِلْإِسْلَامِ...﴾

متوقع

الملفت إليه (الخطاب)

﴿وَأَن أَقِيمُوا...﴾

غير متوقع

نحن / قطع تحول / أنتم
تضاد

ب _ البنية العميقة

﴿وَأْمُرْنَا لِلْإِسْلَامِ...﴾

متوقع

لتقييم

متوقع

نحن / نحن / التكلم / التكلم

شكل البنية

٢ . سياق الخطاب / التكلم :

إن هذا السياق لا يختلف من حيث قلة أمثله عن سابقه في إطار تشكيل الصورة الالفتائية بشكلها الضمائري، وفيه يتحول الكلام من سياق الخطاب إلى سياق التكلم لقصد بلاغي، ومثال هذا السياق ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠] ، بدأت الآية بالخطاب في قوله : ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ الذي يمثل طرف الصورة الأول، ثم تحول السياق الى التكلم في قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ رَبِّي ﴾ .

ومن بلاغة هذا التحول أن (شعبياً) عليه السلام وهو « يدعو قومه أراد أن يبين شدة قرب الله سبحانه ولطفه بعباده، لما كانت في غاية الإحسان إليهم كانت كفعل من يتودّد ويودّ المصوغ له»^(١) ، فهو يغفر لأهل الجفاء المؤمنين، ويحب أهل الوفاء من الصالحين، عظيم الرحمة للتائبين، وهذا تعليل للأمر بالاستغفار والتوبة والحث عليهما^(٢) .

وقد عاش النبي (شعيب) عليه السلام هذه الحالة : حالة العبودية التي لا يعيشها بصدق إلا القوم الصالحين، لذلك جاء التحول لبيان قرب العابد من المعبود وعلو منزلته ، وبيان أنه لا رب لي سواه، ففي ذلك تخصيص ينبثق منه مبدأ التوحيد .

(١) المحرر الوجيز : ٩٦٧ .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٢٣٥/٤ ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل : ٢٨٩/٢ ، وينظر :

الكشاف : ٤٩٥ .

إن هذا الأسلوب الخطابي يقوي دعائم الدعوة، فهو لا يظهر وعد الله بعقابهم في حالة رفضهم لدعوته، إذ يبين لهم أسباب الرجوع إلى ربهم بالاستغفار والتوبة إليه سبحانه، فهو يخاطب أناساً ماديين يقيسون القوة والضعف بمنطق المادة وليس بمنطق الإيمان، بدليل قولهم ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي « لا قوة لك ولا عز فيما بيننا، فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهاً »^(١)، إلا أن شعبياً (عليه السلام) يبين لهم قدرة ربه على الإحاطة بما يعملون وبصيغة التحول أيضاً في قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود : ٩٢] .

ويمكن بيان شكل البنية بالآتي :

صيغة الخطاب

سياق التكلم (٢)

سياق الخطاب (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت إليه (الخطاب)

الملتفت عنه (التكلم)

﴿إِنَّ رَبِّي﴾

أنا ← قطع تحول // أنتم
تضاد

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

إن ربكم

أنتم ← الخطاب
أنتم الخطاب

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

(١) الكشاف : ٤٩٥ .

الفصل الثاني

بلاغة الأنماط الأسلوبية للالتفات الفعلي

(التركيب والدلالة)

مدخل

المبحث الأول : سياقات التحول

١ . سياق الماضي / المضارع

٢ . سياق المضارع / الماضي

المبحث الثاني : سياقات التحول

سياق المضارع / الأمر

المبحث الثالث : سياقات التحول

سياق الماضي / الأمر

مدخل :

يعد الالتفات الفعلي أحد الأشكال البنائية الأخرى في الخطاب القرآني المتمثلة في الخروج عن المألوف وتجاوز المعايير والقواعد اللغوية التي نص عليها البناء النحوي، ويترتب على هذا الخروج. « أن اللغة ستكون ذات طبيعة شعرية أو جمالية »^(١) وأسلوبية، لها بالغ الأثر في وعي المتلقي - سامعاً أو قارئاً - لما تحدثه من المفاجأة في نفسه وتجعله أكثر تفاعلاً مع معطيات النص ودلالاته، فالظواهر الأسلوبية ومنها الالتفات - هي قيم تعبيرية فنية مجالها المفاجأة واللامتوقع، وغير المنتظر في النص من حيث بنية التراكيب اللغوية والجمل النحوية^(٢).

والبلاغيون يضعون تخريجات لمثل هذا الخروج عن المألوف بين صيغ الأفعال، منها : استحضار الموقف، واستدعاء الصورة التي حدثت، كي تعيش في الحاضر^(٣)، ويتحتم على البحث أن يقدم إضاءات حول بنية الفعل وتعريفاته وأشكاله البنيوية والتركيبية، فيعرف الفعل بأنه : « ما دل على معنى وزمان ، وذلك الزمان إما ماضٍ وإما حاضر وإما مستقبل »^(٤) ومن خصائصه « صحة دخول قد ، وحر في الاستقبال والجوازم ولحوق المتصل البارز من الضمائر،

(١) البنيوية وعلم الإشارة ، ترنس هوكر ، ت : مجيد الماشطة : ٦٩ .

(٢) ينظر : ظواهر أسلوبية في كتاب جوهر الكنز لأبن الأثير الحلبي ، محمود درابسة ، مجلة أبحاث اليرموك ، مج (١٧) ع (١) لسنة ١٩٩٩م : ١٧٦ .

(٣) ينظر : دراسات في الأدوات النحوية ، مصطفى النحاس : ٣٩ .

(٤) الأصول في النحو ، ابن السراج : ٤١ ، والمفصل في علم العربية ، الزمخشري : ٢٤٣-٢٤٤ .

وتاء التأنيث الساكنة»^(١) والفعل « هو الكلمة التي تدل على معنى في نفسها مع علاقتها بالزمن ، ومعنى دلالة الكلمة على معنى في نفسها أنها لا تعبر عن مجرد العلاقة بين أمرين آخرين»^(٢) .

ومن الناحية البنائية يعد الفعل « ركن مهم في بناء الجملة العربية»^(٣) .

ومن خصائص الفعل كذلك أن له دلالة على الحقيقة وزمانها، وكل ما كان زمانياً فهو متغير، والتغير مشعر بالتجدد على خلاف الاسم الذي يفيد الثبوت^(٤)، فالفعل يعني الحركة والاسم يعني السكون ، ولذلك « عدّ الأقدمون الفعل عنصراً جوهرياً في العبارة أو الجملة، وهو كذلك عند المحدثين من اللغويين : عامل مهم في بناء الجملة»^(٥) .

ومعنى دلالة الفعل على زمن « أنه يأتي على المستوى الصرفي من شكل الصيغة وعلى المستوى النحوي من مجرى السياق، ومعنى إتيان الزمن على المستوى الصرفي من شكل الصيغة : أن الزمن هنا وظيفة الصيغة المفردة، ومعنى أن الزمن يأتي على المستوى النحوي من مجرى السياق، أن الزمن في النحو وظيفة السياق وليس وظيفة الفعل، لأن الفعل الذي على صيغة فعل يدل في السياق على المستقبل، والذي على صيغة المضارع قد يدل فيه على الماضي، والفعل من حيث المبنى الصرفي ماضٍ ومضارع وأمر»^(٦) .

(١) المفصل في علم العربية : ٢٤٣ .

(٢) دراسات نقدية في النحو العربي : ٨/١ .

(٣) الفعل زمانه وأبنيته ، د. إبراهيم السامرائي : ١٥ .

(٤) ينظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، فخر الدين الرازي : ٧٥ .

(٥) دراسات في اللغة ، د. إبراهيم السامرائي : ٤٢ .

(٦) اللغة العربية معناها ومبناها ، د. تمام حسان : ١٠٤ .

والزمن النحوي سياقي لأنه « جزء من الظواهر الموقعية السياقية، لأن دلالة الفعل على زمن ما تتوقف على موقعه وعلى قرينته في السياق^(١)، وما يهمننا في معالجة بنية الالتفات الفعلية في القرآن الكريم - الزمن النحوي كونه مرتبطاً بالسياق، وما الالتفات في تشكيله البنائي إلا ظاهرة سياقية، إذ يقول رولان بارت في أثناء تحليله لبنية القصة: « إن ما نسميه (الزمن) لا يوجد أو لا يوجد إلا وظيفياً، شأنه في ذلك شأن أي عنصر من العناصر في نظام إشاري (سيمائي): فالزمن لا ينتمي إلى الخطاب بكل معنى الكلمة، ولكن إلى المرجع، وإن القصة واللغة لا تعرفان إلا زمناً إشارياً^(٢) أي: زمناً سياقياً يتعلق بالقصد ويخرج عن أصليته المعيارية ذات الطابع الصيغي (الصرفي).

ويقول فنديريس: « الوعظ الذي يستعمل في التعبير عن حدث لا ينتمي في الواقع إلى أي زمن، ويمكنه ككل حقيقة من حقائق التجربة أن يصدق في المستقبل والحاضر والماضي^(٣) ».

وكان النحاة: « قد بنوا تقسيم الفعل، واختلاف أوضاعه على الزمان الصرفي، وربطوا كل وزن بزمن معين، وحينما حاولوا تطبيق هذه الصيغ على أقسام في السياق، وجدوا الكثير من النماذج لا تقع تحت ما رسموا، وامتنعت على نظامهم الذي تصوره، فاضطروا حينئذ إلى الحمل، والتأويل... وكأنهم تعلقوا في درسهم للفعل بالأشكال، فما كان على صيغة (فعل)، يدل على الماضي، وما كان على صيغة (يفعل) يدل على الحال والاستقبال، ولم يتأملوا في ما وراء هذه الصيغ ليروا ما تشير إليه وظائفها السياقية من الدلالات الزمنية، فقد

(١) ينظر: المصدر السابق نفسه: ١٠٥.

(٢) مدخل إلى التحليل النبوي، رولان بارت: ٥٤.

(٣) الصيغ الزمنية في اللغة العربية، د. مالك المطليبي: ٤٥.

تدل الصيغ الصرفية على جزء من الزمن النحوي في سياق الجملة : وقد يعطي السياق للصيغة الصرفية مفهوماً زمنياً غير ما تدل عليه في (الوزن الصرفي) «^(١) .

ومن خصائص الأفعال في النصوص أنها تمارس عملية التبادل فيما بينها ضمن السياق الخطابي، ومن البلاغيين من يجعل عملية التبادل هذه شكلاً من أشكال مفهوم الالتفات ، ومن بين هؤلاء ابن الأثير عندما صنفه في قسم ثاني وثالث من أقسام الالتفات بعد القسم الأول (الالتفات الضمائي)^(٢) ، وقد أورد ابن الأثير في القسم الثاني نصين من نصوص القرآن الكريم، وقد اكتفى بقراءة الأول منهما وهو قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَيْنَ لَهُمْ دُونُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَاتٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلَ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَجْنَا لَكَ بِعُضِّ آلِ هَارُونَ بِسُوءٍ قَالَ إِنَّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [هود : ٥٣-٥٤] ، أما في القسم الثالث فقد أورد ابن الأثير تسعة نصوص من القرآن كريم والحديث النبوي الشريف والشعر^(٣) قام بقراءتها بلاغياً على وفق أسلوب الالتفات الفعلية منقياً عن أسرارها البلاغية وأبعادها الأسلوبية .

ومن علماء البلاغة الذين ألحقوا التبادل بين الأفعال بباب الالتفات العلوي : عند تعريفه للالتفات بقوله : « هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول، وهذا أحسن من قولنا : هو العدول من غيبة إلى خطاب ، ومن خطاب إلى غيبة، لأن الأول يعمُّ سائر الالتفاتات كلها، والحدُّ الثاني إنما هو مقصورٌ على الغيبة والخطاب لا غير، ولا شك أن الالتفات قد يكون من الماضي

(١) الدلالة الزمنية في الجملة العربية ، د. علي جابر المنصوري : ٤٣ .

(٢) ينظر : المثل السائر : ١٩٢/٢-١٩٤ .

(٣) المصدر نفسه : ١٩٢/٢-١٩٩ ، ومعالم أسلوبية عند ابن الأثير من كتاب المثل السائر، أحمد

قاسم الزمر ، مجلة المورد ، ع (٢) لسنة ، ٢٠٠٢م : ٣٩-٤٠ .

إلى المضارع، وقد يكون على عكس ذلك، فلهذا كان الحدُّ الأول هو أقوى دون غيره»^(١)، ويشترط لهذا الشكل من الالتفات الشرط نفسه الذي اشترط للشكل الأول (الضمائري) من وحدة السياق بين الملتفت عنه والملتفت إليه، لأن تعدد السياق يزيل المخالفة السطحية، فلو قلنا: «جلس الطالب يتأمل أصدقاءه» لوجدنا مخالفة زمنية بين (زمن الجلوس) وزمن (التأمل)، لكن لا يدخل التركيب دائرة الالتفات، لأن كل زمن يتعلق بحدث مخالف للآخر، ومن ثم تتساوى بنية السطح مع بنية العمق في الشكل^(٢).

إنّ عملية اختيار المتكلم لترتيب مكونات النص تحكمها ضوابط تتعلق بمقاصد الخطاب المراد إيلاؤها، وبهذا يكون فن الالتفات نمطاً من الأنماط الدالة، وهو في شكله الفعلي وجه من أوجه الاختيار التي تؤدي بها المعاني، وانتقاء بديل من البدائل الأسلوبية المتاحة تمثل حلبة لتباري المبدعين^(٣)، هذا على مستوى النصوص الأدبية، ونقطة تحول في طريق الدعوة بالنسبة للخطاب القرآني بوصفه إعجازاً بلاغياً دعويّاً وليس ملمحاً جمالياً في حد ذاته؛ إذن فإنّ عملية الترتيب جزء من عملية الاختيار وهي عملية واعية مقصودة، فمؤلف القول ينظر في المعنى الذي يريد أن يصوره ويرتب هذا المعنى في نفسه، ثم يختار النظام المناسب لأدائه^(٤)، وأن ما يقع في المستوى البلاغي من العدول أو الخروج عن الأصل البنيوي للغة المعيارية له ما يسوغه^(٥) في مستوى التلقي، لأن مفاجأة القارئ أو السامع

(١) الطراز: ١٣٢/٢، وخصائص التراكيب: ٢٠٤.

(٢) ينظر: البلاغة العربية (قراءة أخرى): ٣٩٧.

(٣) ينظر: دلالة الأطر الأسلوبية وصلتها بتقديم مكونات الجملة، رشيد بلحبيب، المجلة العربية للثقافة، لسنة ١٩٩٩م: ٢٠٧.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٩.

(٥) ينظر: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم - دراسة نظرية تطبيقية - التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي: ٧٢.

ومباغتته، بعد تعديد النص إياه على نمط معين من التعبير، بما لم يكن ينتظره أو يقرأ له حساباً، له وقعه الشديد عليه ولفته له أعظم^(١).

إن متطلبات عملية التلقي، ولا سيما إذا كان الخطاب دعوي تؤثر في تنظيم الخطاب اللغوي وانسجامة من خلال كلماته وعباراته وجملته التي تظهر في المدونة النصية^(٢)، والتي تشكل في مجموعها أسلوبيته، وعلى صعيد الالتفات الفعلي بوصفه شكلاً لغوياً متحولاً في الخطاب القرآني، نلاحظ التعدد اللساني لأنماطه البنائية، وهي نابعة من صميم عملية الإبلاغ والتلقي، التي تختزل الزمن وتستشرف الأحداث بعمق وصدق تحققها في علم الله، وتضفي على الحدث المنصرم طابع التجدد والحيوية، ليعيش المتلقي مع الخطاب وكأنه يعيشه لحظة نزوله على الرسول محمد ﷺ، إنها عملية تنسيق وتمييز يرتد فيها الماضي من خلال الحاضر وربطه بالمستقبل؛ حيث عمليات الاختيار ثم البناء كشكل نهائي للخطاب^(٣)، وإن الوظيفة الأساسية للغة هي الإبلاغ ولا يحصل إبلاغ إلا عن طريق ربط النحو بالبلاغة^(٤).

وإن التركيز على المظهر النحوي والبلاغي للالتفات الفعلي « لا يعني إمكان إلغاء المظاهر الأخرى، تركيبية كانت أو دلالية (a-syntaxiques/semantiques) »^(٥).

(١) ينظر : مفهوم العدول في الدراسات الأسلوبية المعاصرة : ١٥٦ .

(٢) ينظر : بلاغة الخطاب وعلم النص : ١٢٧ .

(٣) ينظر : الصورة في التشكيل الشعري : ٦٢ .

(٤) ينظر : السيميائية والنص الأدبي ، أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وآدابها ، النص القرآني

المحكم وميدان رفض الترادف وربط النحو بالبلاغة ، عمار ساسي : ١٦٠ .

(٥) تحليل الخطاب الروائي ، سعيد يقطين : ٣١ .

المبحث الأول

سياقات التحول

سياقات الماضي / المضارع

سياقات المضارع / الماضي

١ - سياق الماضي / المضارع :

هذا السياق يمثل أول صور التحول في الالتفات الفعلي الذي يجسد موضوع الانحراف الأسلوبي، ويكمن دوره البلاغي في الخطاب القرآني من خلال قدرته على الإيحاء بالأفكار والأحداث، وما من شك في أن خاصية التنويع التي اتسم بها القرآن الكريم تسهم في إحداث جمالية التقبل حين تنتقل بالمتلقي من نمط خطابي إلى نمط خطابي جديد، فخاصية التنويع تضيف على النص نوعاً من النشاط يحرك وعي المتلقي، ويبعث فيه روح التفاعل بوصفه خروجاً عن المألوف يحقق غرضاً إبلاغياً وجمالياً في آن واحد، وفي التراث البلاغي نجد تحديد ابن الأثير لبلاغة سياق التحول من صيغة الفعل الماضي إلى صيغة الفعل المضارع بقوله : « اعلم أن الفعل إذا أتى به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي تقع فيها، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي »^(١).

(١) المثل السائر : ١٩٤/٢ .

ويقول في كتابه « الجامع الكبير » عن بلاغة هذا السياق : « وهو قسم من التأليف ، لطيف المأخذ ، دقيق المغزى »^(١) .

إن عملية التحول في الصورة الالتفائية إلى الفعل المضارع بعد الماضي في القرآن الكريم تخضع لضوابط وحالات ونكت بلاغية يراد بها تنزيل حوادث الماضي منزلة الحاضر ، وهذا للإشارة إلى أن حدوثها واقع متجدد ، مثلها في ذلك مثل حوادث الحاضر لغرض تقريب الصورة وتجديد وقوعها^(٢) .

ويتيح الفعل المضارع بصيغته المختلفة ذلك التحول ، إذ « يدل على الحال ، أي على وقوع الحدث الآن ، وهذه دلالاته الأصلية ، ومن هنا كانت صيغته أقدر الصيغ على تصوير الأحداث ، لأنها تحضر مشهد حدوثها وكأن العين تراها وهي تقع ، ولهذا الفعل مواقع جاذبة في كثير من الأساليب حين يقصد به إلى ذلك ، وترى المتكلمين من ذوي الخبرة بأسرار الكلمات يعبرون به عن الأحداث الهامة التي يريدون إبرازها وتقريرها في خيال السامع »^(٣) ؛ لأن الفعل المضارع يُوهم بأن الأحداث لما تنقضى ، ولما يمرّ عليها زمن ما ، فيذهب في ظن المتلقي أن المرسل لا يقيم فاصلاً بين زمن الخبر وزمن الخطاب ، ومن ثمة تتأسس المعيشة الأنبية للوقائع المسرودة ، ويقع تقبلها على سبيل المعيشة المشهدية ، حتى لكأننا نشاهد الحدث وهو يُروى لنا ، مجسماً للعيان ، ممّا يضيفي لا محالة تعميقاً أكثر للوظيفة التأثيرية^(٤) ، إن دراسة الوظيفة البلاغية للأبنية النحوية تتيح لنا معرفة الوظيفة الجمالية للبنية النحوية من خلال رؤية حركة النص بكل كثافته الفاعلة التي تؤدي إلى لفت الانتباه لتشكيلها الذي يغدو جمالياً ، واستكشاف دلالات جديدة تتصل ببقية العلاقات النصية .

(١) الجامع الكبير : ١٠٢ .

(٢) ينظر : الزمن في القرآن الكريم (دراسة دلالية للأفعال الواردة فيه) ، د. بكرى عبد الكريم : ٩١

(٣) خصائص التراكيب : ٢٠٦ .

(٤) مقاربات في الرواية والأفصوة ، بشير الوسلاتي : ١٢٩ .

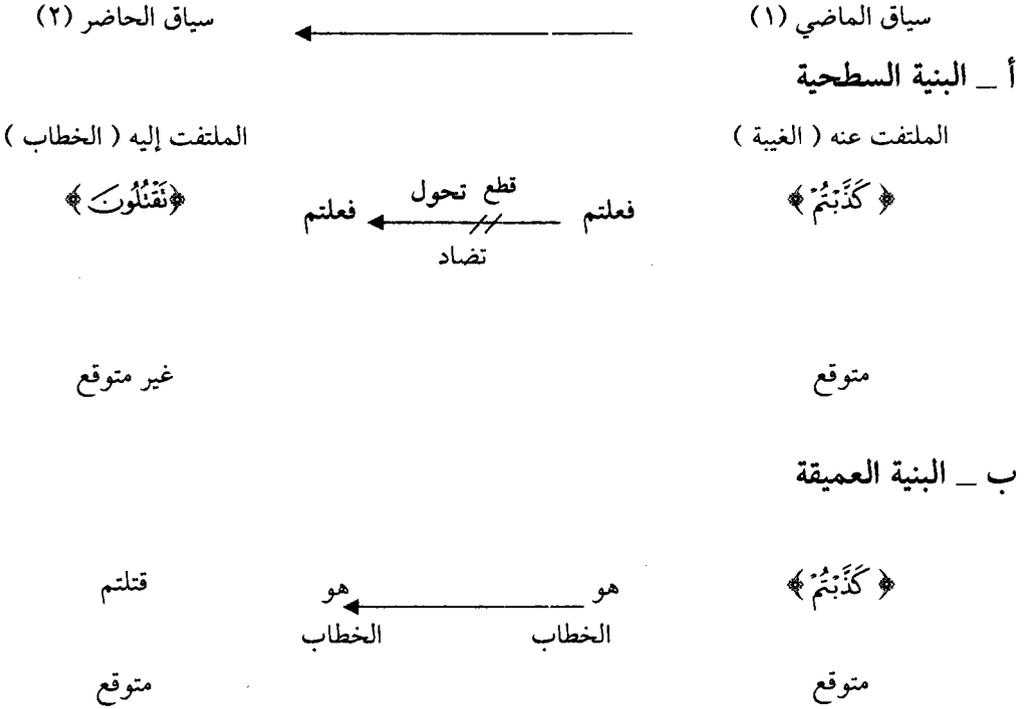
ويعد النظام الفعلي أحد أبرز هذه الأبنية النحوية المشكّلة للصورة الالتفائية في القرآن الكريم والذي يمثل في شكله التبادلي بين سياق (الماضي/ المضارع) أحد جماليات تشكيل الصورة الالتفائية .

ويمكن معاينة هذا السياق وكيفية اشتغاله في نصوص التنزيل، ففي سياق بيان جنایات (بني إسرائيل) مع أنبياء الله يطالعنا في سياق التحول من صيغة الماضي إلى صيغة المضارع قوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبْنَا مُوسَىٰ ذَاتَ الْيَمِينِ وَقَفَّيْنَا مِنْهُ بَعْدَهُ بِالرُّسُلِ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]، نجد أن هذه الآية « انتقال من الإنحاء باللائمة على بني إسرائيل في أفعالهم مع الرسول موسى عليه السلام بما قابلوه به من العصيان والتبرم والتعلل في قبول الشريعة، وبما خالفوا من أحكام التوراة بعد موته إلى قرب مجيء الإسلام إلى الإنحاء عليهم بسوء مقابلتهم للرسول الذين أتوا بعد موسى ... مؤيدين لشريعته ومفسرين وباعثين للأمة على تجديد العمل بالشريعة، مع تعدد هؤلاء الرسل واختلاف مشاربهم في الدعوة »^(١) .

إن بنية هذه الآية تكشف لنا شكل المغايرة الحاصلة بين الأنساق الفعلية (كذبتم) الذي يمثل نسق الفعل الماضي و(تقتلون) والذي يمثل نسق الفعل المضارع. ويمكن بيان شكل البنية للصورة الالتفائية الفعلية بسياقها (الماضي/ المضارع) لهذه الآية بالشكل الآتي :

(١) تفسير التحرير والتنوير : ٥٩٢/١ .

صيغة الخطاب



شكل البنية

يأتي هذا النص كما أسلفنا في سياق الحديث عن بني إسرائيل، ويحكي الصورة البشعة التي كانت تصنعها بالأنبياء^(١).

ومن خلال بنية الصورة الالتفائية تتجسد الأفعال والجنايات التي ارتكبوها، وهي محددة في فعل (الاستكبار) « والاستكبار الاتصاف بالكبر، وهو هنا الترفع عن اتباع الرسل وإعجاب المتكبرين بأنفسهم ، واعتقاد أنهم أعلى من أن يطيعوا الرسل ويكونوا أتباعاً لهم ، فالسين والتاء في استكبرتم للمبالغة^(٢) .

(١) ينظر : المعاني في ضوء أساليب القرآن : ٢٥٧ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير : ٥٩٨/١ .

إن فعل الاستكبار الذي مارسه اليهود كان سبباً في ظهور أفعال الصورة الالفتائية المتمثلة في فعل (التكذيب) وفعل (القتل) فالفاء في قوله تعالى : ﴿فَفَرِقَآ﴾ سببية، فإنهم لما استكبروا بلغ بهم العصيان الى حد أن كذبوا فريقاً، أي : صرحوا بتكذيبهم أو عاملوهم معاملة الكاذب، وقتلوا فريقاً آخر^(١).

وكان ممن كذبه من الأنبياء عيسى ومحمد (عليهما الصلاة والسلام)، وعلى صعيد فعل (القتل) كان ممن قتلوه يحيى وزكريا (عليهما السلام)^(٢).

ويقول الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) عن بلاغة هذا التحول في الصورة الالفتائية: « فإن قلت: هلا قيل : وفريقاً قتلتم؟ قلتُ: هو على وجهين : أن يراد الحال الماضية لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب، وأن يراد : « وفريقاً تقتلونهم بعد لأنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أنني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسمتم له الشاة »^(٣)، إن بلاغة هذه الصورة وأسرار تشكيلها متجسدة في تمثيل صورة فعل القتل أمام المشاهدين، وهي صورة متحركة متجددة، حدثت من اليهود فيما مضى، وقد تحدث منهم بعد، وفيها تشنيع فظيع على هؤلاء الذين يتكبرون على ما جاء به الرسول ويكذبون بعضهم، ويقتلون البعض الآخر^(٤)، وفيها تقييح وتغيير من اليهود بشكل عام وتوبيخ لليهود الموجودين في زمن النبي محمد ﷺ بشكل خاص، وحضهم على التخلي عما يتمسكون به من عقائد^(٥)، وعلى مستوى البنية

(١) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٥٩٨/١ .

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٩/٢ .

(٣) الكشاف : ٨٥ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٣٥٨/١ ، وإرشاد العقل السليم : ١٢٧/١ .

(٤) ينظر : فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم : ١٤٩ .

(٥) ينظر : المعاني في ضوء أساليب القرآن : ٢٥٧-٢٥٨ .

الشكلية العميقة كان مقتضى الظاهر أن يقال : (فريقاً قتلتم) على غرار قوله :
(فريقاً كذبتم) لكنه عدل والتفت عن ذلك لغرض مقصود وليس لمجرد التغيير.

ومن النصوص القرآنية التي تطالعنا قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ زَيْنَ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ
مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة: ٢١٢] .

تتضح أطراف الصورة الالتفافية في هذه الآية في قوله : « زين » الذي يمثل
سياق الصورة الأول (الماضي) في حين يمثل قوله تعالى : « ويسخرون » سياق
الصورة الملتفت إليه (المضارع)، والمزين « هو خالقها ومخترعها وخالق الكفر
ويزينها الشيطان بوسوسته وإغوائه »^(١) وقد « خُصَّ الذين كفروا بالذكر لقبولهم
التزيين جملة، وإقبالهم على الدنيا ، وإعراضهم عن الآخرة بسببها، والتزيين من
الله تعالى واقع للكل، وقد جعل الله ما على الأرض زينة لها ليلبو الخلق أيهم
أحسن عملاً، فالمؤمنون الذين هم على سنن الشرع لم تفتنهم الزينة، والكفار
تملكهم لأنهم لا يعتقدون غيرها »^(٢) .

أما بالنسبة لسياق التحول في قوله : « ويسخرون » نجد أن السخرية ها هنا
هي عبارة عن « تعجب مشوب باحتقار الحال المتعجب منها »^(٣) ووجه سخرية
الكفار بالمؤمنين أنهم احتقروا رأيهم في إعراضهم عن اللذات لامثال أمر
الرسول، وأفنوهم في ذلك ورأوهم قد أضعاعوا حظوظهم وراء أوهام
باطلة، لأن الكفار اعتقدوا أن ما مضى من حياتهم في غير نعمة قد ضاع عليهم إذ

(١) المحرر الوجيز : ١٨٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه : الصفحة نفسها .

(٣) تفسير التحرير والتنوير : ٢٩٦/٢ .

لا خلود في الدنيا ولا حياة بعدها، فالسخرية ناشئة عن فعل التزيين عندهم، وقد جيء بالفعل الماضي في التزيين وبالفعل المضارع في السخرية لغرض دلالي وبلاغي، إذ إن فعل التزيين أمر مستقر فيهم، لأن الماضي يدل التحقق، وأن معنى يسخرون متكرر متجدد فيهم، لأن صيغة الفعل المضارع تفيد التجدد، « وعلى هذا فإنما اختير لفعل التزيين خصوص الماضي، ولفعل السخرية خصوص المضارعة إيثار لكل من الصفتين بالفعل التي هي به أجدر؛ لأن التزيين لما كان هو الأسبق في الوجود وهو منشأ السخرية أوثر بما يدل على التحقق، ليدل على ملكه، واعتمد في دلالة على الاستمرار بالاستتباع، والسخرية لما كانت مترتبة على التزيين، وكان تكررها يزيد في الذم، إذ لا يليق بذم المروءة السخرية بغيره، أوثرت بما يدل على الاستمرار، واعتمد في دلالتها على التحقق دلالة الالتزام، لأن الشيء المستمر لا يكون إلا محققاً»^(١).

ويمكن بيان شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :

(١) تفسير التحرير والتنوير : ٢/٢٩٦-٢٩٧ .

صيغة الخطاب

سياق المضارع (٢)

سياق الماضي (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت عنه (الماضي)

الملتفت إليه (المضارع)

﴿ زَيْنَ ﴾

فُعل قطع تحول يفعلون
تضاد

﴿ وَسَخِرُونَ ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

﴿ زَيْنَ ﴾

فُعل فعلوا
الماضي الماضي

سَخِرُوا

متوقع

متوقع

شكل البنية

ومن الآيات التي جاءت متشكلة بسياق التحول من (الماضي/المضارع)

قوله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] ، يبين التصوير الأدائي بالالتفات عن مدى الضلال النفسية

ونقل الأحاسيس الداخلية نقلاً شعورياً وإيحائياً، وإن ما بين طرفي الصورة من

صلات في (الواقع والشعور والأثر النفسي)، ما جعل هذه الإيحاءات تزيد في

الدلالة، فهية قلوب المؤمنين تكون مشغولة بذكر خالقها وربها (الله) سبحانه

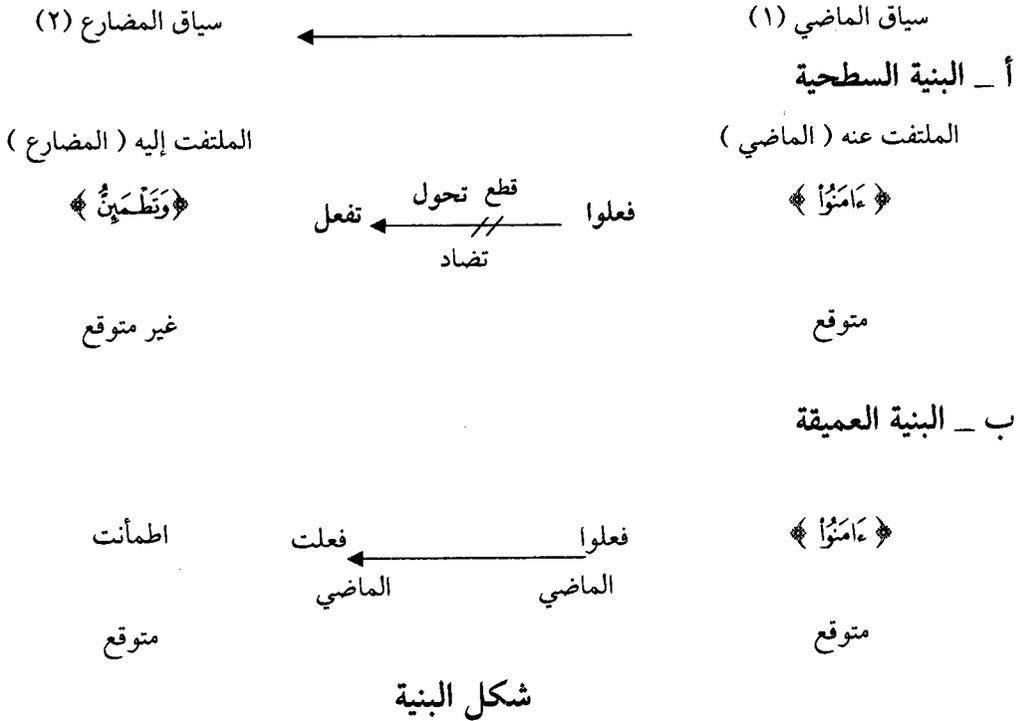
وتعالى، وهي لا تستقر ولا تسكن إلا بذكره، أي : بكلامه المعجز الذي لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقلوبهم تطمئن أنساً بالله واعتماداً عليه ورجاء

منه، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، أو بذكر دلائله الدالة على وجوده

ووجدانيته، أو بكلامه (القرآن الكريم) الذي هو أقوى المعجزات^(١)، وفعل الاطمئنان الذي مثل طرف العدول والتحول في قوله تعالى: (وتطمئن) هو «السكون»، واستعير هنا لليقين وعدم الشك، لأن الشك يستعار له الاضطراب^(٢) ويكون هذا السكون والاطمئنان عن طريق ذكر الله بأشكاله المختلفة، والعدول من سياق الماضي إلى سياق المضارع لنكتة بلاغية تتعلق بإفادة «دوام الاطمئنان وتجده حسب تجدد المنزل من الذكر»^(٣)، فإنه لم يقل: واطمأنت قلوبهم لتلك النكتة البلاغية. ويمكن بيان شكل البنية لهذه الصورة بالآتي:

صيغة الخطاب



(١) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٣٢٩/٣.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ١٣٧/١٣.

(٣) روح المعاني: ١٤٩/١٣.

إن للخطاب القرآني أفكاراً ومضامين تجسدت في أشكال بلاغية، وباختلاف الشكل تختلف استجابة المتلقي الأكثر عمقاً من وجدان ومواقف^(١)، وهذا الشكل يكمن في كيفية الأداء التركيبي والبناء اللغوي للنص، وإن عملية تذوق جماليات (النص القرآني) ودقة صياغته البيانية يكشف عن مدى بلاغة خطابه في عرض المواقف والأفكار المختلفة^(٢).

وفي سياق الحديث عن صد الكفار الناس عن دين الله، وعن المسجد الحرام الذي جعله الله للناس كافة نجد سياق التحول في الصورة الالتفاتية من صيغة الماضي الى صيغة المضارع في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصِدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِمِ يُظْمَرُ نَذْرَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥] .

إن في هذه الآية إشارة إلى صد مشركي العرب رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عام الحديدية، وذلك أنه لم يعلم لهم صد قبل ذلك الجمع^(٣) .
وتتضح على المستوى الشكلي معالم هذه الصورة بالآتي :

(١) ينظر : مبادئ النقد الأدبي ، رتشاردز : ٢٢٢ .

(٢) ينظر : في الأدب ومذاهبه المعاصرة ، علي عبد الخالق علي دومة : ١٦٢ .

(٣) ينظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ١٦٢/١٧ .

صيغة الخطاب

سياق المضارع (٢)

سياق الماضي (١)

أ - البنية السطحية

الملتفت عنه (الماضي)

﴿كَفَرُوا﴾

فعلوا ← قطع تحول // ← تفعل
تضاد

﴿وَيَصُدُّونَ﴾

الملتفت إليه (المضارع)

متوقع

غير متوقع

ب - البنية العميقة

﴿كَفَرُوا﴾

فعلوا ← فعلت
الماضي الماضي

صدوا

متوقع

متوقع

شكل البنية

إن صد الكفار عن سبيل الله يعني صدهم عن الإسلام، فصدهم عنه هو الذي حقق لهم عذاب النار، كما حقق اهتداء المؤمنين إليه لهم نعيم الجنة، والصد عن المسجد الحرام مما شمله فعل الصد عن سبيل الله فخص بالذكر للاهتمام به^(١).

ومما يراه ابن الأثير في بلاغة هذه الصورة قوله : « فإنه إنما عطف المستقبل على الماضي، لأن كفرهم كان ووجد، ولم يستجدوا بعده كفرًا ثانيًا، وصددهم متجدد على الأيام لم يمض كونه، وإنما هو مستمر، يُستأنف في كل حين »^(٢) ،

(١) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢٣٦/١٧ .

(٢) المثل السائر : ١٩٧/٢ ، والطرز : ١٣٨/٢ ، وإرشاد العقل السليم : ١٠٣/٦ .

فصدودهم مستمر دائم^(١) وهذه الصورة فيها فضلاً عن ذلك استحضاراً للصورة الماضية تهويلاً لأمر الصد^(٢).

وفي سياق نبد الله سبحانه وتعالى الشرك به وقول الزور وعبادة الأوثان تتجلى الصورة الالتفائية بأبعادها الدلالية في مشهد تصويري مفرغ تقشعرُّ له الأبدان، لبيان عظم وقبح هذه الأفعال في قوله جل شأنه: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ. وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يَتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ. وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ﴾.

يضم هذا النص عدة مقاصد إبلاغية، فمنها ذم الشرك بالله سبحانه وتعالى ، وأول هذه المقاصد تعظيم حرمت الله، والمقصود بها هنا أفعال الحج^(٣) ومنها: إحلال الله سبحانه للمسلمين الأنعام جميعها إلا ما ذكر تحريمه في غير موضع من القرآن الكريم، ثم ضرب الله مثلاً لمن يشرك به، والذي جاء من خلال بنية الصورة الالتفائية في قوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ﴾، إذ جرت عملية التحول في بنية الأفعال من الماضي في قوله: «خرَّ» إلى صيغة المضارع في قوله: «فتخطفه»، ففي «إيثار المضارع إشعار باستحضار تلك الحالة العجيبة في مشاهد المخاطب تعجيباً له»^(٤) ومعنى لفظ (خرَّ) الذي يرد في سياق الماضي أي «سقط سقوطاً

(١) ينظر: الكشاف: ٦٩٣.

(٢) ينظر: روح المعاني: ١٣٨/١٧.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز: ١٣١٠-١٣١١.

(٤) روح المعاني: ١٤٩/١٧.

يُسمع منه خرير، والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو^(١). وأما بالنسبة للفظ (خطف) الذي جاء في سياق المضارع فيعني « الاختلاس بالسرعة وهو للطائر الذي كأنه يخطف شيئاً في طيرانه^(٢) ».

والصورة التشبيهية تغلف الصورة الالفتائية، وتكمن أبعاد هذه الصورة فيما تحدثه من تشبيه الأهواء والمعاصي الموزعة المردية .

ومنها الشرك بالله بخطف جوارح الطير أو تهوي به الريح عندما تسقطه وتقذفه في مكان سحيق^(٣) ، والسحيق : « البعيد فلا نجاة لمن حل فيه^(٤) ، ويرى الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) في بلاغة هذه الصورة التشبيهية : « يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق ، فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية ، بأن صور حاله بصورة من خرّ من السماء فاخطفه الطير فتفرق فزعاً في حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة ، وإن كان مفرقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء ، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بها عصفت به في بعض المهاوي المتلفة^(٥) » .

وهذه قراءة نافذة تكشف ما في بنية الصورة التشبيهية من قيمة بلاغية في تصوير المعنى والكشف عنه ، ثم أثره في النفس في تبشيع صورة الإشراك بالله

(١) المفردات في غريب القرآن : ١٥٠-١٥١ .

(٢) ينظر : المصدر نفسه : ١٥٨ .

(٣) ينظر : روح المعاني : ١٤٦/١٧-١٥٠ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير : ٢٥٥/١٧ .

(٥) الكشاف : ٦٩٥ .

سبحانه^(١)، ويرى ابن الأثير في قراءته لهذه الآية بلاغة تحققت في استحضار صورة خطف الطير للذي يشرك بالله وهويُّ الريح به^(٢)، وهكذا بدا (التركيب) للصورة الالتفاتية في أنظمة هذه الأفعال وعلاقات التركيب البلاغي للصورة التشبيهية، إذ أن الدور الجمالي لكل عنصر من عناصر تشكيل الصورة لا يتحقق إلا إذا كان متجهاً إلى إقامة التركيب، فالأدوار الجمالية لعناصر النظام اللغوي إنما تتحقق في علاقات هذه العناصر بعضها ببعض، فالصورة نشاط لغوي غير مفارق للتركيب، بل إن نشاط عناصر التركيب وعملها هو نشاط تصويري^(٣)، ومفهوم (العلاقة) هو عنصر من عناصر التركيب ينهض على أن النظام النحوي في العمل الأدبي له جماليات تبدى في طرائق نظم الكلمات، وكيفيات العدول من صيغة إلى أخرى، وآثارها من الجهتين التركيبية والرمزية^(٤) (الدلالية).

ويتضح شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :

-
- (١) ينظر : الاستعارة في القرآن الكريم ، أحمد فتحي رمضان ، رسالة ماجستير ، جامعة الموصل ، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، ١٩٨٨ م : ٣٥ .
- (٢) ينظر : المثل السائر : ١٩٧/٢ .
- (٣) ينظر : مدخل إلى علم الجمال الأدبي ، عبد المنعم تليمة : ١٢٧ .
- (٤) ينظر : المصدر السابق نفسه : ١٢٤ .

صيغة الخطاب

سياق المضارع (٢)

سياق الماضي (١)

أ - البنية السطحية

الملتفت عنه (الماضي)

الملتفت إليه (المضارع)

﴿ حَرَّ ﴾

فلَّ ← قطع تحول ← تفعل
تضاد

﴿ فَتَحَطَّفُهُ ﴾

غير متوقع

متوقع

ب - البنية العميقة

﴿ حَرَّ ﴾

فلَّ ← فعلت
الماضي الماضي

فحطفته

متوقع

متوقع

شكل البنية

ونلاحظ في سياق متصل : أن البيان القرآني عندما يتناول موضوعات الطبيعة التي تمثل بديع خلق الله استعمل نسق الفعل المضارع بدلاً من الفعل الماضي ليفيد بذلك فائدة بلاغية تتعلق باستمرار هذه النعم وتجدها حالاً بعد حال ، ومن أمثلة ذلك وصفه سبحانه وتعالى للأرض الزاهية بالنبات في مقام يدل على الإنعام، إذ وصفها بالخضرة والزينة^(١) وذلك نجده في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحج: ٦٣] .

ويمكن أن نبين شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :

(١) ينظر : المشاهد في القرآن : ٤٠٠ .

صيغة الخطاب

سياق المضارع (٢)

سياق الماضي (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت عنه (الماضي)

الملتفت إليه (المضارع)

﴿ فَتَصْبِحُ ﴾

أفعل ← قطع تحول // ← تفعل
تضاد

﴿ أَنْزَلَ ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

أصبحت

أفعل ← أفعل
الماضي الماضي

﴿ أَنْزَلَ ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

ويرى ابن الأثير في بلاغة هذه الصورة قوله : « فقال : (فتصبح الأرض مخضرة) ولم يقل : فأصبحت، عطفاً على (أنزل) وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، فإنزال الماء مضى وجوده، واخضرار الأرض باق لم يمض ، وهذا كما تقول : « أنعم عليّ فلان فأروح وأغدو شاكرًا له » ولو قلت : فرحت وغدوت شاكرًا له ، لم يقع ذلك الموقع لأنه يدل على ماضٍ قد كان وانقضى»^(١) فصورة الأرض أصبحت مزدانة بالخضرة، وفي هذا التحول قصد يتجسد في

(١) المثل السائر : ١٩٨/٢ ، والكشاف : ٧٠٠ ، والبرهان في علوم القرآن : ٣٢١/٣ .

المبالغة في تحقيق اخضرار الأرض لأهميته، إذ هو المقصود بالإنزال^(١)، وهو تنبيه على قدرته سبحانه وتعالى وتقرير بها^(٢).

لذلك نجد أن البيان القرآني « لا يعدل من تعبير إلى تعبير إلا يصحبه عدول من معنى إلى معنى »^(٣)، ونجد أمثلة أخرى تطالعنا في هذا السياق، ففي مجال بيان القدرة الباهرة لله سبحانه وتعالى يتجلى لنا قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَمْنُونَةٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر : ٩]

لقد سيقت هذه الآية للفت النظر إلى صورة إرسال الرياح بقدرة الله الباهرة، وما يتبعها من نعم تتجسد في ثنائية ضدية بين قطبين هما (الإماتة/الإحياء) والتي تنامي من خلال سلسلة الثنائيات الضدية المحورية لبنية الصورة الالفتائية بين نسق الفعل (أرسل) الذي يمثل سياق الماضي والفعل (تثير) الذي يمثل سياق المضارع الملتفت إليه في بنية الصورة، واللذان يشكلان بدورهما صراعاً ضدياً آخر بين (الانقطاع/الاستمرارية) إذ يمثل طرف الصورة الأول (الملتفت عنه) الفعل الماضي طرفاً انقطاعياً في قوله : « أرسل » ، إذ لم تتم عملية إحداث الأثر من جرّاء إرسال الرياح فلا تزال البلد ميتة، حتى يأتي المحرك لعملية الإحياء والمتجسد في طرف الصورة الثاني (الملتفت إليه) الفعل المضارع (تثير) الذي ينتج عن إرسال الرياح، ومن ثم نتج عن ذلك الإحياء فالفعل المضارع جسّد عملية الاستمرارية التي تتحقق بموجبها حركة الرياح بإثارة السحاب.

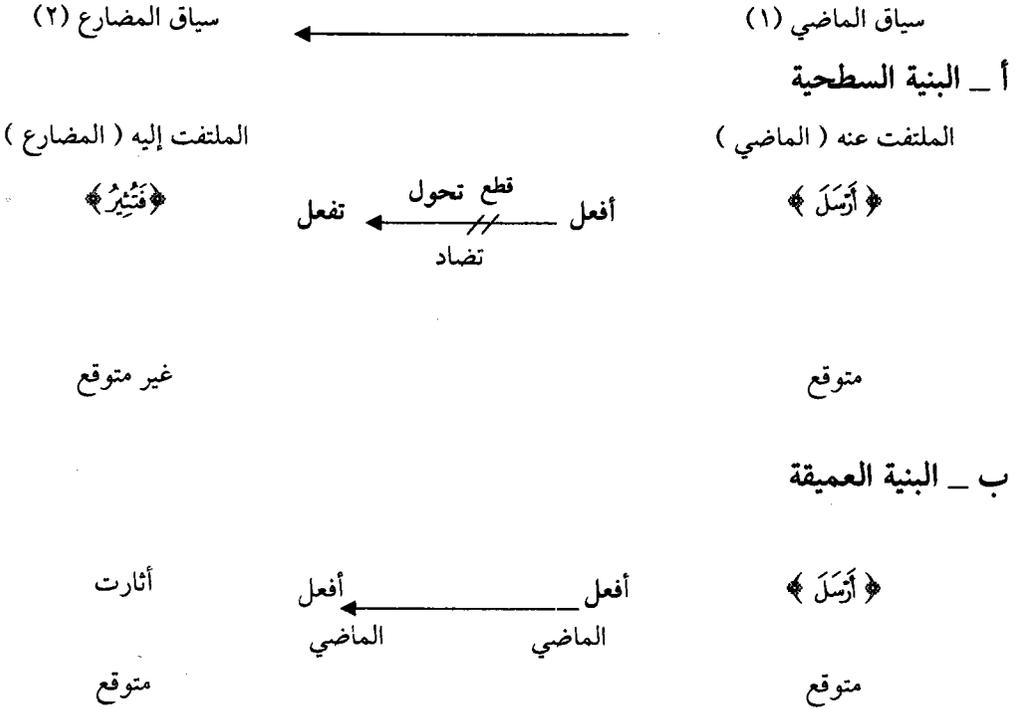
ويمكن بيان شكل البنية للصورة الالفتائية في هذه الآية بالآتي :

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن : ٣٤٧/٣ .

(٢) ينظر : الأمالي الشجرية : ٦/٢ .

(٣) معاني القرآن ، د. فاضل السامرائي : ٧٥١/٢ .

صيغة الخطاب



شكل البنية

وهكذا يتجلى الخطاب القرآني بتتابع تحويلات تتيح الانتقال من شكل إلى شكل آخر ضمن بنية الصورة الالفتائية، وأن عملية استكناه المظهر البلاغي ليست إلغاء للمظهر النحوي أو إغفاله، وإنما هو توسيع له لمعرفة أبعاد تشكله وعمقه الدلالي.

ويرى الزمخشري في بلاغة هذا الأنموذج ما قوله : « فإن قلت : لم جاء (فتشير) على المضارعة دون ما قبله، وما بعده ؟ قلت : ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ، هكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية، بحال تستغرب، أو تهتم المخاطب أو غير ذلك»^(١) ، وعلى هذا الأساس كان التحول من صيغة الفعل الماضي إلى

(١) الكشاف : ٨٨٢ ، والمثل السائر : ١٩٥/٢ ، والطراز : ١٣٨/٢ ، والفوائد المشوق : ١٠٢ ، وأساليب بلاغية ، د. أحمد مطلوب : ٢٨٤ ، والمشاهد في القرآن : ٤٠١ .

المضارع دون التعبير عن الحدث بصورته ذات الكيفية الطبيعية أي (ماض = ماض) نكت بلاغية عديدة تتضح من خلال السياق العام للخطاب، وفي هذه الآية «أخبر سبحانه عن نوع من أنواع بديع صنعه، وعظيم قدرته، ليتفكروا في ذلك ويعتبروا به، «فتشير سبحانه»، جاءت بالمضارع بعد الماضي «أرسل»، استحضاراً للصورة لأن ذلك أدخل في اعتبار المعبرين»^(١).

ونجد في هذا النص صورة التفاتية أخرى واقعة في الضمائر بين ضمير الغيبة في قوله تعالى: «والله» وضمير التكلم في قوله: (فسقناه) «وكان مقتضى الظاهر أن يقول: فساقه، ولكنه انتقل إلى التكلم ليحدث إيقاظاً ولفناً عند هذا المقطع المهم من مقاطع المعنى، لأن سوق السحاب إلى الأرض الميتة فتحيا ضرب من قسمة الأرزاق، فناسب أن ينقل الإسناد إلى ضمير ذي الجلالة سبحانه»^(٢) تعظيماً واختصاصاً لبيان القدرة الإلهية للخالق سبحانه، وإيراد الفعلين (أرسل، سقناه) على صيغة نسق الماضي للدلالة على التحقيق، ولما فيهما من مزيد الصنع، ولتكميل المماثلة بين إحياء الأرض وبين البعث الذي شبه به بقوله: «كذلك النشور»^(٣).

أي: هكذا ينشر الله سبحانه الموتى بعد بلاهم في قبورهم، فيحييهم بعد فنائهم، كما أحيينا هذه الأرض بالغيث بعد مماتها»^(٤).

فهذه صورة التفاتية مركبة من نمطين من أنماط الصورة (الفعلية/الضمائرية) وقد تم من خلالهما إظهار عظمة الخالق في قدرته الباهرة على الخلق ومزج

(١) من بلاغة النظم العربي: ٢٠٥/١.

(٢) خصائص التراكيب: ١٩٩.

(٣) روح المعاني: ١٧٢/٢٢.

(٤) ينظر: جامع البيان عن تأويل أي القرآن

صورتين في صورة واحدة ، صورة إحياء الأرض بالنبات ، وصورة إحياء الإنسان بعد الممات ، ولكن الصورة الثانية أجملت بالصورة الالتفائية .

إن بنية الصورة بشكلها العام « وسيلة من الوسائل المتعددة التي يتصرف المتكلم بها لنقل رسالته وتجسيدها »^(١) والصورة الالتفائية قادرة على تجسيد الأفكار والموضوعات المتعلقة ببنية الخطاب .

ومن النصوص القرآنية التي جاءت مشكلة بالصورة الالتفائية (سياق الماضي / المضارع) قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٢١] .

تُجسد هذه الآية مجموعة مشاهد كونية تبتدى من إنزال الماء من السماء مروراً بإدخاله في الأرض على هيئة ينابيع وعيون ومجارٍ ، ثم إخراج النبات من خلاله ، وانتهاءً باصفرار هذا النبات وجفافه ، فتراه يهيج أي يبس ثم تراه مصفراً من بعد خضرته ونضارته^(٢) ، وكل هذه الصور تدعو الإنسان إلى التأمل في خلق الله سبحانه وتعالى وكيف أن الحياة تبتدى ثم تزول بقدره الخالق ، والتي جسدها الصورة الأخيرة في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ فتاتاً متكسراً ، فالحطام ما تفتت وتكسر من النبات وغيره^(٣) .

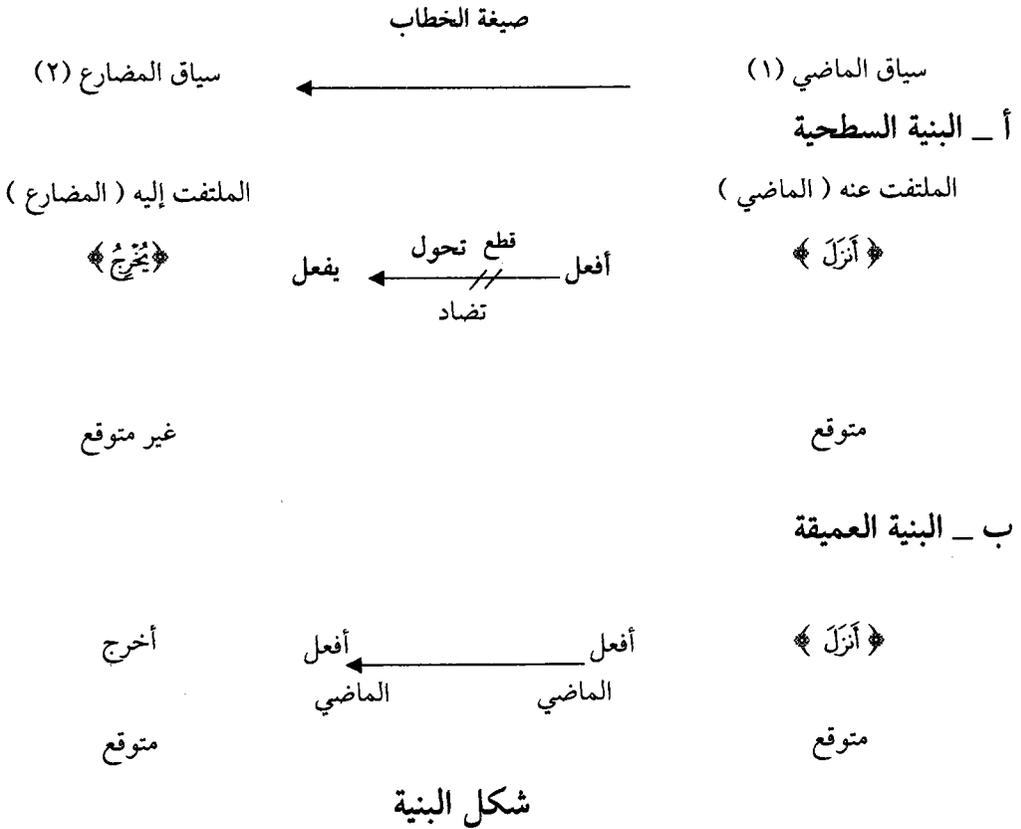
(١) دليل الدراسات الأسلوبية ، جوزيف ميشال شريم : ٧٩ .

(٢) ينظر : روح المعاني : ٢٥٦/٢٣ .

(٣) ينظر : مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، المعروف بـ (تفسير النسفي) ، النسفي : ٨٢/٤ .

وهذا يفسر صيغة التحول من الماضي في قوله تعالى : « أنزل » إلى صيغة المضارع « ثم يخرج » ، ففيه استحضر لهذه المشاهد الكونية ، وجعلها متجددة مستمرة في أنظار الناس للتأمل في عظمة الخالق وقدرته الباهرة على الإحياء والإماتة في آن واحد ، وقد صُدرت الآية بصيغة الاستفهام التقريري للدلالة على التأمل والاعتبار والابتعاد عن الجحود والإنكار .

ويمكن بيان شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :



أنموذج الأفعال (سياق الماضي / المضارع)

الآيات	السور	الملفت إليه المضارع	الملفت عنه الماضي	الشاهد القرآني	ت
٢١٢	البقرة	يسخرون	زين	﴿ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ ﴾	
١١٢	آل عمران	يعتدون	عصوا	﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾	
١٥٤	آل عمران	يغشى	أنزل	﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ ... ﴾	
١٨٧	آل عمران	يشترون	اشتروا	﴿ وَأَشْتَرُوا بِهِمْ مِّنَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا شَتَرُوا ﴾	
٧٠	المائدة	يقتلون	كذبوا	﴿ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾	
٩٩	الأنعام	تخرج	فأخرجنا	﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا ﴾	
١٣١	الأعراف	تصبهم	جاءتهم	﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبُّهُمْ سَيِّئَةٌ ... ﴾	
٤٧	الأنفال	يصدون	خرجوا	﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بِطَرَأٍ وَّرِيَاءِ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾	

أنموذج الأفعال (سياق الماضي / المضارع)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه الماضي	الملتفت إليه المضارع	السور	الآيات
٩	﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِرْهَامِ الرُّوْحِ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْدِلًا... ﴾	ذهب	يجادلنا	هود	٧٤
١٠	﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ... ﴾	أنفقوا	يدرءون	الرعد	٢٢
١١	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ ﴾	أرسلنا	يأتيهم	الحجر	١٠-١١
١٢	﴿ الَّذِينَ صَدَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾	صبروا	يتوكلون	النحل	٤٢
١٣	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ ﴾	أرسلنا	نوحى	النحل	٤٣
١٤	﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾	آمنوا	يتوكلون	النحل	٩٩
١٥	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ ﴾	أرسلنا	نوحى	الأنبياء	٢٥

أنموذج الأفعال (سياق الماضي / المضارع)

الآيات	السور	الملفت إليه المضارع	الملفت عنه الماضي	الشاهد القرآني	ت
٦٥	الحج	يمسك	سخر	﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ... وَيَمْسِكُ السَّمَاءَ...﴾	١
٧٦	المؤمنون	يتضرعون	استكانوا	﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضِرُّعُونَ﴾	١
٨-٧	الفرقان	يلقي	أنزل	﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ تَذِيرًا * أَوْ يُنْفِقُ إِلَيْهِ كَفْرًا﴾	١
٢٠	الفرقان	ليأكلون	أرسلنا	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾	١
٢٠	القصص	يأتَمرون	قال	﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يٰمُوسَىٰ إِنَّكَ أَنْتَ أَعْلَمُ بِالْحَقِّ﴾	٢
٥٩	العنكبوت	يتوكلون	صبروا	﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾	٢
١٠	الروم	يستهزئون	كذبوا	﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا الشُّوْءَ الَّذِي كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا اللَّهُ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾	٢

أنموذج الأفعال (سياق الماضي / المضارع)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه الماضي	الملتفت إليه المضارع	السور	الآيات
٢١	﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾	بلغت	تظنون	الأحزاب	١٠
٢٢	﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُنزِلَ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾	أجرمنا	تعملون	سبأ	٢٥
٢٣	﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ ﴾	كفروا	يقذفون	سبأ	٥٣
٢٤	﴿ ذَلِكَ كُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾	كفرتم	تؤمنوا	غافر	١٢
٢٥	﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾	أمنوا	يتوكلون	الشورى	٣٦
٢٦	﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ... ﴾	فرح	تصبهم	الشورى	٤٨
٢٧	﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾	أرسلنا	يأتيهم	الزخرف	٧-٦
٢٨	﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَسْفَلَ الْكُفَّارِ بَنَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾	أعجب	يهيج	الحديد	٢٠
٢٩	﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُحَدِّثُكَ ﴾	سمع	تجادلك	المجادلة	١٠
٣٠	﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾	نقموا	يؤمنوا	البروج	٨

٢- سياق المضارع/الماضي :

في إطار تشكيل الصورة الالتفائية في شكلها الفعلي نرى بأن الفعل « الماضي إنما يقوم مقام المستقبل في بعض المواضع على خلاف الأصل »^(١) في القرآن الكريم، ويقول ابن الأثير عن بلاغة هذا النمط وفائدته التواصلية : « إن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان أبلغ وأؤكد في تحقيق الفعل وإيجاده، لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يُفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يُستعظم وجودها »^(٢)، ويبين الفرق بين نمط التحويل السابق المتمثل في سياق الماضي/المضارع، ويبين هذا النمط المضارع/الماضي بقوله : « والفرق بينه وبين الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضي : أن الغرض بذلك تبيين هيئة الفعل، واستحضار صورته، ليكون السامع كأنه يشاهدها، والغرض بهذا هو الدلالة على إيجاد الفعل الذي لم يوجد بعد »^(٣).

في حالة كون « مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهددة المتوعد بها، فيعدل فيه إلى لفظ الماضي تقريراً وتحقيقاً لوقوعه »^(٤)، ومن ذلك ما جاء في مشاهد القيامة من وصف دقيق لوجوه البشر يوم الحساب وهم واقفون بين يدي الله سبحانه وتعالى، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل

(١) مغنى اللبيب عن كتب الاعاريب ، جمال الدين ابن هشام الأنصاري : ٢٢٥/١ .

(٢) المثل السائر : ١٩٨/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٩٨/٢ ، والفوائد المشوقة إلى علوم القرآن : ١٠٣ .

(٤) البرهان في علوم القرآن : ٣٧٢/٣ .

البدعة والفرقة وهذا الوصف الأخير يعم كل كافر وذلك في قوله عز وجل :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا

الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

[آل عمران: ١٠٦ - ١٠٧]

نجد أن بنية الصورة الالتفائية لهذا النص تكمن في الشكل الآتي :

صيغة الخطاب

سياق الماضي (٢)

سياق المضارع (١)

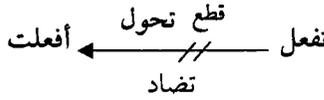
أ - البنية السطحية



الملتفت إليه (الماضي)

الملتفت عنه (المضارع)

﴿ اسْوَدَّتْ ﴾



﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ ﴾

﴿ أَبْيَضَّتْ ﴾

(يوم تسود)

غير متوقع

متوقع

ب - البنية العميقة

تسود



تبييض

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ ﴾

متوقع

(يوم تسود)

متوقع

شكل البنية

وقد قدم سبحانه وتعالى في البيان القرآني اسوداد الوجوه على ابيضاضها في هذا النص ليقع به البداء والختم اعتناءً بشأنه^(١)، وتتضافر من خلال بنية الصورة الالتفاتية صور أخرى، منها صورة التقابل، إذ إن هاتين الآيتين تظهران في السياق تقابلاً بسيطاً بين (تبيض وجوه) و(تسود وجوه) ومن ثم يبدأ التقابل بالتكوين كما في التوزيع الآتي^(٢) :

(بنية التقابل)

الطرف الثاني (السلب)

الطرف الأول (الإيجاب)

أ . ﴿ وَكَسَوُاْ وُجُوْهُ ﴾

أ . ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوْهُ ﴾

ب . ﴿ اَسْوَدَّتْ ﴾

ب . ﴿ اَبْيَضَّتْ ﴾

ج . ﴿ اَكْفَرْتُمْ بَعْدَ اِيْمَانِكُمْ ﴾

ج . ﴿ رَحْمَةً اَللّٰهِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ ﴾

﴿ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُوْنَ ﴾

ومن الصور الأخرى : الصورة الاستعارية (التمثيلية) في لفظي (البياض والاسوداد) إذ يقول الزمخشري (٥٣٨ هـ) عن ذلك : « البياض من النور، والسواد من الظلمة، فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه ، وابيضت صحيفته وأشرقت، وسعى النور بين يديه وييمينه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمده، واسودت صحيفته وأظلمت ، وأحاطت به الظلمة من كل

(١) ينظر : فكرة النظم بين وجوه الاعجاز في القرآن : ١٧٠ .

(٢) ينظر : التقابل والتماثل في القرآن الكريم ، فايز عارف القرعان : ١٥٧-١٥٨ .

جانب»^(١)، وربما يكونان أي : (البياض/السواد) كنايةتين عن « ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه »^(٢) .

وبالرجوع إلى مرجعية هذين اللونين في لغة العرب ودلالاتهما ، يقول الراغب الأصفهاني : « ولما كان البياض أفضل لون عندهم كما قيل : البياض أفضل ، والسواد أهول ، والحمرة أجمل ... عبّر عن الفضل والكرم بالبياض حتى لمن لم يتدنس بمعاب : هو أبيض الوجه »^(٣) .

ونجد أن الاستفهام بالهمزة في قوله : ﴿ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ جاء ليؤطر الصورة الالتفائية بالتوبيخ والتعجب من حال هؤلاء المسودة وجوههم ، وهم المرتدون الذين كفروا برسول الله ﷺ من أهل الكتاب بعد إيمانهم به قبل مبعثه ، أو جميع الكفار ، وتكلم عقوبتهم بعد سواد الوجه بشدة العذاب الذي يذوقونه وذلك متجسد في قوله تعالى مخاطباً إياهم : ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ وهو أمر إهانة بما فعلوه من الكفر بدين الله^(٤) .

ومن الصور البلاغية المتأزرة مع الصورة الالتفائية في هذا النص أيضاً صورة (اللف والنشر) وهي تعني : ذكر شيئين أو أكثر ثم ذكر ما يقابلها ، وفيه جمع للمتناسبات من غير فاصل بينها ، وتحمل هذه الصورة سمة الإجمال ، وما يثيره من التشويق في (اللف) وسمة التفصيل بعد الإجمال في (النشر) إذ نجد الإجمال في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ إذ فيه إعطاء صورة سريعة لهذا اليوم ، ثم يعود بعدئذ إلى إكمال

(١) الكشاف : ١٨٨ .

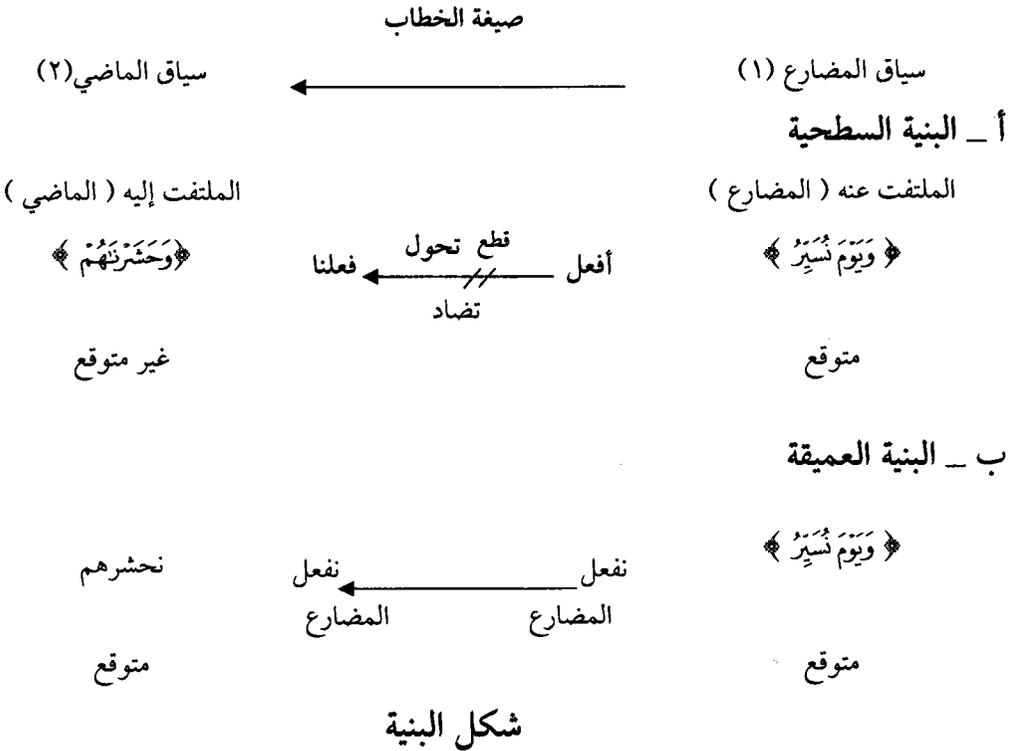
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٧٧/٢ .

(٣) الغريب في مفردات القرآن : ٧٦ .

(٤) ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٧٧/٢ .

الصورة في تفصيل وإيضاح، وربما يكون قد بدأ عندما فصل بذكر من اسودت وجوههم، ليكون الحديث متتهياً بذكر طريقة الخلاص من عذاب ذلك اليوم^(١).

إن بلاغة الصورة الالتفافية سياق (المضارع/الماضي) تكمن في تقريب الحدث المستقبلي وكأنه حاصل لا محالة لقصد الوعد والوعيد، ومن ذلك ما جاء في القرآن الكريم في موضوع تصوير الاضطراب الكوني الحاصل يوم القيامة وحشر الناس كافة قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧]، ويتضح شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :



(١) ينظر : من بلاغة القرآن : ١٨٤-١٨٥ .

نجد في هذه الصورة تصويراً لحال الجبال يوم القيامة، لأن « الجبال ... هي الأخرى يصيبها من الاضطراب ما يصيب الأرض من هول موقف القيامة، ولتصوير حال الجبال واضطرابها عدة تعابير قرآنية تجتمع كلها لإيجاد صورة واحدة لاضطراب الجبال يوم القيامة »^(١).

ومعنى التسيير للجبال « نقلها من مواضعها بزلزال أرضي عظيم ... وقيل : أطلق التسيير على تناثر أجزائها »^(٢) وتعقب عملية تسيير هذه الجبال بـ « بروز الأرض، والأرض البارزة أي الظاهرة، والظاهر سطحها، إذ ليس عليها شيء يستر وجهها من شجر ونبات أو حيوان »^(٣)، ويبين الزمخشري بلاغة هذا التحول في سياق الصورة الالتفائية لهذا النص بقوله : « فإن قلت : لم جيء بحشرناهم ماضياً بعد نسير وترى ؟ قلت : للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز، ليعاينوا تلك الأهوال العظائم، كأنه قيل : وحشرناهم قبل ذلك (موعداً) وقتاً لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور »^(٤) فالمدال الذي يمثل بؤرة القصد والدلالة والذي شكّل بلاغة هذه الصورة هو « الحشر » لأنه هو المهم، لأن من الناس من ينكره كالفلاسفة وغيرهم، ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضي^(٥)، فالعدول بالصورة الالتفائية عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة لا يكون، كما رأينا، إلا النوع من الخصوصية اقتضت ذلك^(٦).

(١) التعابير القرآنية والبيئة العربية : ٦٥ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير : ٣٣٥/١٥ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه : ٣٣٥/١٥ .

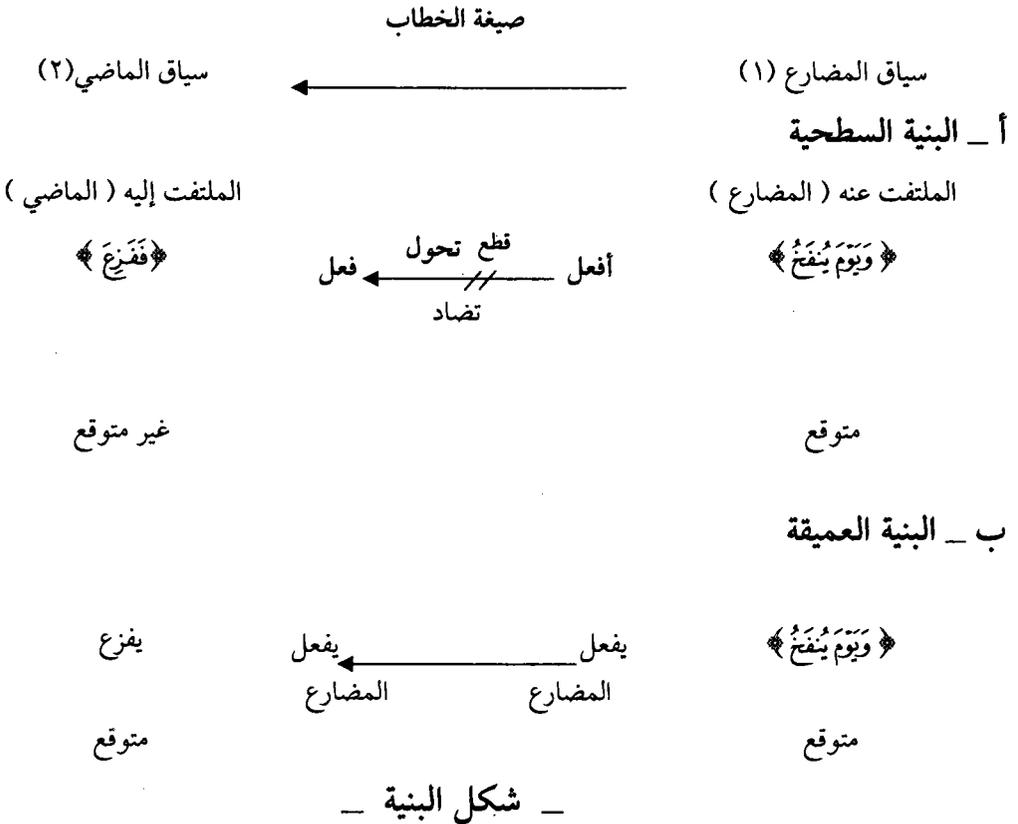
(٤) الكشف : ٦٢٢ .

(٥) المثل السائر : ١٩٩/٢ ، والبرهان : ٢٣٧/٣ .

(٦) علم البديع ، عبد العزيز عتيق : ١٤٨ .

ومن الصور الالتفائية الأخرى التي يستخدم فيها الماضي مكان المضارع للإشارة إلى تأكيد وقوع الفعل وذلك فيما يستعظم من الأمور قوله تعالى :
﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ ﴾
[النمل : ٨٧] .

إن عملية النفخ في الصور تكون يوم القيامة ، إذ يتحقق الفزع الأكبر للناس جميعاً، ويتحقق الإتيان بهم صاغرين مستضعفين^(١) ، ويمكن أن نبين شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :



(١) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم : ١٤٩ .

لقد جاءت الآيات: معبرة عن مصير أولئك الذين ينكرون البعث والحياة الآخرة، فتصور لهم المقدمات التي تسبق يوم القيامة، وما يكون فيها من ظروف واضطرابات، فتبدأ بجملة اسمية خبرية مؤكدة بـ (إن)، ثم يفصل الحديث، فتورد الجملة الخبرية المفتحة بالفعل المضارع « ينفخ » ويقدم عليه نسق الظرف «يوم» ليفيد الحصر، والتخصيص وتأكيد الخبر، وتلحقها جملة فعلية أخرى مبدوءة بمضارع معطوف على ما قبله بالفاء التعقيبية ليشار الى أن المهلة جدّ قصيرة بين نفخة الصور وحشر الناس، وتتوارد بعدها الجمل الفعلية الخبرية المبدوءة بالأفعال الماضية، كأن الأمر أصبح عياناً، ولمسه كل مخلوق، وعاش فيه كل من جاء الى هذه الحياة، ورآه رؤيا العين، وأصبح لا شك فيه ^(١) ، وكأن نسق الفعل الماضي أنسب الأفعال لمقتضى هذا السياق القصدي الذي يمثل هولاً من أهوال القيامة، وعبر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه ^(٢) .

والصُّورُ: « قيل هو مثل قرن يُنفخ فيه فيجعل الله سبحانه ذلك سبباً لعود الصُّورِ والأرواح إلى أجسامها » ^(٣) .

والفرع هو « انقباض ونفاز يعتري الإنسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع » ^(٤) ، وقد صورت هذه الآية الكريمة: « الصدى البعيد الذي يحدثه نفخ الصور وذلك أنه يفزع كل من في السموات ومن في الأرض ... ومع الفرع الذي يوقظ الناس فإنهم يُزعجون من قبورهم ويُهرعون أفواجاً أذلاء لتلبية صوت النفير المفزع » ^(٥)

(١) ينظر: التعبير الفني في القرآن ، د. بكري شيخ أمين : ٢٥٥

(٢) ينظر: المثل السائر : ١٩٠/٢ ، البرهان في علوم القرآن: ٣٧٣/٣ .

(٣) المفردات في غريب القرآن : ٢٩٢ .

(٤) المفردات في غريب القرآن : ٣٨١ .

(٥) التعابير القرآنية والبيئة العربية : ١٥ ، والمعاني في ضوء أساليب القرآن : ٢٥٦ .

ويقول الزمخشري عن بلاغة هذا التحول في الصورة الالفتائية : « فإن قلت : لم قيل : (ففرع) دون (فيفزع) ؟ قلت : لنكتة ، وهي الإشعار بتحقيق الفرع وثبوته وأنه كائن لا محالة ، واقع على أهل السموات والأرض ؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به ، والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون (إلا من شاء الله) إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة ، قالوا : هم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت - عليهم السلام - ، وقيل : الشهداء »^(١) وهذا كائن في علمه سبحانه وتعالى .

« والذي يستدعيه سياق النظم الكريم : أن المراد بالنفخ هاهنا هي النفخة الثانية وبالفرع في قوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ما يعتري الكل عند البعث والنشور بمشاهدة الأمور الهائلة الخارقة للعادات في الأنفس والآفاق من الرعب والتهيب الضروريين الجبلين ، وإيراد صيغة الماضي مع كون المعطوف عليه - أعني ينفخ - مضارعاً للدلالة على تحقق وقوعه إثر النفخ »^(٢) .

ومن النصوص القرآنية التي تتجسد فيها الصورة الالفتائية (سياق المضارع / الماضي) قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَشْفِقُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [المتحنة: ٢] ، هذا خطاب من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين يحذرهم من أعدائهم الكفار ، إذ إنهم لو ظفروا بكم وتمكنوا منكم يظهرون لكم خالص العداوة ولا يكونوا لكم أولياء كما أنتم^(٣) ، ونجد في سياق الصورة الأول (المضارع) في قوله : « يكونوا ، يبسطوا » استخداماً لعدة وسائل

(١) الكشف : ٧٩٢ .

(٢) إرشاد العقل السليم : ٣٠٣/٦ .

(٣) المحرر الوجيز : ١٨٤٦-١٨٤٧ .

في محاربة الكفار للمؤمنين، منها إظهار العداوة واستخدام القوة ضدهم بالقتال، واستخدام وسيلة أخرى أيضاً وهي الشتم بالألسن، وهذه متجسدة في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُم بِالسُّوءِ﴾ ونجد في سياق الصورة الثاني (الماضي) اختزالاً لبؤرة الغرض الأساس من عملية إظهار العداوة بأشكالها المختلفة قوله: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

إذ تصور هؤلاء الكفار أن عملية إيذاء هؤلاء المؤمنين سوف يجعلهم يرتدون عن دينهم كفاراً، فجاء خطاب الله سبحانه ليبين شدة عداوة هؤلاء لكم، ولكي تحذروا منهم حيث تجدونهم، إذ إن « مادة أمثالهم ومناصحتهم خطأ عظيم منكم ومغالطة لأنفسكم »^(١)، ويرى الزمخشري في بلاغة هذه الصورة الالتفافية: « فإن قلت: كيف أورد جواب الشرط مضارعاً مثله ثم قال: (وودوا) بلفظ الماضي؟ قلت: الماضي، وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب فإن فيه نكتة كأنه قيل: وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم، يعني: أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً، من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردكم كفاراً، وردكم كفاراً أسبق المضار عندهم وأولها، لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم؛ لأنكم باذلون لها دونه، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه »^(٢).

ويمكننا بعد ذلك بيان شكل البنية لهذه الصورة بالآتي:

(١) الكشاف: ١٠٩٨.

(٢) الكشاف: ١٠٩٨.

صيغة الخطاب

سياق المضارع (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت عنه (المضارع)

﴿ يَكُونُوا ﴾

يقفلوا ← قطع تحول
//
يقفلوا ← تضاد

﴿ وَدَّوْا ﴾

الملتفت إليه (الماضي)

سياق الماضي (٢)

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

﴿ يَكُونُوا ﴾

يقفلوا ← يقفلوا
المضارع المضارع

يودوا

متوقع

متوقع

شكل البنية

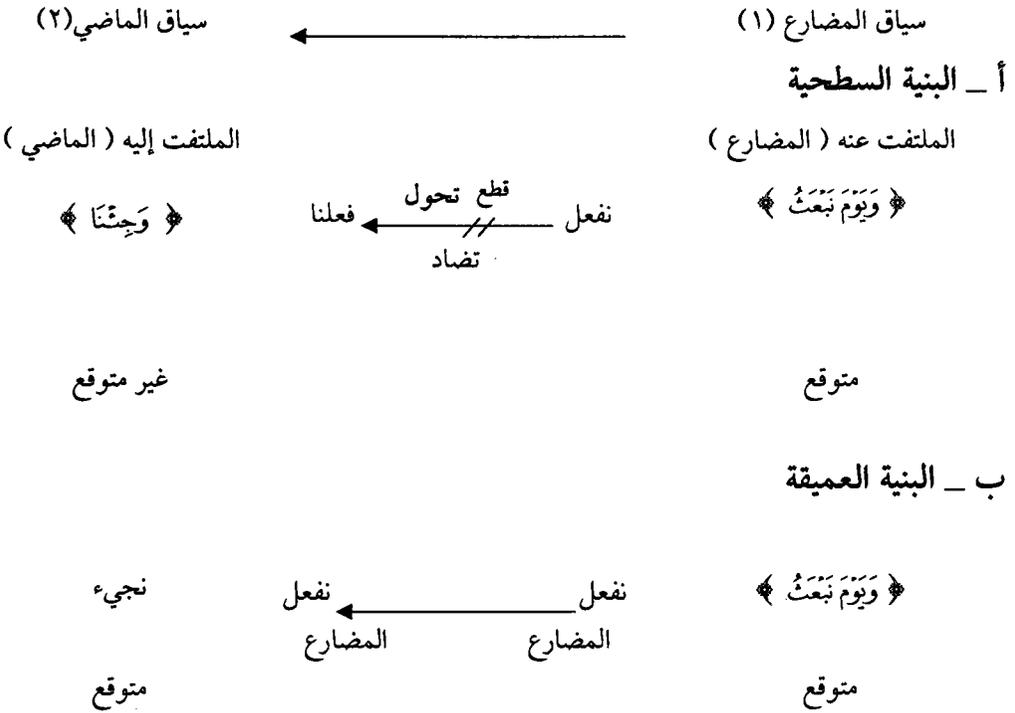
ومن المواضع القرآنية التي جاءت بالعدول من سياق المضارع إلى سياق الماضي قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] .

لقد سيقت هذه الآية الكريمة للإخبار عن بعث الرسل (عليهم الصلاة والسلام) أجمعين وإشهادهم على الناس يوم القيامة ، وفي تخصيص الرسول محمد ﷺ بالخطاب بعد الإخبار عن بعث الرسل بطريق سياق الغيبة ، ثم التحول عن سياق الفعل المضارع في قوله تعالى : ﴿ وَجِئْنَا ﴾ عن خطابه _ في

كل ذلك إشعار بأفضلية الرسول ﷺ على سائر المرسلين ، إذ نجد صيغة الأفراد معه دون الرسل أجمعين ، وكذلك بياناً على أفضلية شهادته في ذلك اليوم على شهاداتهم ، وأنه لهذا يجاء به شاهداً قبل بعث هؤلاء الرسل في أممهم شهداء^(١) .

ويمكن بيان التحول الأسلوبي لنسق الفعلين (نبعث / جئنا) من خلال شكل البنية للصورة الالتفائية بالآتي :

صيغة الخطاب



شكل البنية

(١) الكشف : ٥٢٨ ، والمحرر الوجيز : ١١١١ .

أنموذج الأفعال (سياق المضارع / الماضي)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه المضارع	الملتفت إليه الماضي	السور	الآيات
١	﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُنْفِقُونَ قُلْ مَا أُنْفِقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ... ﴾	ينفقون	أنفقتم	البقرة	٢١٥
٢	﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ... ﴾	يمسكون	أقاموا	الأعراف	١٧٠
٣	﴿ يَفْقَهُمْ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾	يقدم	فأوردهم	هود	٩٨
٤	﴿ الَّذِينَ يَنفِقُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَالْقَوْمَ اسْتَغْر ﴾	تتوفاهم	فألقوا	النحل	٢٨
٥	﴿ وَيَقُولُونَ بَوَيْلَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ ... وَوَحَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا... ﴾	يقولون	ووجدوا	الكهف	٤٩
٦	﴿ وَخَدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَأَخَذُوا آيَاتِي ﴾	يجادل	اتخذوا	الكهف	٥٦
٧	﴿ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزِلِ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾	يوم تشقق	نزل	الفرقان	٢٥

أنموذج الأفعال (سياق المضارع / الماضي)

الآيات	السور	الملثمت إليه الماضي	الملثمت عنه المضارع	الشاهد القرآني	ت
٤	الشعراء	فظلت	نزل	﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾	...
١٢	لقمان	كفر	يشكر	﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾	...
٨	الأحزاب	أعد	ليستل	﴿لَيْسْتَ لَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ...﴾	١
١٨	فاطر	أقاموا	يخشون	﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾	١
٢٩	فاطر	أقاموا	يتلون	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾	١
٢٨	الشورى	قنطوا	ينزل	﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾	١

أنموذج الأفعال (سياق المضارع / الماضي)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه المضارع	الملفت إليه الماضي	السور	الآيات
١٤	﴿وَتَرْتُمِهِمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِّ... وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾	تراهم	قال	الشورى	٤٥
١٥	﴿وَيَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَسْنَانُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾	يسطوا	ودوا	المتحنة	٢
١٦	﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا...﴾	تأتيهم	فقالوا	التغابن	٦
١٧	﴿يَوْمَ يُفْتَحُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ...﴾	يوم ينفخ	فتحت	النبأ	٩-١٨
١٨	﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾	أعبد	عبدتم	الكافرون	٤-٣

المبحث الثاني

سياقات التحول

سياق المضارع/الأمر

سياق المضارع/الأمر :

هذا نمط آخر من أنماط تشكيل الصورة الالفتافية الفعلية القائمة على العدول وكسر المألوف السياقي، إذ إن كسر السياق والتنويع في تراكم الجمل الفعلية الالفتافية له دوره البنائي والدلالي من خلال فعل الإثارة الذي يحقق المظهر البلاغي للنص، ويحدد مدى انسجامه وتماسكه أيضاً^(١).

ويقول ابن الأثير عن بلاغة هذا النمط : « إنما يُقصد إليه تعظيماً لحال من أُجري عليه الفعل المستقبل، وتفخيماً لأمره، وبالضدّ من ذلك فيمن أُجري عليه فعل الأمر^(٢) »، ونعابن هذا النمط في نصوص القرآن الكريم، إذ جاء في ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَبْنَاكَ بَعْضَ ءَالِهَتِنَا يَسُوءَ قَالِ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [هود : ٥٣ - ٥٤] .

من خلال النص يتضح شكل البنية للصورة الالفتافية بالشكل الآتي :

(١) ينظر : انفتاح النص الروائي ، ١٢ .

(٢) المثل السائر : ١٩٢/٢ .

صيغة الخطاب

سياق الأمر (٢)

سياق المضارع (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت إليه (الأمر)

الملتفت عنه (المضارع)

﴿ وَأَشْهَدُوا ﴾

أفعل ← قطع تحول ← أفعلوا
تضاد

﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

أشهدكم

أفعل ← أفعل
المضارع المضارع

﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

وفي إطار المعنى العام الذي يحتمله السياق القرآني على وفق المرجعية التفسيرية لبنية النص يكون هذا النص في شكل الخبر من الله سبحانه وتعالى عن قول قوم هود لهود إذ نصح لهم ودعاهم إلى توحيد الله وتصديقه، وخلع الأوثان والبراءة منها : لا نترك عبادة آلهتنا، وما نقول إلا أن الذي حملك على ذمها والنهي عن عبادتها أنه أصابك منها خبلٌ من جنون (حاشاه) .

فقال هود لهم : إني أشهد الله على نفسي وأشهدكم أيضاً أيها القوم أنني بريء مما تشركون في عبادة الله من إلهتكم وأوثانكم من دونه (١) ، أما على

(١) ينظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٧١/١٢ .

مستوى الخطاب البلاغي فتتضح بلاغة هذه الصورة من خلال قراءة ابن الأثير
والزمخشري لهذا النص قراءة بلاغية ، إذ يقول ابن الأثير : « فإنه إنما قال :
﴿ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا ﴾ ولم يقل : وأشهدكم ليكون موازياً له وبمعناه ، لأن إشهاد
الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم
ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم ، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما
بينهما ، وجيء به على لفظ الأمر ، كما يقول الرجل لمن ييس الثري بينه وبينه :
أشهد عليّ أنني أحبك » تهكماً به ، واستهانة بحاله «^(١) .

وفي سياق تحريض المؤمنين على قتال الذين لا يدينون دين الحق من الذين
أوتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى ، وذلك بادعاء اليهود أن عزيزاً ابن الله
وادعاء النصارى أن المسيح ابن الله ، وبتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون
الله يشرعون لهم فيتبعونهم .

نجد الصورة الالتفافية في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ
فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴾ [التوبة: ٣٥] ، يبين هذا النص حال الأحبار والرهبان الذين يتخذهم
اليهود والنصارى آلهة من دون الله ويفضح أمرهم ، وأنهم يأكلون أموال الناس
بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ، ثم تتجه الآية والنص لبيان عقوبة من يكنز
الأموال ولا ينفقها في سبيل الله بالترهيب والوعيد ، وتسوق هذا الترهيب في
صورة مفزعة تحذيراً منه سبحانه وتعالى لعباده عليهم يجنبون أنفسهم هذا
المصير^(٢) ، وذكر الذهب والفضة لأنهما « متناسبان لتقاربهما في

(١) المثل السائر : ١٩٣/٢ ، والكشاف : ٤٨٧ .

(٢) أسلوب الدعوة القرآنية : ٢٣٥ .

الخيال، وكونهما النقيدين الأساسيين في التعامل، ومن طبيعة النفوس اقتناؤهما»^(١).

ونعائين شكل البنية لهذه الصورة الإلتفائية بالآتي :

صيغة الخطاب

سياق الأمر (٢)

سياق المضارع (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت إليه (الأمر)

الملتفت عنه (المضارع)

﴿ فذُقُوا ﴾

يفعل / قطع تحول / أفعلوا
تضاد

﴿ يَوْمَ يُحْمَى ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

فَذُقُوا

يفعل / المضارع / يفعلوا / المضارع

﴿ يَوْمَ يُحْمَى ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

نجد عند استكشاف شكل البنية لهذه الصورة الإلتفائية بروز عنصر الصورة الكنائية في سياق الصورة الأول (الملتفت عنه) وذلك في قوله تعالى :
﴿ فَتَكُونُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ إذ إن التعبير بالأعضاء الثلاثة كناية عن شمول العذاب لكل الجسم لأنهم تستغرق جهاته كلها، والتعبير بالصورة

(١) البديع في ضوء أساليب القرآن : ٣٦ .

الكنائية أبلغ لتصويرها المعنى وإبرازه هنا ليفزع من تخيله الممسكون عن الإنفاق، فضلاً عن أنه يحقق ما سبق أن أشرنا إليه من إطالة عرض مشهد العذاب.

وقد يكون على مستوى التأويل البلاغي أيضاً : أن التعبير بهذه الأعضاء لأن لها زيادة ارتباط بالتمتع بالمال المكنوز، فكان اختصاص هذه الأعضاء بالذكر لإفادة أن عاقبة الإمساك عن الإنفاق تأتي على النقيض مما يريدون، وأن ما يصيبها من عذاب في الآخرة شيء رهيب لا يصح أن يعرضها الإنسان له في سبيل متعة عابرة في الدنيا، ونلاحظ أن التعبير بنسق الفعل المضارع في قوله : « تكوى » يوحي بشدة الألم ويعمل على استحضار الصورة كأنها ماثلة زيادة في الترهيب بما تثيره من فزع وهلع في القلوب^(١) ، هذا بالنسبة لسياق الصورة الأول.

أما بالنسبة لسياق الصورة الثاني سياق التحول والذي يمثل بؤرة الصورة الالتفاتية ، نجد تضافر مجموعة عناصر بلاغية وبنوية في تشكيل هذا السياق، وفي طليعة هذه العناصر عنصر الصورة الاستعارية، وهي متجسدة في قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا ﴾ وهي من نوع الاستعارة المكنية^(٢) ، فالعذاب لا يذاق ولكنه استعارة عن الإحساس بالعذاب، والاستعارة أقوى لأنها تصور المعنى وتجعله شيئاً ملموساً، وهذا أبلغ في الترهيب، ومن العناصر التي قدمت المشهد اسم الإشارة (هذا) الذي يستعمل للإشارة الى القريب، وجاءت فاعليته البنائية لتضفي طابعاً دلاليّاً للنص ، تتمثل في تخيل أن العذاب قريب حاضر يشار

(١) ينظر : البديع في ضوء أساليب القرآن : ٢٣٨ .

(٢) ينظر : روح المعاني : ٨٩/١٩ .

إليه، أما قوله تعالى : « لأنفسكم » ففيه بلاغة تتجسد في توبيخهم، فما كنزوه لمنفعة أنفسهم ينقلب أذى لها وعذاباً.

ومن العناصر الأخرى التي تضافرت في تشكيل الصورة الالتفاتية عنصر الإيجاز من نمط الإيجاز بالحذف في قوله تعالى : ﴿ فذوقوا ما كنتم تكذبون ﴾ والتقدير على مستوى البنية العميقة، أي « فذوقوا جزاء ما كنتم تكذبون » والحذف أبلغ لأنه يجعل المذاق هو ما كنزوه نفسه لا جزاءه ، وذلك يحمل على إنفاقه حتى لا يتحول عذاباً يذاق^(١) ، ومن النصوص القرآنية التي جاءت مشكلة للالتفات الفعلية والتي تدور موضوعاتها حول عمل الإنسان وما قضي له أنه عامله، وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه لا يفارقه قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْمَمْنَهُ لَطْفَرُهُ فِي عُنُقِهِ . وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * أَقْرَأَ كَتَبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٤] .

ويمكن أن نبين شكل البنية لهذا النص بالآتي :

(١) ينظر : أسلوب الدعوة القرآنية : ٢٣٩ .

صيغة الخطاب

سياق الأمر (٢)



سياق المضارع (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت عنه (المضارع)

﴿ وَخُجِرَ لَهُ ﴾

نفعال ← قطع تحول // ← أفعل
تضاد

﴿ أَقْرَأَ كِتَابَكَ ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

يقراً

نفعال ← يفعل
المضارع المضارع

﴿ وَخُجِرَ لَهُ ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

نجد عند معاينة النص في سياقه الأول (المضارع) وجود صورة استعارية، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّ إِنْسَانَ الزَّمَنَةَ طَكِيرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ فالطائر هنا يقصد به عمل الإنسان ، كأنه طير إليه من عش الغيب ووكر القدر، لما كانوا يتيمنون ويتشاءمون بسنوح الطائر وبرواحه، إذ استعير لما هو سبب الخير والشر من قدر الله تعالى وعمل العبد، وذلك كامن في عنقه، أي : لزوم الطوق في عنقه. وكمحصلة نهائية لعمل هذا الإنسان يُخرج الله سبحانه عمله على هيئة صحيفة تبين آثار أعماله وهي مكشوفة أزيل عنها الغطاء^(١) .

(١) ينظر : أنوار التنزيل واسرار التأويل : ٤٣٥/٣ .

المبحث الثالث

سياقات التحول

سياق الماضي / الأمر

ومن نصوص هذا السياق في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ .

ويرى ابن الأثير في بلاغة هذا التحول في الصورة الالفتاتية : « أنما يفعل ذلك توكيداً لما أجرى عليه فعل الأمر، لمكان العناية بتحقيقه »^(١) ويعمل ابن الأثير على إعادة الخطاب إلى أصله في البنية العميقة بقوله : « وكان تقدير الكلام : أمر ربي بالقسط وإقامة وجوهكم عند كل مسجد ، فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر، للعناية بتوكيده في نفوسهم ، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب، إذ عمل الجوارح لا يصحُّ إلا بإخلاص النية »^(٢).

فيما يرى العلوي في بلاغة هذا الخطاب : « ولو جاء به على أسلوب واحد لقال : أمر ربي بالقسط، وأمركم أن تقيموا وجوهكم، فعلى الناظر إعمال نظره وحك قريحته فيما أوردناه من هذه الأمثلة، وأن يضع في نفسه أن الانتقال من صيغة إلى صيغة إنما يكون من أجل الالفتات ليكمل أمر الخطاب وتتفاوت

(١) المثل السائر : ١٩٣/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١٩٣/٢ .

درجته في البلاغة ، وهذا إنما يُدرك بالذوق الصافي الخالص عن شوب البلادة، وما هذا حاله فهو من دقيق علم البلاغة وغامضها»^(١).

أما على المستوى الدلالي : فالخطاب مسوق لبيان الأمور به إثّر نفسي ما أسنده أمره إليه تعالى من الأمور المنهي عنها، والأمر بالقسط وهو الوسط من كل شيء المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط^(٢) ، والقسط العدل^(٣) ، وإقامة الوجوه هي توجه الناس إليه بالعبادة مستقيمين غير عادلين الى غيرها في وقت كل سجود، وقد جاء السجود في قوله : « عند كل مسجد » مجازاً عن الصلاة^(٤)، وحصل الالتفات من قوله تعالى : ﴿أَمَرَ رَبِّي ...﴾ الذي يمثل طرف الصورة الأول (الملتفت عنه) إلى قوله ﴿وَأَقِيمُوا ...﴾ الذي يمثل سياق التحول وطرف الصورة الثاني (الملتفت إليه) الأمر، « فقد أبرز هذا التلوين العناية بكل واحد مما أمروا به على حدة، فاتجه أمر الرب إلى القسط وحده، ثم أمروا أمراً جديداً، بأن يقيموا وجوههم عند كل مسجد، وأمراً جديداً آخر بأن يدعوه مخلصين له الدين، وفي ذلك من العناية بتوكيد كل أمر ما فيه، ولم يجعل أحد هذه الأمور ملحقاً بصاحبه»^(٥).

ويمكن أن نبين شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :

(١) الطراز : ١٣٧/٢ .

(٢) روح المعاني : ١٠٧-١٠٦/٨ .

(٣) الكشف : ٣٦١ .

(٤) روح المعاني : ١٠٧/٨ .

(٥) من بلاغة القرآن : ١١٠ .

صيغة الخطاب

سياق الأمر (٢)

سياق الماضي (١)

أ - البنية السطحية

الملتفت إليه (الأمر)

الملتفت عنه (الماضي)

﴿ وَأَقِيمُوا ﴾

فعل قطع تحول أفعلوا
تضاد

﴿ أَمَرَ رَبِّي ﴾

غير متوقع

متوقع

ب - البنية العميقة

أقاموا

فعل فعل
الماضي الماضي
أفعلوا

﴿ أَمَرَ رَبِّي ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

الفصل الثالث
بلاغة الأنماط الأسلوبية
للالتهفات العددية
(التركيب والدلالة)

مدخل

المبحث الأول : سياقات التحول

١ - سياق الإفراد / الجمع

٢ - سياق الجمع / الإفراد

المبحث الثاني : سياقات التحول

١ - سياق الإفراد / التثنية

٢ - سياق التثنية / الإفراد

المبحث الثالث : سياقات التحول

١ - سياق التثنية / الجمع

الفصل الثالث

بلاغة الأنماط الأسلوبية للالتفات العددي

التركيب والدلالة

مدخل :

إن من أنماط الالتفات في القرآن الكريم نمط : « الالتفات العددي » ، فقد عده كثير من علماء البلاغة نمطاً آخر من أنماط الصورة الالتفاتية ، وأقدم إشارة إليه في البلاغة العربية وردت عند أبي عبيدة (ت ٢١٠ هـ) الذي جعله أحد أشكال المجاز في القرآن الكريم بقوله : « ... ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع ، ومجاز ما جاء لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين ، ومجاز ما جاء لفظه خبر الجميع على لفظ خبر الواحد ، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد في موضع الواحد ... وكل هذا جائز قد تكلموا به »^(١) أي تكلم به العرب في أساليبهم الأدبية . وقد ضرب أبو عبيدة لذلك أمثلة من القرآن الكريم .

وممن تنبه إلى هذا النمط أيضاً ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) عندما أدخله في باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه^(٢) ، وضرب لذلك مثلاً من القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه : ١١٧] .

(١) مجاز القرآن : ١٨-١٩ .

(٢) ينظر : تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة : ٢٩٠ .

ومن أبرز الذين جعلوا هذا التحول بين صيغ العدد نمطاً التفاتياً ابن الأثير في كتابه « الجامع الكبير » دون كتابه « المثل السائر » الذي قصر الالتفات فيه على نمطين : « الضمائري والفعلي » وذلك بقوله : « الضرب الثالث : الرجوع من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع ، ومن خطاب الجمع إلى خطاب الواحد »^(١) .

ووصفه السيوطي بأنه قريب من الالتفات بقوله : « يقرب من الالتفات نقل الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع إلى الخطاب الآخر »^(٢) .

وقد صنف الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) أنماط الالتفات العددي في أثناء تصنيفه لأنماط الخطاب والخطاب القرآني تحت عنوان : « في وجوه المخاطبات والخطاب في القرآن » مستشهداً بذلك بنصوص من القرآن الكريم لكل خطاب من هذه الخطابات^(٣) ، وتبعه في ذلك السيوطي^(٤) .

إن الالتفات العددي بأنماطه المتعددة وبوصفه عدولاً أسلوبياً عن مسار الخطاب المألوف يحقق تفصيلاً بلاغياً للخطاب بشكل عام والخطاب القرآني بشكل خاص ، وتنبثق منه بنى دلالية عميقة تسهم في تنشيط وعي المتلقي لأهميته البلاغية ضمن قنواته التواصلية ، لذلك نلاحظ أن القرآن الكريم يتوجه بالمتلقي إلى التأثير والدهشة السريعة والمباشرة ، وذلك منسجم مع العقلية الإنسانية التي يخاطبها ليخدم الهدف من تنزيله من عند رب رؤوف بعباده يهدف إلى هدايتهم للإيمان والحق بأقصر الطرق^(٥) .

(١) الجامع الكبير : ١٠١ ؛ والفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان : ١٠١ .

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن : ٢٩١/١ ؛ والبلاغة الاصطلاحية ، عبده عبد العزيز لقليلة : ٣٤٤ .

(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٢٣٣-٢٤١ .

(٤) ينظر : الإتيان في علوم القرآن : ٩٢/٢ .

(٥) ينظر : التقابل والتماثل في القرآن الكريم ، فايز عارف القرعان : ١٦٣ .

المبحث الأول

سياقات التحول

الإفراد / الجمع ، الجمع / الإفراد

١ - سياق الإفراد / الجمع :

وفي سياق الحديث عن استخلاف الله سبحانه وتعالى لآدم (عليه السلام) في الأرض، وبيان كيفيته تأتي الصورة الالتفائية وذلك في قوله جل شأنه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَتَّادَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة] .

هذا النص بيان لأمر آخر من جنس الأمور التي تقدمت المؤكدة للإنكار والاستبعاد، فإن خلق آدم (عليه السلام) وما خصه به من الكرامات المحكية من أجلّ النعم الداعية لذريته إلى الشكر والإيمان الناهية عن الكفر والعصيان^(١) ويمكن بيان شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٧٩/١ .

صيغة الخطاب

سياق الجمع (٢)

سياق الأفراد (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت إليه (الجمع)

الملتفت عنه (الأفراد)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ
اسْجُدُوا ﴾

هو ← قطع نحول // نحن
تضاد

﴿ قَالَ ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

قال

هو ← هو
الإفراد الإفراد

﴿ قَالَ ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

من خلال بنية الشكل هذه نجد أن القرآن الكريم قد تغيّر مسار خطابه، حيث قال أولاً في سياق الصورة (الملتفت عنه) : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ والذي يجسد صيغة الأفراد، ثم عدل إلى سياق الجمع والذي يمثل طرف الصورة الثاني (الملتفت إليه) وذلك في قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ . والخطاب أمر من الله سبحانه وتعالى للملائكة بالسجود لآدم (عليه السلام) ، والسجود هاهنا بمعنى الخضوع له والإقرار بالفضل له ^(١) .

(١) ينظر : مدارك التنزيل وحقائق التأويل : ٨١/١ .

إن لهذا التحول بلاغة ودلالة، إذ ناسب قوله في الأول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴿ بذكر الربوبية مقام خلق آدم (عليه السلام) واستخلافه، مضافاً إلى أحب خلفائه إليه، في حين نجد في سياق التحول (الجمع) في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ﴿ مقام إيراد أمر يناسب العظمة بنون الجمع وهو السجود، ففي السجود تعظيم، فلما أمر الله سبحانه بفعله لغيره أشار إلى كبريائه وسلطانه العليا^(١). إن مسار الخطاب في هذا السياق سيكون متحولاً من صيغة الأفراد إلى صيغة الجمع، ولهذا السياق التحويلي في القرآن الكريم نماذج كثيرة في سياقات دلالية متعددة بتعدد المقاصد الواردة فيها .

ومن النصوص القرآنية التي وردت في هذا النوع من السياق للصورة الالتفافية قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيِّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا الْتَكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْرُؤُوا بِيَادِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿ [المائدة: ٤٤] .

وتأتي المخالفة على مستوى البنية السطحية في مجيء ضمير الواحد أولاً في قوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ ﴿ ثم يتحول إلى ضمير الجمع في قوله « فأولئك » ومن خلال رسم شكل البنية لهذه الصورة الالتفافية العددية سياق (الأفراد/الجمع) يمكن معرفة مستوى البنية العميقة التي تعيد توحيد الأعداد بملفوظيتها القبليّة وهي تتضح بالشكل الآتي :

(١) ينظر : روح المعاني : ٢٢٩/١ .

صيغة الخطاب

سياق الجمع (٢)

سياق الأفراد (١)

أ _ البنية السطحية

الملفت إليه (الجمع)

الملفت عنه (الأفراد)

﴿ فَأُولَئِكَ ﴾

هو ← قطع تحول → هم
تضاد

﴿ يَحْكُمُ ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

فذلك

هو ← هو
الأفراد الأفراد

﴿ يَحْكُمُ ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

إن عملية حرف مسار الخطاب من صيغة الأفراد إلى صيغة الجمع ، يعني جعل حكم الجمع في حكم المفرد، وهذا ما يفسره إعجاز القرآن الخطابي المرتكز على الخطاب البلاغي كمحرك للرسالة الإبلابية.

فالحكم يصدر على مفرد إلا أنه سرعان ما يعم الجميع كتطبيق جماعي لا فردي، وربما يكون صدور الفعل السئ بداية من شخص أو فئة معينة، ثم تأتي فائدة الصورة الالتفائية لتعم الجميع في تعميم عقوبة الفعل، وهذا لا يختص بفعل الشر فحسب، وإنما يشمل فعل الخير أيضاً، وأمثله كثيرة في القرآن الكريم .

إن بلاغة الصورة الالتفائية في هذا السياق إذن تكمن في جعل حكم الجمع كحكم المفرد .

وفيما يتعلق بدلالة هذه الآية الواردة في إطار الصورة الالتفائية أنها بيان لحكم من يستهين بآيات الله التي تعد دستور الأمة الإسلامية متمثلة في القرآن الكريم بأنه كافر ، وهذا الحكم يعم سائر الذين تمردوا بأن حكموا بغير هذه الآيات من المسلمين واليهود والنصارى^(١) ، إذ أنهم حكموا ويحكمون بالدساتير الوضعية الدنيوية تاركين ما أنزل الله وهو خالقهم ومدبر شؤونهم ، تاركين الآيات العقلية على صحة هذا الدين، منزلقين في عتمة الوضع والإلحاد كفروا بخالقهم وهي محصلة لكفرهم بآياته وقرآنه، فلذلك أصبحوا كافرين منحطين استغنوا عن ربهم وزحفوا عن منهجه مستهينين به، فكانت هذه الصورة تجسيدا لصورتهم التي امتازوا بها وهي العتو في كفرهم حين ظلموا آيات الله^(٢) .

(١) لقد اختلف في سبب نزول هذه الآية والآيات الأخرى التي يذكر فيها سبحانه وتعالى هؤلاء بـ (الفاستقين والظالمين) فقيل :إنها نزلت في اليهود خاصة ، وقيل :إنها نزلت في المسلمين ، أو إنها في عامة اليهود ، وفي هذه الأمة وقيل :إنها نزلت في اليهود والنصارى، وقيل إنها نزلت في الكفار ... فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة وقيل : فيه إضمار ؛ أي :ومن لم يحكم بما أنزل الله رداً للقرآن ، وجمداً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام فهو كافر ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إن الكافرين والظالمين والفاستقين أهل الكتاب . وعنه : نعم القوم أنتم ما كان من حُلُوِّ فلکم، وما كان من مُرِّ فهو لأهل الكتاب، من جحد منكم حكم الله كفر ، ومن لم يحكم به وهو مقر فهو ظالم فاستق . وعن الشعبي : هذه في أهل الإسلام، والظالمون في اليهود والفاستقون في النصارى وعن ابن مسعود : هو عام في اليهود وغيرهم . وعن حذيفة : « أنتم أشبه الأمم سماً ببني إسرائيل، لتركن طريقهم حذو النعل بالنعل ، القذة بالقذة ، غير أنني لا أدري أتعبدون العجل أم لا » . الكشاف : ٢٩٢ ؛ والمححر الوجيز : ٥٤٦ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير : ٢٢١/٢ .

وقد يراد بـ « من » الموصولة للجنس وتكون الصلة إيماء إلى تعليل كونهم كافرين، فتقتضي أن كل من لا يحكم بما أنزل الله يكفر^(١).

ومن النصوص القرآنية التي تطالعنا في السياق نفسه قوله عز وجل :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ

فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

[النحل: ١١٢].

نجد أطراف الصورة الالتفافية في هذه الآية في قوله تعالى : « قرية » وما

يعود إليها من ضمائر وأفعال في سياق النص، وهي تمثل طرف الصورة الأول

(الإفراد) في حين نجد أن طرف الصورة الثاني (الجمع) في قوله تعالى : ﴿ بِمَا

كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ وقد جاءت الصورة بطريق ضرب المثل.

ويمكن بيان شكل البنية بالآتي :

(١) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢٢١/٢ .

صيغة الخطاب

سياق الجمع (٢)

سياق الأفراد (١)

أ _ البنية السطحية

الملفت إليه (الجمع)

الملفت عنه (الأفراد)

﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

﴿قَرِيَةً﴾

هي / قطع تحول / هم
تضاد

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

بما كانت تصنع

هي / الأفراد / هي / الأفراد

﴿قَرِيَةً﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

وفي إطار تشكيل الصورة الالفتانية نجد صوراً أخرى في هذا النص، منها :
أن لفظ « ضرب » بمعنى « جعل القرية التي هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته »^(١). وقد جعل المثل قرية في ضربه لها موصوفة بصفات تبين حالها المقصود من التمثيل لكي يستغني عن تعيين القرية، والنكته في ذلك : أن يصلح هذا المثل للتعريض بالمشركين باحتمال ان تكون القرية قريتهم _ أعني مكة _ بأن جعلهم مثلاً للناس من بعدهم، ولعل الخطاب التمثيلي موجه إلى المسلمين الذين هاجروا من بعد ما فتنوا، أي أصحاب هجرة الحبشة تسلية لهم ومما كانت تتمتع به هذه القرية من

(١) الكشف : ٥٨٦ .

توافر الأمن والاطمئنان وعدم حصول القتل والسيبي فيها ولا يزعجها خوف^(١)، وقد قدم الأمن في سياق الخطاب على الاطمئنان، إذ لا تحصل الطمأنينة بدون الأمن.

ومن النعم الأخرى التي امتازت بها تلك القرية : وفرة الرزق ، وكان جزاء هذه النعم الكثيرة كفران أهلها لها وذلك واضح في قوله تعالى : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ وإن اقتران فعل (كفرت) بفاء التعقيب، بعدما كانت آمنة مطمئنة باعتبار حصول الكفر عقب النعم التي كانوا فيها في حين طرأ عليهم الكفر، وذلك عند بعثة الرسول إليهم^(٢) .

وفي السياق نفسه (الإفراد) هناك استعارتان (الإذاقة واللباس) في قوله تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ ، يقول الزمخشري عنهما : « الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما، والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صحة إيقاعها عليه، قلت : أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها ، فيقولون : ذاق فلان البؤس والضرر، وإذاقة العذاب، شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر البشع ، وأما اللباس فقد شبه لاشتماله على اللباس ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث، وإما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ؛ فلأنه لما وقع من عبارة عما يغشي منهما ويلابس فكأنه قيل : فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف^(٣) »

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل : ٤٣٦/٢ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير : ٣٠٦/١٤ .

(٣) الكشف : ٥٨٦ .

وهناك باحث يرى أن استعانة الزمخشري بالمدلول اللغوي لكلمة (الإذاقة) عند العرب غير لائقة، وغير جديرة بالمقام وحجته في ذلك « أن القرآن هو الذي استعمل الذوق للعذاب والبؤس، وهذه الاستعارة جديدة لم يعرفها العرب، والفعل يدل على إشراك حاسة الذوق التي تكون منفذاً إلى الرهبة في النفس، ويبقى للزمخشري أنه يقدم مفتاحاً لغوياً لهم وتذوق هذه الصورة الحسية، وقد اهتم الزمخشري بالمذاقة الحسية، لأنه يرى فيها تجريداً للاستعارة يفوق الكسوة، لأنّ الذوق يشتمل على اللمس، واللمس لا يشتمل على الذوق»^(١).

وعلى ذلك تكون الاستعارة الأولى : استعارة الإذاقة تبعية مصرحة، في حين تكون الثانية متفرعة عن الأولى ومركبة عليها يجعل لفظها مفعولاً للفظ الأول، وحصل بذلك أن الجوع والخوف محيطان بأهل القرية في سائر أحوالهم وملازمان لهم وأنهما بالغان منهم مبلغاً أليماً^(٢).

« فتطلبت الإهانة والتهديد أقصى حاجة للطعام، فحق لهذه الكلمة أن تذكر في أصحاب النار، حيث يكون الجوع غاية الحاجة الفيزيولوجية للطعام، وفي أشبع طلب لهذه الحاجة»^(٣).

وتأتي بلاغة الصورة الالفتافية في سياق التحول في قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ لتحرف مسار الخطاب إلى أهل القرية توبيخاً لهم، نتيجة لقبح فعلهم بكفرهم بأنعم الله، فبعدما كان الحديث عن القرية أصبح الحديث عن أهلها وهم المقصودون من الخطاب جزاء على سوء صنعهم .

(١) جماليات المفردة القرآنية : ١٠٦ . والمعاني الثانية في الأسلوب القرآني : ١٢٩ .

(٢) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٣٠٧/١٤ .

(٣) جماليات المفردة القرآنية : ٤٥ .

ومن النصوص التي تطالعنا في ميدان الالتفات العددي سياق (المفرد / الجمع) قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَتَّبِعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

إن هذه الآية تعد توطئة أو تمهيداً لما يرد من الوحي في شأن تحديد أحكام (التبني) وما يتعلق بها، وفيها إيدان بأن ما يوحى إليه ﷺ يشق عليه وعلى المسلمين من إبطال حكم التبني لأنهم ألفوه واستقر في عوائدهم، وعاملوا المتبنين معاملة الأبناء الحق^(١) ، وقد صيغ الخطاب بطريق الصورة الالتفاتية بشكلها العددي، إذ نجد في سياق الصورة الأول في قوله تعالى : ﴿ وَأَتَّبِعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ والذي يمثل سياق الأفراد لأن الخطاب للنبي ﷺ وهو خطاب مفرد ضمن السياق اللغوي : « وهو معطوف على ما قبله من قبيل عطف العام على الخاص زيادة في التقوية والتقرير، وكان هذا أمر ثالث بعدم طاعة الكافرين والمنافقين لدخوله في الأمر بإتباع الوحي، وفي قوله : ﴿ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ تفخيم للوحي بالإبهام، وتعظيم له، وفيه حث على إتباعه، أما فيما يتعلق بذكر لفظ (الرب) ففيه لفت إلى أنه رباك أحسن تربية، ونشأك أكرم تنشئة، وركاك خير رعاية وهو ربك الذي قربك أفضل تقريب، وزادك شرفاً بإضافتك إلى حضرته^(٢) .

في حين نجد الطرف الثاني للصورة في قوله تعالى : ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وهو خطاب عام للمسلمين جميعاً ، ويمكن بيان شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :

(١) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢٥٢/٢١ .

(٢) من أسرار التعبير القرآني (دراسة تحليلية لسورة الأحزاب) : ١٠-١١ .

صيغة الخطاب

سياق الأفراد (١)

أ _ البنية السطحية

الملفت عنه (الأفراد)

﴿ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾

أنت أنت
قطع تحول
تضاد

﴿ يَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

الملفت إليه (الجمع)

سياق الجمع (٢)

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

﴿ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾

أنت أنت
الإفراد الإفراد

بما تعمل

متوقع

متوقع

شكل البنية

إن لهذا التحول في صيغة الخطاب في هذه الآية نكتاً بلاغية، ففي «إفراد الخطاب للنبي ﷺ... وجمعه بما يشمله وأمه... إيماء إلى أن فيما سينزل من الوحي ما يشمل على تكليف يشمل تغيير حالة كان النبي عليه الصلاة والسلام مشاركاً لبعض الأمة في التلبس بها وهو حكم التبني، إذ كان النبي متبنياً زيد بن حارثة من قبل بعثته»^(١)، ومن بواعث هذا التحول أيضاً انه جاء لغرض التعظيم، وقيل إنما جاء الخطاب بالجمع لقصد القول: اتبع أنت وأصحابك؛ وقيل للغائبين من الكفرة المنافقين^(٢)، لذلك كان تغيير الكلمات قد أدى إلى تغيير في مضمون التركيب المشتمل عليها^(٣).

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٥٢/٢١.

(٢) ينظر: روح المعاني: ١٤٤/٢١.

(٣) دور الكلمة في اللغة، ستيفن اولمان، ت: كمال محمد بشير: ٤٣.

أمودج الأفعال (سباق الماضى / المضارع)

ت	الشاهد القرآنى	الملتفت عنه الإفراد	الملتفت إليه الجمع	السور	الآيات
١	﴿أَسْتَوَفَدَ نَارًا ... ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾	هو	هم	البقرة	١٧
٢	﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ... وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾	هو	هم	البقرة	١١٢
٣	﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾	هو	هم	المائدة	٤٥
٤	﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ﴾	هو	هم	المائدة	٤٧
٥	﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ﴾	هو	هم	المائدة	٦٠
٦	﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾	أنا	نحن	الأعراف	١٤٦
٧	﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾	هو	هم	هود	١٥
٨	﴿فَلَنَحْنِئِنَّ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾	هو	هم	النحل	٩٧

أ نموذج الأفعال (سياق الماضي / المضارع)

الآيات	السور	الملتفت إليه الجمع	الملتفت عنه الأفراد	الشاهد القرآني	ت
١٩	الإسراء	هم	هو	﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴾	
١٠٢	الكهف	نحن	أنا	﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي... إِنَّا أَعْنَدْنَا ﴾	١
٣٧-٣٦	طه	نحن	هو	﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ * وَلَقَدْ مَنَّآ ﴾	١
٧٥-٧٤	طه	هم	هو	﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ... ﴾	١
١٠١-١٠٠	طه	هم	هو	﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَلِيدٍ فِيهِ ﴾	١
٤٥-٤٤	الحج	نحن	أنا	﴿ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ * فَكَأَنِّي مِنَ قَرْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾	١
٩٩	المؤمنون	هم	هو	﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾	١

أنموذج الأفعال (سياق الماضي / المضارع)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه الإفراد	الملتفت إليه الجمع	السور	الآيات
١٦	﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْخٌ﴾	هو	هم	المؤمنون	١٠٠
١٧	﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِبَابِنَنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾	هو	نحن	الشعراء	١٥
١٨	﴿وَقَالَ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْطِقَ الطَّيْرِ﴾	هو	نحن	النمل	١٦
١٩	﴿وَمِنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُنْتُمْ وُجُوهُهُمْ﴾	هو	هم	النمل	٩٠
٢٠	﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾	هو	نحن	القصص	٣٥
٢١	﴿فَأَنصِي فَأَعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا نَرْجِعُهُمْ﴾	أنا	نحن	العنكبوت	٥٧-٥٦
٢٢	﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ... * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾	أنت	أنتم	الروم	٣٠-٣١
٢٣	﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ. وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يُمَهِّدُونَ﴾	هو	هم	الروم	٤٤
٢٤	﴿وَلَيْنَ جَنَّتِهِمْ تَبَايَهُ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾	أنت	نحن	الروم	٥٨

أنموذج الأفعال (سياق الماضي / المضارع)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه الإفراد	الملفت إليه الجمع	السور	الآيات
٢١	﴿ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهَوَ الْحَدِيثِ ... أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾	هو	هم	لقمان	٦
٢٢	﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ * فَلَمَّا قُضِنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾	أنا	نحن	سبأ	١٣-١٤
٢٣	﴿ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْتَلْزِمُوا أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾	هو	هم	يس	٢١
٢٤	﴿ وَالَّذِي حَاءَ بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُنْقُوتُونَ ﴾	هو	هم	الزمر	٣٣
٢٥	﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَرْزُقُونَ فِيهَا فَبِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾	هو	هم	غافر	٤٠
٢٦	﴿ وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ ﴾	هو	هم	الشورى	٤١
٢٧	﴿ إِذَا أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَفَرِحَ بِهَا وَإِن نُّصِيبَهُمْ سِتْرَةً ﴾	هو	هم	الشورى	٤٨

أ نموذج الأفعال (سياق الماضي / المضارع)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه الإفراد	الملتفت إليه الجمع	السور	الآيات
٣٢	﴿ قَلَّ أَوْلُو جِثَّتِكُمْ بِأَهْدَى ... قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾	هو	أنتم	الزخرف	٢٤
٣٣	﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا ... * وَلَهُمْ لَصُدُورُهُمْ ﴾	هو	هم	الزخرف	٣٧-٣٦
٣٤	﴿ نَعْبَادُ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ... * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا ﴾	أنا	نحن	الزخرف	١٩-٦٨
٣٥	﴿ إِنِّي بَيَّنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ ﴾	أنا	هم	الأحقا ف	١٦-١٥
٣٦	﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلِدَيْهِ أَفٍ لَكُمْآ ... * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾	هو	هم	الأحقا ف	١٨-١٧
٣٧	﴿ أَفَن كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾	هو	هم	محمد	١٤
٣٨	﴿ كَمَن هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾	هو	هم	محمد	١٥
٣٩	﴿ وَمَنْ لَّمْ يَبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾	هو	هم	الحجرات	١١

أنموذج الأفعال (سياق الماضي / المضارع)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه الإفراد	الملتفت إليه الجمع	السور	الآيات
٤	﴿ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾	أنا	نحن	ق	٣٠-٢٩
٤	﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُعْنَى شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾	هو	هم	النجم	٢٦
٤	﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ... * ذَلِكَ مِمَّا لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾	هو	هم	النجم	٣٠-٢٩
٤	﴿ كَذَبْتَ عَادَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾	أنا	نحن	القمر	١٩-١٨
٤	﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي * وَلَقَدْ سَرَّنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾	أنا	نحن	القمر	٢٢-٢١
٤	﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً ﴾	أنا	نحن	القمر	٣١-٣٠
٤	﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي * وَلَقَدْ سَرَّنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾	أنا	هم	القمر	٤٠-٣٩
٤	﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾	هو	هم	الحشر	٩
٤	﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾	هو	هم	التغابن	١٦
٤	﴿ تَأْتِيهَا النِّجْمُ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾	أنت	أنتم	الطلاق	١
٥	﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ ... خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾	هو	هم	الطلاق	١١

أنموذج الأفعال (سياق الماضي / المضارع)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه الإفراد	الملفت إليه الجمع	السور	الآيات
٥١	﴿ فذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾	أنا	نحن	القلم	٤٤
٥٢	﴿ فَهَوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ * ... كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا ﴾	هو	أنتم	الحاقة	٢١-٢٤
٥٣	﴿ فَمِنْ أَيْنِ يَرَاهُ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾	هو	هم	المعارج	٣١
٥٤	﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ ﴾	أنا	نحن	المعارج	٤٠
٥٥	﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾	هو	هم	الجن	١٤
٥٦	﴿ وَمَنْ نَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾	هو	هم	الجن	٢٣
٥٧	﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآتِنَا عِينَدًا ﴾	أنا	نحن	المدثر	١٥-١٦
٥٨	﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ * وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ * أَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَنْ تُجْمَعَ عِظَامُهُ، ﴾	أنا	نحن	القيامة	١-٣
٥٩	﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمًا فِي الْقُبُورِ * ... إِنَّ نَعْمَ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾	هو	هم	العاديات	٩-١١

٢- سياق الجمع / الأفراد :

إن عملية إبراز المفارقة الخطابية في هذا السياق ستكون من خلال التحول من الجمع إلى الأفراد ، ومن مواطن هذا النمط من الصورة الالتفائية العديدة في القرآن الكريم ، قوله سبحانه : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْذُوا حَتَّىٰ أَنهَم نَصْرًا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

نود أن نشير إلى أن هذه الآية فيها تسلية من الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ وتعزية له عما ناله من المساءة بتكذيب قومه إياه على ما جاءهم به من الحق من عند الله، وفيها إشارة أمر من الله سبحانه لنبيه على الصبر على الأذى حتى يأتي نصره أي نصر الله، وأن مفهوم الصبر قد مارسه الرسل من قبله بوصفه واقعاً ملموساً « والصبر حبس النفس على المكروه »^(١). والإشارة إلى أن وعد الله بالنصر محقق لا محالة بدلالة قوله تعالى : ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ . وفيها وعد بالظفر على من تولى وأدبر^(٢)، وقد جرى العدول من سياق الجمع في قوله تعالى : ﴿ نصرنا ﴾ إلى قوله : ﴿ الله ﴾ الذي مثل صيغة التحول في الصورة الالتفائية وبالإمكان بيان شكل هذا التحول من خلال رسم شكل البنية بالآتي :

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل : ١٦/٢ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الطبري : ٢١٣/٧ .

صيغة الخطاب

سياق الأفراد (٢)

سياق الجمع (١)

أ _ البنية السطحية

الملتفت إليه (الأفراد)

الملتفت عنه (الجمع)

﴿ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾

﴿ نَصْرَنَا ﴾

نحن // قطع تحول هو
تضاد

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

لكلماتنا

نحن // نحن
الجمع الجمع

﴿ نَصْرَنَا ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

يمكن توجيه هذا العدول بلاغياً إلى أنه: سبحانه وتعالى قد أراد تسلية نبيه لما تعرض له من الأذى فوعده بالنصر مما أدى إلى راحته، وهذا نجده في صيغة الجمع في قوله: « نصرنا » والذي مثل سياق الصورة الأول، وكذلك نجد في نون العظمة إشارة إلى الاعتناء بشأن النصر الذي وعد به النبي ﷺ، في حين نجد أن إظهار الاسم الجليل والذي مثل سياق التحول وطرف الصورة الثاني في

قوله: ﴿ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ إشارة إلى اختصاص هذه الكلمات به سبحانه وتمييزاً لها

عن غيرها من كلمات^(١) تصدر من البشر لا من الله سبحانه وتعالى .

ومن المواطن القرآنية للتحويل عن الجمع إلى المفرد قول الحق تبارك

وتعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ

مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يونس: ٤٢ - ٤٣] .

إنّ هذا النص مسوق لبيان حال الكفار في أثناء تبليغهم الدعوة من الرسول

ﷺ والمتمثلة في القرآن الكريم، فمن هؤلاء « من يستمع إلى ما يأتي به من

القرآن، ولكن حين لا يؤمن ولا يحصل فكأنه لا يسمع، ثم قال على وجه التسلية

للنبي ﷺ : أفأنت يا محمد تريد ان تسمع الصم ؟ أي : لا تكثر بذلك »^(٢) .

وموطن التحويل نجده في قوله جل شأنه : « ينظر » بعد قوله : « يستمعون »

فقال : « يستمعون » بلفظ الجمع وقال بعده : « ينظر » بلفظ المفرد ، ويمكن

تمثيل صيغة الخطاب المتحول من خلال رسم البنية للصورة بالآتي :

(١) ينظر : روح المعاني : ١٣٧/٧ .

(٢) المحرر الوجيز : ٩١٠-٩١١ .

صيغة الخطاب

سياق الإفراد (٢)

سياق الجمع (١)

أ _ البنية السطحية

الملفت عنه (الجمع)

﴿يَسْتَمِعُونَ﴾

هم ← قطع تحول // هو
تضاد

﴿يَنْظُرُونَ﴾

الملفت إليه (الإفراد)

متوقع

ب _ البنية العميقة

﴿يَسْتَمِعُونَ﴾

هم ← الجمع
هم ← الجمع

ينظرون

متوقع

غير متوقع

متوقع

شكل البنية

ومن بلاغة هذه الصورة : أن « المستمعين أكثر من الرائيين على وجه العموم، ألا ترى أننا نستمع إلى أناس كثير لا نراهم في الإذاعات وأشرطة التسجيل وغيرها من وسائل السمع، فجمع المستمعين لأنهم كثر... وربما كان ذلك لسبب آخر علاوة على ما ذكر، فإن التأثير بالدعوة يكون بحسب أثر الاستماع لا بحسب الرؤية، فوحد النظر لأن رؤيته ﷺ غير واحدة لا تختلف بالنسبة إلى الرائيين، وجمع الاستماع لأن الاستماع يختلف أثره من شخص لآخر.

فالكلام تختلف مواقعهُ من مستمع إلى آخر، ولذلك وحد الرائيين لأنهم يرون شيئاً واحداً، وجمع المستمعين لأن ذلك أثره مختلف عندهم» (١).

وقد ذكر المفسرون أوجهاً أخرى منها «التفنن وكراهية إعادة صيغة الجمع لثقلها لا سيما بعد أن حصل المراد، أو لعل اختلاف الصنعتين للمناسبة مع مادة فعلي (يستمع وينظر) ففعل (ينظر) لا تلائم صيغة الجمع لأن حروفه أثقل من حروف (يستمع) فيكون العدول استقصاء لمقتضى الفصاحة» (٢).

ونلاحظ هنا أن تبادلاً لغوياً قد حصل في الألفاظ من سياقها الأصلي إلى سياق متحول عنها.

«فإن الصمم مرتبط بالعقل، والعمى مرتبط بالبصر، وفوق ذلك ففي الآية ما يسمى بـ (المضاعفة)، وهي أن يتضمن الكلام معنيين : معنى مصرح به ، ومعنى كالمشار إليه ؛ فالمعنى المصرح به هنا : أنه لا يقدر أن يهدي من عمي عن الآيات، وصم عن الكلم البيّنات، بمعنى أنه صرف قلبه عنها فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها . والمعنى المشار إليه : أنه فضّل السمع على البصر، لأنه جعل مع الصمم فقدان العقل، ومع العمى فقدان النظر فقط» (٣).

ومن التحول من الجمع إلى الأفراد كذلك قوله عز وجل : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ
إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ
مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَيْرٍ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ
نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤْوَفُ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ

(١) التعبير القرآني : ٤٦ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير : ١١ / ١٨٠ .

(٣) البديع في ضوء أساليب القرآن : ١٥٠ .

إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا
عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴿ [الحج: ٥] .

نجد أن طرف الصورة الالتفاتية الأول في قوله تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ ﴾ والذي يُجسد في سياق الجمع ، في حين نجد أن طرف الصورة

الثاني في قوله سبحانه : ﴿ طِفْلاً ﴾ والذي شكل سياق التحول الإفرادي، إذ ورد
لفظ الحال بصيغة الإفراد (طفلاً) لا بصيغة الجمع (أطفالاً) الموافقة لضمير
الجمع العائد على المخاطبين في قوله « نخرجكم » .

هذا الخطاب مسوق من الله عز وجل لجميع خلقه في معرض المحاجة

العقلية على وجود البعث والحساب، كأنه قيل : « إن ارتبتم في البعث فمزيل
ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم »^(١) ، ويرى ابن جني في دلالة هذا التحول :

« ... فحسن لفظ الواحد هنا لأنه موضع تصغير لشأن الإنسان وتحقير لأمره ،
فناسب به ذكر الواحد لقلته عن الجماعة ... وهذا مما إذا سئل الناس عنه قالوا :
وضع الواحد موضع الجماعة اتساعاً في اللغة، وأنسوا حفظ المعنى لتقوى دلالة
عليه، وتنضم بالشبه إليه »^(٢) .

والعرب قد تستعمل لفظ (طفل) للمذكر والمؤنث المفرد والمثنى والجمع ،

جاء في لسان العرب : « جارية طفل، وجاريتان طفل وجوار طفل، وغلّام

طفل ، وغلّمان طفل »^(٣) كما تستعملها على القياس فتقول : « طفل وطفلة

وظفان وطفلتان وأطفال وطفلات »^(٤) .

(١) الكشف : ٦٩٠ .

(٢) المحتسب : ٢٦٧/٢ .

(٣) لسان العرب : ٤٢٧/١٣ ، مادة (طفل) .

(٤) المصدر نفسه : ٤٢٧/١٣ .

لذلك كان استعمال العرب لفظ (الطفل) « للجمع معروف عند العرب وبه جرت ألسنتهم ، أما سبب تخصيص كل موطن بالاستعمال الذي ورد فيه فهذا يظهر من السياق »^(١) ، وبما أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي فقد استعمل لفظ (الطفل) عدة استعمالات بحسب السياق الخطابي ، من ذلك استعماله للفظ (الطفل) مفرداً كما نجده في سياق التحول للصورة الالتفافية في هذه الآية ، فالسياق تطلّب ذلك لأنه يتكلم على خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ، فبنى الكلام على خلق الجنس وليس على خلق الأفراد ، فلم يقل : خلقناكم من نطف ثم من علقات أو ثم من مضغات ، بل بناه على المفرد الذي يفيد الجنس ، والنطفة والعلقة والمضغة تخرج طفلاً لا أطفالاً^(٢) ، وإيضاحاً لصيغة التحول هذه يمكن بيان شكل البنية للصورة ببنيتها السطحية والعميقة بالآتي :

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ٨٠ .

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ٨١ .

صيغة الخطاب

سياق الإفراد (٢)



سياق الجمع (١)

أ - البنية السطحية

الملفت عنه (الجمع)

﴿تُخْرِجُكُمْ﴾

أنتم
قطع تحول
هو ←
تضاد

الملفت إليه (الإفراد)

﴿طِفْلاً﴾

غير متوقع

متوقع

ب - البنية العميقة

﴿تُخْرِجُكُمْ﴾

أنتم
←
أنتم
الجمع

أطفالاً

متوقع

متوقع

شكل البنية

على مستوى صيغة الخطاب (الإرسالية) ووفق الوظيفة التواصلية نجد « أن استقراء العنصر غير المتوقع في السياق الأسلوبي (الجمع في صيغة المفرد) يفضي إلى عدة دلالات :

- ١- إن تشابه بنى الإنسان في المرحلة الأولى من الطفولة تشابهاً يلغي الاختلافات كافة، يعني كونهم - في هذا الطور من العمر - ماهيةً واحدة .
- ٢- إن التوحد السلوكي اللافت بين أطفال البشر في هذه المرحلة المبكرة من حياتهم يستوعب اختلافات النوع والعرق والبيئة جميعاً .

٣- إن تفتح الوعي والشعور على العالم في سنوات الطفولة يكاد يأخذ مساراً واحداً يتميز بالكمون الشديد، فالأم (أو بالتحديد الوجود الفيزيقي للأم) مجاز وحيد يختصر المحسوسات الخارجية كلها بالنسبة إلى جميع الأطفال الذين خرجوا إلى الحياة تواء، كأنهم - في هذه الحالة - طفل واحد يحصر كل الرموزات في رمز ينطوي على وجوده هو .

٤- تمثل سنوات الطفولة الأولى لكل الرجال والنساء على الأرض (ذاكرة بعيدة موحدة) لعلها (ذاكرة الذاكرة) حيث يتلبس الزمن والمكان والأشياء بغسق لاف ت يحتوي على كل ما عداه، ويسمه بالغموض والتأرجح، ويعتبر نمط (الرؤية) هنا طبيعة واحدة للوجود الذي يدنو من شكل (الرؤيا) ويمنحه معناه الرمزي «^(١)» .

(١) النص القرآني من الجملة إلى العالم : ٤٦ .

أ نموذج الأفعال (سياق المضارع / الماضي)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه المضارع	الملفت إليه الماضي	السور	الآيات
١	﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا... * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً... ﴾	أنتم	أنت	البقرة	٢٩ - ٣٠
٢	﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى... ﴾	نحن	أنا	البقرة	٣٨
٣	﴿ فَإِنِ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِن لَّوَلُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَكَفِكَ لَهُمُ اللَّهُ... ﴾	أنتم	أنت	البقرة	١٣٧
٤	﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْفُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ... * وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي... ﴾	أنتم	أنت	البقرة	١٨٦
٥	﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ... ﴾	أنتم	أنت	البقرة	٢٧١ - ٢٧٢

أ نموذج الأفعال (سياق المضارع / الماضي)

الآيات	السور	الملفت إليه الماضي	الملفت عنه المضارع	الشاهد القرآني
١٥ - ١٤	آل عمران	أنت	هم	﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبِّ الشَّهَوَاتِ ... ﴾ * قَدْ أَوْبَيْتَكُمْ ... ﴿
١٢٤-١٢٣	آل عمران	أنت	أنتم	﴿ ... فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴾ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴿
١٢٨-١٢٦	آل عمران	أنت	أنتم	﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ... ﴾ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴿
١٥٩-١٥٨	آل عمران	أنت	أنتم	﴿ وَلَئِن مَّتَّعْتُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ * فِيمَا رَحِمْتُمْ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ ﴿
٦٩	النساء	هو	هم	﴿ وَحَسَنَ أَوْلِيَّتِكَ رَفِيقًا ﴾
٦٠-٥٩	المائدة	أنت	أنتم	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ... ﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴿
٥٩-٥٨	المائدة	أنت	أنتم	﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴿

أنموذج الأفعال (سياق المضارع / الماضي)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه المضارع	الملتفت إليه الماضي	السور	الآيات
١٢	﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾	نحن	أنا	الأعراف	١٨٣-١٨٢
١٤	﴿ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾	هم	أنا	يوسف	٧٢
١٥	﴿ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾	هم	هو	الإسراء	٢٧
١٦	﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا... أَفَسْتَخِدُونَهُ وَذَرَيْتَهُ أُولِيَاءَ مِن دُونِي ﴾	نحن	أنا	الكهف	٥٠
١٧	﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ... وَاتَّخَذُوا آيَاتِي ﴾	نحن	أنا	الكهف	٥٦
١٨	﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ... *... فِي غَطَاءٍ عَن ذِكْرِي ﴾	نحن	أنا	الكهف	١٠١-١٠٠
١٩	﴿ فَنجينك من العَمْرِ... * وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾	نحن	أنا	طه	٤١-٤٠

أنموذج الأفعال (سياق المضارع / الماضي)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه المضارع	الملفت إليه الماضي	السور	الآيات
٢	﴿ كَلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾	نحن	أنا	طه	٨١
٢	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾	نحن	أنا	الأنبياء	٢٥
٢	﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ﴾	نحن	أنا	الأنبياء	١٠٥
٢	﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾	نحن	أنا	الحج	٢٦
٢	﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا... وَلَا تَحْطِبْنِي ﴾	نحن	أنا	المؤمنون	٢٧
٢	﴿ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ * فَكَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾	نحن	أنا	المؤمنون	٦٥-٦٦
٢	﴿ وَرَخِينَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾	نحن	أنا	الشعراء	٥٢

أنموذج الأفعال (سياق المضارع / الماضي)

ت	الشاهد القرآني	الملتفت عنه المضارع	الملتفت إليه الماضي	السور	الآيات
٢٧	﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ... وَإِن جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ﴾	نحن	أنا	العنكبوت	٨
٢٨	﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ... أَنْ أَشْكُرَ لِي ﴾	نحن	أنا	لقمان	١٤
٢٩	﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدْيَهَا وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾	نحن	أنا	السجدة	١٣
٣٠	﴿ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ﴾	نحن	أنا	سبأ	٤٥
٣١	﴿ وَجَعَلُوا لَهُ، مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾	نحن	أنا	الزخرف	١٥
٣٢	﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً... * فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنَذْرِي ﴾	هم	هو	القمر	١٥-١٦
٣٣	﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذْرِي ﴾	نحن	أنا	القمر	٣٧
٣٤	﴿ سَسْتَدْرِكُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾	نحن	أنا	القلم	٤٤-٤٥
٣٥	﴿ وَإِن لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى * فَأَنْذَرْتُمْ كُنَّا نَارًا تَلْقَى ﴾	نحن	أنا	الليل	١٣-١٤

المبحث الثاني

سياق الأفراد / التثنية

سياق التثنية / الأفراد

١ - سياق الأفراد / التثنية :

من المواطن القرآنية التي يتمثل فيها هذا السياق قوله جل شأنه : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ٦٤] .

إن هذه الآية الكريمة مسوقة لبيان ادعاء اليهود على الله عز وجل دعوات باطلة، منها وصفه بالبخل (سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً) ونجد في هذه الآية صراعاً ضدياً بين عنصرين هما (البخل / العطاء) فالعنصر الأول يمثل الدعوة الباطلة التي ادعى بها اليهود على الله سبحانه، أما العنصر الثاني والمتمثل في العطاء فهو يجسد الرد على هذه الدعوة ودحضها، وقد جاء هذان العنصران في إطار تشكيل الصورة الالتفائية والمتمثلة أطرافها في قوله تبارك وتعالى: « يد » والذي يمثل سياق الصورة الأول الأفراد، في حين نجد طرف الصورة الالتفائية الثاني في قوله : « يده » إذ جرى التحول للصورة من الأفراد إلى التثنية، ودلالة وصف اليد بالغل إشارة إلى البخل في العطاء لأن العرب يجعلون العطاء معبراً عنه باليد، ويجعلون بسط اليد استعارة للبذل والكرم، ويجعلون ضد البسط استعارة للبخل فيقولون : أمسك يده وقبض يده، وقد اختصت لفظة (غل) بالقرآن الكريم فلم ترد في خطاب العرب^(١) .

(١) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢٤٩/٦ .

ويمكن بيان شكل البنية لهذه الصورة الالتفائية بالآتي :

صيغة الخطاب

سياق التثنية (٢)

سياق الإفراد (١)

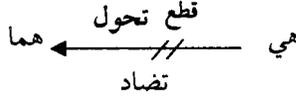
أ _ البنية السطحية



الملتفت إليه (التثنية)

الملتفت عنه (الإفراد)

﴿يَدَاهُ﴾



﴿يَدُ﴾

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

يده



﴿يَدُ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

لقد جسد سياق التحول إلى (التثنية) نقضاً لكلام اليهود، وإثبات سعة فضله تعالى، وكان بسط اليدين تمثيل لفعل العطاء، وهو يتضمن تشبيه الإنعام بأشياء تعطي باليدين.

وقد جاء سياق الخطاب ذماً لليهود على ادعائهم على الله سبحانه بالبخل، ولا سيما أنهم أهل إيمان ودين ، فلا يجوز في دينهم وصف الله تعالى بصفات الذم .

فقولهم هذا : إما أن يكون جرى مجرى التهكم بالمسلمين إلزاماً لهذا القول الفاسد لهم، كما روي أنهم قالوا ذلك لما كان المسلمون في أول زمن الهجرة في شدة ، وفرض الرسول ﷺ عليهم الصدقات، إذ يجب تنزيه الله تبارك وتعالى عن هذه المقالات، أما بالنسبة لبلاغة التحول في الصورة الالتفاتية فله مقصدية، إذ إن ذكر اليد هنا بطريقة التثنية لزيادة المبالغة في الجود، وإلا فاليد في حال الاستعارة للجود أو البخل لا يقصد منها مفرد ولا عدد، فالتثنية مستعملة في مطلق التكرير^(١) .

(١) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢٥٠/٦ .

٢- سياق التثنية/الإفراد :

إن كون اللغة في شكل سياقات تحويلية تعد قوة فاعلة تعطي للأجزاء دلالات أو فعاليات خاصة^(١)، وبخاصة إذا كان الخطاب دعويًا، ومن المواضيع القرآنية للتحويل من سياق التثنية إلى سياق الإفراد قوله تبارك وتعالى : ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧] هذه الآية الكريمة تفرغ على الإخبار بعداوة إبليس لآدم (عليه السلام) ولزوجه : بأن نهيا نهى التحذير عن أن يتسبب إبليس في خروجهما من الجنة، لأن العدو لا يروقه صلاح حال عدوه^(٢) .

وقد حصل التحويل في النص من قوله جل شأنه : « فلا يخرجنكما » الذي مثل سياق الصورة الأول (التثنية) إلى قوله جل شأنه : « فتشقى » وكان مقتضى الظاهر أن يقال : « فتشقيان » مطابقة للتثنية ويمكن بيان شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :

(١) ينظر : نظرية المعنى في النقد القديم : مصطفى ناصف : ٤٨ .

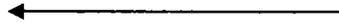
(٢) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٣٢١/١٦ .

صيغة الخطاب

سياق الإفراد (٢)

سياق الجمع (١)

أ - البنية السطحية



الملتفت إليه (الإفراد)

الملتفت عنه (الجمع)

﴿فَتَشَقَّجْ﴾

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ﴾

أنتما / أنت
 قطع تحول
 تضاد

غير متوقع

متوقع

ب - البنية العميقة

فتشقيان

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ﴾

أنتما / أنت
 الشنية / الشنية

متوقع

متوقع

شكل البنية

ويرى الزمخشري في بلاغة هذا التحول : « فلا يخرجنكما » فلا يكون سبباً لإخراجكما . وإنما اسند إليه آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد إشراكهما في الخروج ؛ لأن في ضمن شقاء الرجل - وهو قيم أهله وأميرهم - شقاءهم ، كما أن في ضمن سعادته سعادتهم ، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها مع المحافظة على الفاصلة ، وأريد بالشقاء التعب في طلب القوت ، وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع إليه^(١)

(١) ينظر : الكشاف : ٦٦٨ ؛ والإتقان في علوم القرآن : ٩٤/٢ .

وربما يكون من بلاغة هذه الصورة أنه « أسند ترتب الشقاء إلى آدم خاصة دون زوجه إيجازاً، لأن شقاء أحد الزوجين شقاء الآخر لتلازمهما في الكون، مع الإيمان أن شقاء الذكر أصل شقاء المرأة »^(١).

ولنتأمل كذلك قوله عز وجل : ﴿ فَأْتِيَافِرَعَوْتَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

[الشعراء : ١٦]

نجد أن الالتفات في هذه الآية الكريمة حصل من خلال التحول من سياق التثنية في قوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَافِرَعَوْتَ فَقُولَا إِنَّا ﴾ الذي يجسد طرف الصورة الأول إلى قوله عز وجل : ﴿ رَسُولُ ﴾ والذي مثل طرف الصورة الثاني (الملفت إليه) قال الزمخشري : « فإن قلت : هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله : إِنَّا رسولا ربك قلت : الرسول يكون بمعنى : المرسل وبمعنى : الرسالة ، فجعل ثم بمعنى الرسل فلم يكن بد من تثنيته ، وجعل هاهنا بمعنى : الرسالة فجاز التسوية فيه إذا وصف به بين الواحد والتثنية والجمع ، كما يفعل بالصفة بالمصادر نحو صوم وزور »^(٢) . ويمكن بيان شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :

(١) تفسير التحرير والتنوير : ٣٢١/١٦ .

(٢) الكشف : ٧٥٦ .

صيغة الخطاب

سياق الأفراد (٢)

سياق التثنية (١)

أ - البنية السطحية

الملتفت إليه (الأفراد)

الملتفت عنه (التثنية)

﴿رَسُولٌ﴾

أنتما ← قطع تحول أنت
تضاد

﴿فَقُولَا إِنَّا﴾

غير متوقع

متوقع

ب - البنية العميقة

رسولا

أنتما ← أنتما
التثنية التثنية

﴿فَقُولَا إِنَّا﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

نجد أن تعبير القرآن الكريم عن موسى وهارون عليهما السلام (وهما مثنى) بالمفرد في لفظ (رسول) الذي يجسد سياق التحول في الصورة الالتفاتية ويقودنا هذا العنصر غير المتوقع (المثنى بصيغة المفرد) أيضاً إلى عدة دلالات يمكن إجمالها بالآتي^(١) :

١ - إن البلاغ المكلفين به بلاغ واحد، فكما لو كانا - انطلاقاً من واحدية الرسالة والمرسل إليه والمرسل - رسولاً واحداً .

٢ - إن هارون كان لسان موسى لتمييزه عنه بقوة الإفصاح والحجاج (وكان موسى عبي اللسان) فجعل الله منهما كياناً واحداً تتجاوب أعضاؤه في توصيل الخطاب وتأكيد محموله .

(١) ينظر : النص القرآني من الجملة إلى العالم : ٤٧ .

٣- إن صلة القرابة بين الاثنين (الأخوة) وصلة الممارسة السياسية ﴿وَأَجْعَلِ لِي
وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ * هَارُونَ أَخِي﴾ معاً قد تفضي إلى النظر إليهما بوصفهما واحداً على
مستوى « الفاعل الدلالي » [رسول] .

من خلال ما تقدم نجد بأن التغيير في نظام الكلمات غير معنى العبارة^(١) من
دلالة محدد إلى مجموعة دلالات أمكن استخلاصها من السياق .

ومن المواضيع الأخرى قوله جل شأنه : ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى﴾ « وفيه
وجهان ، أحدهما : أنه أفرد موسى عليه السلام بالنداء بمعنى التخصيص
والتوقف ، إذ كان هو صاحب عظيم الرسالة وكريم الآيات . ذكره ابن عطية .
والثاني : لما كان هارون أفصح لساناً منه على ما نطق به القرآن ثبت عند جواب
الخصم الألد ، ذكره صاحب الكشاف^(٢) .»

(١) ينظر : نظرية المعنى في النقد القديم : ١٤ .

(٢) البرهان في علوم القرآن : ٢٤٠/٢ .

المبحث الثالث

سياقات التحول

الثنية / الجمع

الجمع / الثنية

١- سياق الثنية / الجمع :

ومن المواطن القرآنية للتحويل عن سياق الثنية إلى الجمع قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَ لِقَوْمِكَ مِمَّا يَمْصُرُ بِيُوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٨٧].

هذا خطاب الله عز وجل لنبيه موسى وأخيه هارون (عليهما السلام) وهو خطاب تكليف بإقامة بيوتاً لعبادته سبحانه في مصر، وكذلك الأمر بتوجيه هذه البيوت أو المساجد إلى الكعبة من خلال جعلها قبلة « وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة، وكانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم »^(١).

وتتمظهر أطراف الصورة الالتفافية في هذا الخطاب في قوله سبحانه : ﴿ أَن تَبَوَّءَ ﴾ الذي يمثل سياق الصورة الأول (الثنية) في حين يجسد قوله جل شأنه : ﴿ وَأَجْعَلُوا ﴾ سياق الصورة الثاني (الجمع) ، ويمكن تمثيل ذلك من خلال رسم شكل البنية لهذه الصورة بالآتي :

(١) الكشاف : ٤٧٢ .

صيغة الخطاب

سياق الجمع (٢)

سياق التثنية (١)

أ _ البنية السطحية

الملفت عنه (التثنية)

الملفت إليه (الجمع)

﴿ أَنْ تَبُوءَ ﴾

﴿ وَأَجْعَلُوا ﴾

أنتما أنتم
 قطع تحول
 //
 تضاد

متوقع

غير متوقع

ب _ البنية العميقة

﴿ أَنْ تَبُوءَ ﴾

أنتما أنتما
 التثنية التثنية

واجعلا

متوقع

متوقع

شكل البنية

وعلى صعيد التمثيل البلاغي تتجسد بلاغة هذا الخطاب في قول الزمخشري: « فإن قلت : كيف نوع الخطاب فثنى أولاً، ثم جمع، ووحد آخرأ؟ قلت : خوطب موسى وهارون (عليهما السلام) أن تبوأ لقومكما بيوتاً واختاراهما للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء، ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض تعظيماً لها وللمبشر بها»^(١).

(١) الكشاف : ٤٧١-٤٧٢ ؛ والبرهان في علوم القرآن : ٢٤٢/٢ ؛ والجامع الكبير : ١٠٢ .

لأنه الرسول على الحقيقة^(١) . « إذ نجد أنه سبحانه أسند الفعل مرتين إلى واو الجماعة، إشارة إلى أن هذا التكليف لا يخصهما فحسب، بل هما وقومهما جميعاً، ثم أفرد الفعل في آخر الآية ، يشير بذلك إلى أن المخاطب أولاً وبالذات إنما هو أحدهما ، وهو الرسول موسى »^(٢) .

ومن تلك المواطن كذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ تُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ

دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١].

يتضح في تركيب هذه الآية الكريمة طرفي الصورة الالتفائية ، إذ نجد في طرف الصورة الأول الذي يمثله سياق التثنية قوله تعالى : « قالتا » أما سياق التحول فنجد في قوله جل شأنه : « طائعين » والذي يمثل طرف الصورة الثاني، ويرى الزمخشري في هذه الآية : « فإن قلت : هلا قيل : طائعتين على اللفظ أو طائعات على المعنى ، لأنها سماوات وأرضون ، قلت : لما جعلنا مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكره قيل طائعين »^(٣) . ومن خلال هذين الطرفين يمكن رسم شكل البنية بالآتي :

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القراءة : ١٠٢ .

(٢) من بلاغة القرآن : ١١٠ .

(٣) الكشف : ٩٦٦ .

صيغة الخطاب

سياق الجمع (٢)

سياق التثنية (١)

أ _ البنية السطحية

الملفت إليه (الجمع)

الملفت عنه (التثنية)

﴿ طَائِعِينَ ﴾

﴿ قَالَتَا ﴾

هما ← قطع تحول // نحن
تضاد

غير متوقع

متوقع

ب _ البنية العميقة

طائعتين

هما ← التثنية
التثنية

﴿ قَالَتَا ﴾

متوقع

متوقع

شكل البنية

تتصافر إلى جانب الصورة الالتفائية صورة أخرى في هذه الآية الكريمة وهي صورة إنزال السماء والأرض منزلة العقلاء من خلال توجيه الأمر إليهما تشخيصياً، ووصفهما بالاستجابة والانقياد، إذ نجد أن الأرض والسماء عاقلتان يوجه إليهما الخطاب ، فتسرعان بالجواب، بلا فتور ولا سأم ولكن في رضا وارتياح^(١) ، وهو - كما يرى الزمخشري - سر ووصفهما بالطاعة بصيغة جمع المذكر العاقل (طائعين) عدولاً عن صيغة المثنى المؤنث (طائعتين) التي يقتضيها

(١) ينظر : المعاني الثانية في الأسلوب القرآني : ٤٠٨ .

ظاهر السياق (قالتا) وعن صيغة جمع المؤنث (طائعات) الملائمة لما لا يعقل^(١) وربما يكون السر والنكته البلاغية في صيغة هذا العدول: أن الله سبحانه وتعالى يعرض « بهؤلاء الذين ضلت عقولهم، فتردت بها سفاهتهم في هوة الشرك والغواية، فكأن الآية الكريمة بتضمنها هذا العدول في ذلك السياق تجسد المفارقة الواضحة بين تلك الجمادات التي لا تملك إلا الطاعة والانقياد المطلق لجبروت الخالق عز وجل، وبين هؤلاء الملاحدة من بني البشر (العقلاء) الذين تعطلت عقولهم فانغمسوا في مبادئ المعصية بين إشراك به واقع، وإعراض عند تذكيرهم بآياته ، ودلائل قدرته متوقع^(٢) .»

(١) ينظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : ١٠٢ .

(٢) أسلوب البلاغة القرآنية : ١٠٣ .

أنموذج العدد (سياق الإفراد - الجمع)

ت	الشاهد القرآني	الملفت عنه الأفراد	الملفت إليه الجمع	السور	الآيات
١	﴿ وَذَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخِمْكَانِ فِي الْحَرَّةِ... وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾	هما	هم	الأنبياء	٧٨
٢	﴿ هَذَا نِ خَصْمَانِ أَخْتَصِمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾	هما	هم	الحج	٥
٣	﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾	هما	هم	الأحزاب	٣٦
٤	﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ... وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾	هما	هم	يس	٤٠
٥	﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾	هما	هم	الحجرات	٩
٦	﴿ قَالَ قَبِيْنُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتَهُ... * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيْ ﴾	هما	أنتم	ق	٢٧-٨
٧	﴿ إِنْ نُوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾	أنتما	أنتم	التحريم	٤

٢ - سياق الجمع / التثنية

من المواطن القرآنية للتحوّل عن سياق الجمع إلى سياق التثنية قوله تعالى :

﴿ يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَيَأْتِي آءِ الْآلَةِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴾ [الرحمن : ٣٣ - ٣٤] .

هذا الخطاب فيه بيان لقدرة الله سبحانه وتعالى بوصفه الخالق وعجز (الجن والأنس) بوصفهم مخلوقين عن الهروب من قضائه والخروج من ملكوته ومن سمائه وأرضه، إذ أنّه تبارك وتعالى يوجه الخطاب لهم ويبيّن بأن عجزهم بائن ، ثم بين سبحانه بأنهم لا يستطيعون فعل ذلك، أي : المقدرة على النفاذ من ملكوته إلا بسلطان والمتمثل بالقوة والقهر والغلبة^(١) .

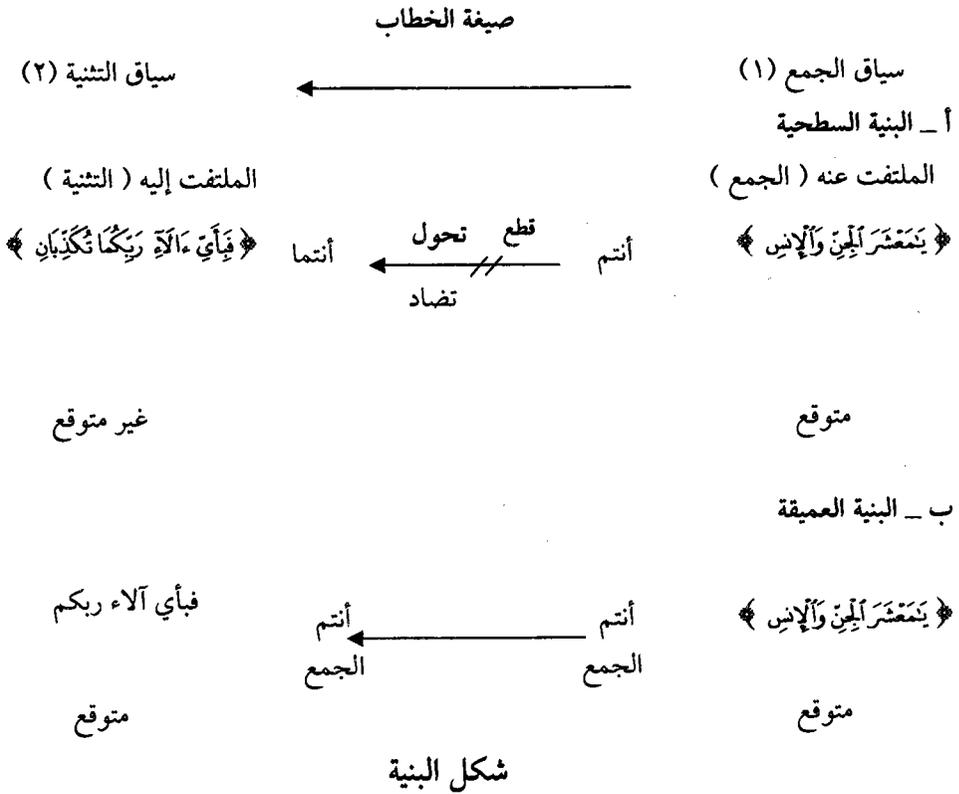
وقد قيل : بأن هذه الآية حكاية عن حال يوم القيامة، وذلك أنه يفر الناس من أقطار الأرض، والجن كذلك ، لما يرون من هول يوم القيامة، فيجدون سبعة صفوف من الملائكة قد أحاطت بالأرض فيرجعون من حيث جاؤوا، فحينئذ يقال لهم : ﴿ يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ ، وقيل بل هي مخاطبة في الدنيا، أي : إن استطعتم الفرار من الموت بأن تنفذوا من أقطار السموات والأرض^(٢) .

وعلى صعيد بنية التحوّل للصورة الالتفائية فنجدها ماثلة في بداية الآية التي جسدت الخطاب بسياق الجمع في قوله تعالى : ﴿ يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ ثم تحولت بنية الخطاب إلى سياق التثنية الذي يمثل سياق التحوّل الأسلوبى للصورة

(١) ينظر : الكشاف : ١٠٧٢ .

(٢) ينظر : المحرر الوجيز : ١٨٠٢ - ١٨٠٣ .

في قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، ونكتة هذا العدول البلاغية تتمثل في أن سياق الجمع جاء لتعجيزهم أي تعجيز كل فرد من الطائفتين بدلالة لفظ « معشر » أيضاً الذي يدل على العشيرة أي عشيرة الرجل والعدد الكامل لهم^(١) ، ثم جاء سياق التثنية لأن كل فرد منسوب إلى طائفته من الأنس والجن، ومعنى النفاذ الذي جاء في سياق الجمع في قوله تعالى ﴿ فَأَنْفِذُوا ﴾ الذي جاء بصيغة الأمر يعني من « نفذ السهم في الرمية نفوذاً ونفاذاً^(٢) ، ومعناه التعجيز، ويمكن بيان ذلك من خلال شكل البنية للصورة بالآتي:



(١) المفردات في غريب القرآن : ٣٣٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ٥٠٢ .

الخاتمة والنتائج :

بعد التدقيق في موضوعات الكتاب ومتعلقاته، التي تمت معالجتها نظرياً وتطبيقياً، رأينا أن نبرز ما يمكن استخلاصه من نتائج ذات أهمية موضوعية وقد تمثلت بما هو آت :

١ - في إطار التمهيد : وجدنا أن الالتفات بمعناه اللغوي يقارب معناه الاصطلاحي، لكن هذه المقاربة ليست كلية إلى درجة التطابق، وذلك لأن المعنى الاصطلاحي يأخذ مديات أوسع في التدليل على معنى الالتفات وعليه جرى التعويل، ولقد تمت الإفادة من مجمل المفاهيم الاصطلاحية لدى العرب والغرب؛ لغرض المقاربة بين المنهجين (البلاغي والأسلوبي)، وقد تعرض مصطلح الالتفات إلى إشكالية في تحديد مفهومه في تراثنا البلاغي العربي ، وكذلك في النقد الأدبي الحديث، وأما بالنسبة للجانب الوظيفي للخطاب الالتفاتي، قد اتضح لنا بأن للالتفات وظائف عديدة في الخطاب القرآني منها: الوظيفة الدينية، والوظيفة الجمالية، لكن كانت الوظيفة الدينية هي الغاية التي قام عليها الخطاب الالتفاتي .

٢ - لقد أدت المخططات البنائية المشكلة للصورة الالتفاتيّة دوراً مهماً في تفعيل المفهوم الإجرائي على الصعيدين التركيبي والدلالي؛ فكان وجودها بمثابة الحجر الأساس الذي يبين كيفية اشتغال الصورة الالتفاتيّة بأبعادها وسياقاتها البنائية والتواصلية (الإبلاغية) .

٣ - كان للعملية الإحصائية التي قمنا بها لغرض تحديد المساحة التي شغلها الالتفات في القرآن الكريم دور أسلوبي فاعل، إذ تبين من خلال عملية

الإحصاء بأن مفهوم الالتفات يعد ظاهرة بلاغية وأسلوبية واضحة جد الوضوح في الخطاب القرآني، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أهمية الالتفات وعمقه البلاغي في إيصال المقاصد الإلهية، وتبين أيضاً من خلال الإحصاء بأن أنماط الالتفات الثلاثة (الضمائي والفعلي والعددي) وسياقاتها تتفاوت فيما بينها في درجة الورد، إذ كان الالتفات الضمائي يشغل مساحة أكثر من الالتفات الفعلي والعددي .

٤ - إن الالتفات الضمائي بوصفه أحد الأنماط الأسلوبية للالتفات في القرآن الكريم، كان وسيلة للإقناع، لإيصال الحقائق الدينية، وقد اشتمل على العديد من الموضوعات القرآنية في عالم الشهادة وعالم الغيب .

٥ - لقد أدى الالتفات الفعلي دوراً فاعلاً على المستوى المشهدي من خلال استحضار المشهد الحدتي، وبخاصة فيما يتعلق بمشاهد الغيب، كيوم القيامة مثلاً، وعمل على تفعيل الأوامر والنواهي ضمن منظومة التكليف الشرعية.

٦ - أدى الالتفات العددي وظائف أساسية في الخطاب القرآني، من أهمها إعطاء المفرد حكم الجمع والعكس صحيح، أو جعل المثني مفرداً والعكس صحيح، وجعل المثني جمعاً والعكس صحيح، لنكت بلاغية تتعلق بالمقام ووظائفه المقصدية.

٧ - أدى الالتفات بأنماطه وسياقاته المختلفة دوراً فاعلاً في إضفاء المعنى البلاغي والجمالي على الخطاب القرآني، وفي توصيل الغرض الديني الذي يعدّ من أهم مقاصد القرآن الكريم، بل هو الغاية الأساسية من منظومته البلاغية المعجزة .

ثبت المصادر والمراجع :

- ١ - الإنتقان في علوم القرآن : السيوطي ، دار إحياء العلوم ، بيروت .
- ٢ - أثر النحاة في البحث البلاغي : د . عبد القادر حسين ، دار نهضة مصر
- ٣ - الأدب والدلالة : تودوروف ، ت : محمد نديم خشفة ، مركز الإنماء .
- ٤ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم : أبو السعود محمد بن مصطفى العمادي ، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن ، دار الكتب العلمية .
- ٥ - أساس البلاغة : الزمخشري قدم له : د . محمود فهمي حجازي ، الهيئة العامة لقصور الثقافة - الشركة الدولية للطباعة ٦ أكتوبر ، ٢٠٠٣ م .
- ٦ - أساليب البلاغية - الفصاحة ، البلاغة ، المعاني : د . أحمد مطلوب .
- ٧ - استقبال النص عند العرب : د . محمد المبارك المؤسسة العربية للدراسات .
- ٨ - الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية : د . مجيد عبد الحميد ناجي .
- ٩ - أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : د . حسن طبل ، ملتزم الطبع والنشر .
- ١٠ - أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة . . ومنهاجاً : د . عبد الغني سعيد بركة .
- ١١ - الأسلوب والأسلوبية : بيير جيرو ، ت : د . منذر عياشي .
- ١٢ - أسلوبية البناء الشعري : : أرشد علي محمد ، دار الشؤون الثقافية العامة .
- ١٣ - أسلوبية الرواية : حميد الحمداني ، مطبعة النجاح الجديدة .
- ١٤ - الأسلوبية والأسلوب : د . عبد السلام المسدي ، دار العربية للكتاب
- ١٥ - الأسلوبية ونظرية النص : د . إبراهيم خليل ، المؤسسة العربية للطباعة .
- ١٦ - أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية : محمد الشاوس .
- ١٧ - أصول التفكير النحوي : د . علي أبو المكارم ، منشورات الجامعة الليبية .
- ١٨ - الأصول في النحو : السراج ، ت : د . عبد الحسين الفتلي .
- ١٩ - الأصول المعرفية لنظرية التلقي : ناظم عودة خضر ، دار الشروق للنشر .

- ٢٠ - الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : د. عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي
- ٢١ - الإعجاز الفني في القرآن : عمر السلامي ، طبع بمصنع للشركة التونسية
- ٢٢ - أقتعة النص : سعيد الغانمي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ط ١ .
- ٢٣ - الأمالي الشجرية : أبي السعادات هبة الله بن علي بن حمزة العلوي .
- ٢٤ - الأمثال في القرآن الكريم : محمود بن الشريف ، الناشر : دار عكاظ .
- ٢٥ - إنتاج الدلالة الأدبية : د. صلاح فضل ، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع .
- ٢٦ - انفتاح النص الروائي : سعيد يقطين ، المركز الثقافي العربي ، بيروت .
- ٢٧ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بـ (تفسير البيضاوي) : حققه وبيّن الأحاديث الموضوعية والضعيفة والإسرائيليات فيه : الشيخ عبد القادر عرفات حسونة .
- ٢٨ - البديع في ضوء أساليب القرآن : د. عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف .
- ٢٩ - البديع في نقد الشعر : أسامة بن مرشيد بن علي بن منقذ .
- ٣٠ - البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن : الزملكاني ت : د. خديجة الحديثي .
- ٣١ - البرهان في علوم القرآن : الزركشي ، دار إحياء الكتب العربية .
- ٣٢ - البلاغة الاصطلاحية : د. عبده عبد العزيز قلقيلة ، دار الفكر العربي
- ٣٢ - بلاغة الخطاب وعلم النص : د. صلاح فضل ، سلسلة عالم المعرفة .
- ٣٣ - البلاغة العربية (قراءة أخرى) : د. محمد عبد المطلب ، الشركة العالمية
- ٣٤ - بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : د. فاضل صالح السامرائي ، دار الثقافية .
- ٣٥ - بلاغة الكلمة والجملة والجميل : د. منير سلطان ، منشأة المعارف
- ٣٦ - البلاغة والأسلوبية : د. محمد عبد المطلب ، الهيئة المصرية العامة .
- ٣٧ - بلاغتنا اليوم بين الجمالية والوظيفية : محمد بركات حمدي ، دار وائل .
- ٣٨ - بنية اللغة الشعرية : جان كوهن ، ت : محمد الولي ، دار توبقال للنشر .
- ٣٩ - تأويل مشكل القرآن : أبو محمد عبد الله مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) شرحه ونشره السيد أحمد صقر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٣ ١٩٨١ م .
- ٤٠ - التبيان في البيان : شرف الدين الحسن بن محمد بن عبد الله الطيبي : ت :

- توفيق الفيل ، وعبد اللطيف لطف الله ، دار السلاسل للطباعة والنشر - الكويت .
- ٤١ - تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن : لابن أبي الأصبغ المصري ، تحقيق : د. حنفي محمد شرف ، لجنة إحياء التراث الإسلامي .
- ٤٢ - تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد المسمى بـ (تفسير التحرير والتنوير) : محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية .
- ٤٣ - تحليل الخطاب الروائي : سعيد يقطين ، الناشر : المركز الثقافي العربي
- ٤٤ - تحليل الخطاب الشعري : د. محمد فتوح ، النادي الأدبي الثقافي .
- ٤٥ - تذوق النص الأدبي : د. رجاء عيد ، دار قطري بن الفجاءة للنشر والتوزيع
- ٤٦ - التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ، دار المعارف بمصر .
- ٤٧ - تطوير البحث الدلالي عند العرب ، : د. محمد حسين علي الصغير .
- ٤٨ - التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة : د. ابتسام مرهون الصفار
- ٤٩ - التعبير الفني في القرآن : د. بكرى شيخ أمين ، دار الشروق ، بيروت .
- ٥٠ - التعبير القرآني : د. فاضل صالح السامرائي ، جامعة بغداد ، بيت الحكمة .
- ٥١ - التفسير البياني للقرآن الكريم : د. عائشة بنت الشاطي ، مكتبة الدراسات .
- ٥٢ - تفسير سورة الإسراء : د. عبد الله محمود شحاتة ، الهيئة المصرية العامة
- ٥٣ - تفسير الشعراوي : محمد متولي الشعراوي ، مصر (د . ت) .
- ٥٤ - التفسير الكبير المسمى بـ (مفاتيح الغيب) : فخر الدين الرازي دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، ط ١ ، ٢٠٠٠ م .
- ٥٥ - تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعبون الأفاويل في وجوه التأويل : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، ت : خليل مأمون شيحا .
- ٥٦ - التقابل والتماثل في القرآن الكريم : د. فايز عارف القرعان .
- ٥٧ - تهذيب اللغة : الأزهرى ، تحقيق : يعقوب عبد النبي ، القاهرة (د. ت) .
- ٥٨ - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : الرماني والخطابي عبد القاهر الجرجاني .
- ٥٩ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بـ (تفسير الطبري) : الإمام

- الطبري ، ضبط وتعليق محمود شاكر ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ،
- ٦٠ - الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنشور : ضياء الدين ابن الأثير الجزري ، قام بتحقيقه : د. مصطفى جواد ، و جميل سعيد ، مطبعة المجمع العلمي .
- ٦١ - الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، تحقيق : سالم مصطفى البدري ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ط ١ ، ١٤٢٠ .
- ٦٢ - جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم : د. محمد عبد المطلب .
- ٦٣ - جدلية الخفاء والتجلي : كمال أبو ديب ، دار العلم للملايين - بيروت .
- ٦٤ - جماليات الأسلوب والتلقي : د. موسى ربايعه ، أريد ، ط ١ ، ٢٠٠٠ م .
- ٦٥ - جماليات المفردة القرآنية : د. أحمد ياسوف ، دار المكتبي .
- ٦٦ - جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع : السيد أحمد الهاشمي ، دار الفكر
- ٦٧ - حاشية الصاوي على تفسير الجلالين : أحمد بن محمد الصاوي المالكي (ت ١٢٤١ هـ) : صدقي جميل العطار ، دار الفكر ، ٢٠٠٣ م .
- ٦٨ - الحجاج في في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية : عبدالله صولة ، منشورات كلية الآداب ، جامعة منوبة ، تونس ، ٢٠٠١ م .
- ٦٩ - الحديث النبوي من الوجهة البلاغية : كمال عز الدين ، دار اقرأ .
- ٧٠ - الخصائص : ابن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الشؤون الثقافية
- ٧١ - خصائص التراكيب : د. محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة .
- ٧٢ - الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية - قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر - مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية : د. عبد الله الغدامي ، النادي الأدبي الثقافي .
- ٧٣ - دراسات بلاغية في القرآن و الحديث النبوي : د. محمد حسن شرشر
- ٧٤ - دراسات في الأدوات النحوية : د. مصطفى النحاس ، شركة الربيعان
- ٧٥ - دراسات في البلاغة العربية : د. عبد العاطي غريب علام .
- ٧٦ - دراسات في اللغة : د. إبراهيم السامرائي ، مطبعة العاني ، ١٩٦١ م
- ٧٧ - دراسات قرآنية : محمد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ط ٥ .

- ٧٨ - دراسات نقدية في النحو العربي : د. عبد الرحمن أيوب ، مؤسسة الصباح
- ٧٩ - دلائل الإعجاز في علم المعاني : عبد القاهر الجرجاني ، دار المعرفة .
- ٨٠ - الدلالة الزمنية في الجملة العربية : د. علي جابر المنصوري .
- ٨١ - الدلالة المرئية : د. علي جعفر العلاق ، دار الشروق ، عمان ٢٠٠٢ م .
- ٨٢ - دليل الدراسات الأسلوبية : د. جوزيف ميشال شريم ، المؤسسة الجامعية
- ٨٣ - دور الكلمة في اللغة : ستين أولمان ، ترجمة : كمال محمد بشر .
- ٨٤ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : الألوسي البغدادي .
- ٨٥ - الروض المريع في صناعة البديع : ابن البناء ، دار النشر المغربية .
- ٨٦ - زاد المسير في علم التفسير : ابن الجوزي القرشي المكتب الإسلامي .
- ٨٧ - الزمن في القرآن الكريم : د. بكري عبد الكريم ، دار الفجر للنشر والتوزيع
- ٨٨ - سورة الرحمن وسور قصار : د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر .
- ٨٩ - السيميائية والنص الأدبي : جامعة عناية باجي مختار ، الجزائر ، ١٩٩٥ م .
- ٩٠ - شرح الرضي على الكافية : رضي الدين الإسترابادي ، جامعة قار يونس .
- ٩١ - الشعرية : تزفيطان طودورف ، دار توبقال للنشر ، المغرب .
- ٩٢ - الشكل والخطاب : محمد الماكري ، المركز الثقافي العربي (د.ت) .
- ٩٣ - الصورة الشعرية الأصول والفروع : د. صبحي البستاني ، دار الفكر .
- ٩٤ - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : د. جابر أحمد عصفور .
- ٩٥ - الصورة في التشكيل الشعري : د. سمير علي سمير الدليمي ، بغداد .
- ٩٦ - الصيغ الزمنية في اللغة العربية : د. مالك المطليبي ، دار الشؤون الثقافية .
- ٩٧ - الضمائر في اللغة العربية : د. محمد عبد الله جبر ، دار المعارف ، ط ١ .
- ٩٨ - الطبيعة في القرآن الكريم : د. كاصد ياسر الزبيدي ، دار الرشيد ، ١٩٨٠ م .
- ٩٩ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ١٠٠ - عزف على وتر النص الشعري : د. عمر محمد الطالب ، دمشق .

- ١٠١ - على طريق التفسير البياني : د. فاضل صالح السامرائي ، جامعة الشارقة
- ١٠٢ - علم الأسلوب (مبادئه وإجراءاته) : د. صلاح فضل ، مؤسسة المخترار ،
- ١٠٣ - علم البديع ، د. عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،
- ١٠٤ - علم البديع والبلاغة العربية عند العرب : إ. ج. كراتشكوفسكي ، بيروت .
- ١٠٥ - علم الدلالة : بيار غيرو / ت : أنطوان أبو زيد ، منشورات عويدات .
- ١٠٦ - علم اللغة العام : فردينان دي سوسير ، ، دار آفاق ، بغداد ، ١٩٨٥ م .
- ١٠٧ - علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات) : د. سعيد حسن بحيري .
- ١٠٨ - العنوان و سيموطيقا الاتصال الأدبي : د. محمد فكري الجزائر .
- ١٠٩ - الفصل و الوصل في القرآن الكريم : د. منير سلطان ، منشأة المعارف .
- ١١٠ - الفعل زمانه وأبنيته : د. إبراهيم السامرائي ، مؤسسة الرسالة للطباعة .
- ١١١ - فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم : د. فتحي أحمد عامر ، جمهورية مصر العربية ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة القرآن والسنة .
- ١١٢ - الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان : ابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، (د. ت)
- ١١٣ - في الأدب ومذاهبه المعاصرة : د. علي عبد الخالق علي دومة .
- ١١٤ - في تشكل الخطاب النقدي : د. عبد القادر الرباعي ، الأهلية للنشر .
- ١١٥ - في سيمياء الشعر القديم : د. محمد مفتاح دار الثقافة ، المغرب .
- ١١٦ - في ظلال القرآن : الطبعة السادسة .
- ١١٧ - قراءات أسلوبية في الشعر الحديث : د. محمد عبد المطلب .
- ١١٨ - الكامل في اللغة والأدب : المبرد ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم .
- ١١٩ - كتاب البديع : ابن المعتز ، ت : إغناطيوس كراتشكوفسكي ، دار المسيرة .
- ١٢٠ - كتاب التعريفات : الجرجاني ، الناشر : دار الكتاب العربي ، بيروت
- ١٢١ - كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد إبراهيم ، المكتبة العصرية ،

- ١٢٢ - الكليات : لأبي البقاء أيوب ابن موسى الحسيني الكفوي . مؤسسة الرسالة .
- ١٢٣ - لسان العرب : ابن منظور ، المؤسسة المصرية العامة القاهرة (د.ت) .
- ١٢٤ - اللغة العربية معناها ومبناها : د. تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة
- ١٢٥ - لمسات بيانية في نصوص من التنزيل : د. فاضل السامرائي ، العراق .
- ١٢٦ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين بن الأثير ، قدمه وحقق وعلق عليه ، د. أحمد الحوفي ، منشورات دار الرفاعي ، (د.ت)
- ١٢٧ - مجاز القرآن : المثنى التيمي ، مكتبة الخانجي ، مصر .
- ١٢٨ - المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها : أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : علي الجندي وعبد الحلیم النجار ، و عبد الفتاح إسماعيل .
- ١٢٩ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ، (ت ٥٤١ هـ) دار ابن حزم ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ .
- ١٣٠ - مداخل إلى عالم الجمال الأدبي : عبد المنعم تليمة ، دار الثقافة للطباعة
- ١٣١ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل : النسفي ، دار النفائس للطباعة والنشر .
- ١٣٢ - مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص ، رولان بارت مركز الإنماء .
- ١٣٣ - المشاهد في القرآن : حامد صادق قنبي ، مكتبة المنار ، الأردن الزرقاء
- ١٣٤ - مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية : د. زكريا إبراهيم ، دار مصر .
- ١٣٥ - المصباح المنير : أحمد الفيومي المقري ، طبع ونشر وتوزيع دار الحديث
- ١٣٦ - المعاني الثانية في الأسلوب القرآني : د. فتحي أحمد عامر .
- ١٣٧ - معاني النحو : د. فاضل السامرائي ، بيت الحكمة ، بغداد ١٩٨٩ م
- ١٣٨ - معايير تحليل الأسلوب : ، ت : د. حميد الحمداني ، دار النجاح .
- ١٣٩ - معترك الأقران في إعجاز القرآن : السيوطي ، تحقيق : علي محمد البجاوي
- ١٤٠ - المعجم الأدبي : جبور عبد النور ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١ ،
- ١٤١ - معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب : مجدي وهبة وكامل
- ١٤٢ - معجم مقاييس اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق

وضبط : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر .

١٤٣ - مغني اللبيب عن كتب الأعراب : ابن هشام الأنصاري ، مطبعة المدني .

١٤٤ - مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي ، مطبعة مصطفى بابي الحلبي .

١٤٥ - المفردات في غريب القرآن : الأصفهاني المكتبة التوفيقية ، مصر .

١٤٦ - المفصل في علم العربية : الزمخشري ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ (د.ت)

١٤٧ - مفهومات في بنية النص ، اللسانية - الشعرية - الأسلوبية - التناسية ،

ت : د. وائل بركات ، دار معد للطباعة سوريا ، ١٩٩٦ م .

١٤٨ - مقاربات في الرواية والأقصوصة : بشير الوسلاطي ، المغاربية للطباعة .

١٤٩ - مقالات في الأسلوبية : منذر عياشي ، منشورات اتحاد كتاب العرب .

١٥٠ - المقاييس البلاغية في تفسير التحرير والتنوير ابن عاشور .

١٥١ - من أسرار التعبير القرآني : محمد أبو موسى ، مطبعة السعادة ، مصر ،

١٥٢ - من بلاغة القرآن : د. أحمد أحمد بدوي ، دار نهضة مصر للطبع .

١٥٣ - من بلاغة النظم العربي : د. عبد العزيز عرفة ، دار عالم الكتب .

١٥٤ - منازل الرؤية - : د. سمير شريف استيتية ، دار وائل للنشر والتوزيع .

١٥٤ - المنتخب من تفسير القرآن الكريم : الشيخ محمد متولي الشعراوي .

١٥٥ - المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع : محمد السجلماسي .

١٥٦ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء : حازم القرطاجني ، تونس ، ١٩٦٦ م .

١٥٧ - النحو الوافي : عباس حسن ، دار المعارف ، مصر ، ط٤ .

١٥٨ - النحو والدلالة : محمد حماسة عبد اللطيف ، كلية دار العلوم ، القاهرة

١٥٩ - نسيج النص - بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً ، الأزهر الزناد .

١٦٠ - النص القرآني من الجملة إلى العالم : وليد منير ، المعهد العالي للفكر .

١٦١ - نظرية المعنى في النقد الأدبي : د. مصطفى ناصف ، دار الأندلس .

١٦٢ - النظم الفني في القرآن : عبد المتعال الصعيدي ، الناشر : مكتبة الآداب .

١٦٣ - نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، ت : كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ،

- ١٦٤ - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : فخر الدين محمد بن عمر الرازي .
١٦٥ - وجود النص ، نص الوجود : مصطفى الكيلاني ، الدار التونسية للنشر ،
مطبعة تونس - قرطاج ، ط ١ ، ١٩٩٢ م .

الرسائل والأطاريح الجامعية

- ١٦٦ - الاستعارة في القرآن الكريم : أحمد فتحي رمضان ، جامعة الموصل .
١٦٧ - ظاهرة العدول بين البلاغة العربية والأسلوبية الحديثة : عبد العزيز عبد
الله ، أطروحة دكتوراه إلى كلية الآداب ، جامعة الموصل ، .
١٦٨ - فن الالتفات في البلاغة العربية : قاسم فتحي سليمان ، رسالة ماجستير
مقدمة إلى كلية الآداب ، بإشراف : د. جليل رشيد فالح ، ١٩٨٨ م .

البحوث المنشورة في الدوريات :

- ١٦٩ - الالتفات وأثره في شاعرية ابن زيدون : حسين خريوش ، مجلة أبحاث
اليرموك ، ١٩٩٥ م .
١٧٠ - تبادل الضمائر وطاقته التعبيرية : محمد نديم خشفة ، مجلة البيان .
١٧١ - دلالة الأطر الأسلوبية وصلتها بتقديم مكونات الجملة : رشيد بلحبيب ،
المجلة العربية للثقافة ، ع (١٨) ، ١٩٩٩ م .
١٧٢ - فن الالتفات في مباحث البلاغيين : د. جليل رشيد فالح ، مجلة آداب
المستنصرية ، ع (٩) ، ١٩٨٤ م .
١٧٣ - معالم أسلوبية عند ابن الأثير من كتاب المثل السائر : أحمد قاسم الزمر ،
مجلة المورد ، ٢٠٠٢ م .
١٧٤ - المنهجيات اللسانية في تحليل الخطاب الأدبي ، بسام بركة ، مجلة الفكر
العربي ع (٨٧) ، ٢٠٠٢ م .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة المؤلف
٥	التمهيد
١١	الالتفات في المفهوم اللغوي
١٣	إشكالية الالتفات في المفهوم الاصطلاحي
٣٣	وظائف الخطاب الالتفاتي في القرآن الكريم
٤٣	الفصل الأول : بلاغة الأنماط الأسلوبية للالتفات الضمائي (التركيب والدلالة)
٤٤	مدخل
٥٧	المبحث الأول : سياقات التحول
٥٧	١ - سياق الغيبة / الخطاب
٩٧	٢ - سياق الخطاب / الغيبة
١١٨	المبحث الثاني : سياقات التحول
١١٨	١ - سياق الغيبة / التكلم
١٤٨	٢ - سياق التكلم / الغيبة
١٧١	المبحث الثالث : سياقات التحول
١٧١	١ - سياق التكلم / الخطاب
١٧٤	٢ - سياق الخطاب / التكلم
١٧٦	الفصل الثاني : بلاغة الأنماط الأسلوبية للالتفات الفعلي (التركيب والدلالة)

١٧٧	مدخل
١٨٣	المبحث الأول : سياقات التحول
١٨٣	١ - سياق الماضي / المضارع
٢٠٨	٢ - سياق المضارع / الماضي
٢٢٣	المبحث الثاني : سياقات التحول
٢٢٣	سياق المضارع / الأمر
٢٣٠	المبحث الثالث : سياقات التحول
٢٣٠	سياق الماضي / الأمر
٢٣٣	الفصل الثالث : بلاغة الأنماط الأسلوبية للالتفات العددي (التركيب والدلالة)
٢٣٤	مدخل
٢٣٦	المبحث الأول : سياقات التحول
٢٣٦	١ - سياق الأفراد / الجمع
٢٥٤	٢ - سياق الجمع / الأفراد
٢٦٨	المبحث الثاني : سياقات التحول
٢٦٨	١ - سياق الأفراد / التثنية
٢٧١	٢ - سياق التثنية / الأفراد
٢٧٦	المبحث الثالث : سياقات التحول
٢٧٦	١ - سياق التثنية / الجمع
٢٨٢	٢ - سياق الجمع / التثنية
٢٨٤	الخاتمة
٢٨٦	ثبت المصادر والمراجع
٢٩٥	الفهرس